ومضات

تأليف

د. محمد بن إبراهيم الحمد

دار ابن خزيمة

ح محمد بن إبراهيم الحمد ، ١٤٣١هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية اثناء النشر

الحمد، محمد بن إبراهيم

ومضات . / محمد بن إبراهيم الحمد - الزلفي، ١٤٣١ هـ

٣١٤ص ، ١٤ X ٢٠ سم

ردمك ٧-٥٥٩٣-٠٠-٦٠٣-٩٧٨

١- الوعظ والإرشاد أ- العنوان

ديوي ٢١٣ ١٤٣١/٦٧١٨

رقم الإيداع: ١٤٣١/٦٧١٨
ردمك: ٧-٥٥٩٣-٠٠-٦٠٣-٩٧٨

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

دار ابن خزيمة
للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية - الرياض
الملز - شارع الاحساء - غرب حديقة الحيوان
هاتف: ٤٧٣٠٧٨٨ - ٤٧٦٩٩٣٢ - فاكس: ٤٧٦٠٧٩٥

المقـدّمَة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد:

فإن مرورَ الأيام، وكُرورَ السنين يوقف الإنسان على أمور لم تكن في حسبانه، ويوصله إلى حقائق كانت غائبة عنه، ويجعله يعيد قراءته للأشياء بواقعية بعيداً عن الإسراف في المثالية.

والإنسان مدني بطبعه، لا ينفك عمن حوله، ولا يستطيع أن يعيش في عزلة مطلقة.

وهذا الارتباط الوثيق مع بني جنسه يُنَمِّي معارفه، ويوسع مداركه؛ فتزداد بذلك خبراته، وتعظم تجاربه؛ خصوصاً إذا كان يعتبر بالحوادث، ومجريات الحياة.

أما إذا كان طولُ الأيام والتجارب لا يفيده شيئاً، ولا يضيف إليه جديداً ـ فلن يكون له شأنٌ أو ذكرٌ، وستكون أيامه نسخاً مكرورة، و:

إذا لم يكـن مـرُّ الـسنين مترجمـاً عن الفضل في الإنسان سميته طفلا

وإن قدراً كبيراً من التجارب الإنسانية يضيع سدىً، أو تكون فائدته محصورة، والسبب في ذلك أن أصحابها لا يُدَوِّنونَها، فتقل الفائدة منها أو تتلاشى، لذا فإنه يجدر بالإنسان إذا صَفا فِكرُه، وعَدَلَ تأملُه، وواتَتْهُ قريحتُه ـ أن يُدَوِّن ما يلوح في خاطره من ومضات، وما يدور في ذهنه من

خواطر وارتسامات شأنها أن تنهض بالنفوس، وترتقي بالأخلاق، وتختصر الطريق.

وما في صفحات هذا الكتاب إنما هو ضرب من ذلك القبيل؛ فهي ومضاتُ فكرٍ تَطُول، وتقصر دون أن يكون بينها رابط في الجملة.

بل هي أشبه بالخواطر التي تجول في النفس، وتعتمل في الذهنِ، وتدور في الخيال.

وقد يُحتاج معها أحياناً إلى الرجوع إلى بعض النقول من بعض الكتب حتى تستوي الفكرة على ساقها.

وإلا فالأصل أنها أحاديثُ عابرةٌ تتخذ مبدأ اليسر، والقرب، والبساطة، والاتِّسام بالروحِ والمائية، والبعد عن الجفاء والجفاف.

وقد يكون منطلقُها آيةً من كتاب الله -عز وجل- أو حديثاً من أحاديث المصطفى ﷺ.

وقد يكون المنطلق موقفاً من مواقف الحياة، أو قصةً حادثةً، أو بيتَ شعرٍ، أو كلمةً لعالم، أو سيرةَ إنسانٍ، أو قضيةً من القضايا وهلم جرا ...

وليس من ضرورة ذلك أن تكون الفكرةُ مستوعبةً أطرافَ الموضوع الذي تدور حوله، بل يكفي -أحياناً- أن تشير إلى الغرض الذي ترمي إليه دون تَقَصٍّ أو إحاطة؛ ولهذا جاء معظم هذه الومضات متسماً بالتوسط.

وإذا كان بعضها طويلاً جُعِلَ في عناصر؛ حرصاً على طرد الملل، وملاحظةً لمادة التشويق، وإعانة على فهم المقصود[١].

ولأجل ألا يثقل الكتاب استُغني عن العزو، والإحالات، وكثرة الحواشي.

وقد سُبقت هذه الومضات بكتابين قريبين منها وهما كتاب: (خواطر) وكتاب: (ارتسامات) فهذا الكتاب يسير على ذلك النمط، ويدور في فلكه؛ فإلى محتويات الكتاب، والله المستعان وعليه التكلان.

د. محمد بن إبراهيم الحمد
الزلفي: ص.ب: ٤٦٠
٢٣/٧/١٤٣١هـ
جامعة القصيم -كلية الشريعة والدراسات الإسلامية-
قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة
www.toislam.net
alhamad@toislam.net

١- ولعلك تلحظ من خلال ما مضى مدى الملائمة بين عنوان الكتاب وما تحته من مضمون؛ فالومضات جمع وَمْضَة، مِنْ وَمَضَ البرقُ يَمِض ومضاً، ووميضاً، وتوماضاً: أي لمع لمعاً خفياً، ولم يعترض في نواحي الغيم.

والوميض: كلُّ شيء صافي اللون، والوميضُ: الإشارةُ الخفية؛ فلعل هذه الومضات تحمل معنى الصفاء، وتشير إلى الغرض أحياناً من طرف خفي، وتتناول الموضوعات من زوايا مختلفة.

١ـ ومضات قصيرة

١ـ في قوله ـتعالى ـ: ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ ﴾ (القصص:٢٤): إخلاصٌ، وشهامةُ خاطرٍ، وبُعْدٌ عن حبِّ الظهور، وتركٌ لطلب المقابل.

ومع ذلك ظهر فضله في الحال عند والد الفتاتين، وجاءه الخير وهو في ظله: ﴿ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ (القصص:٢٥).

وفي قوله: ﴿ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ (القصص:٢٤) إشارة إلى أن الإحسان إلى الخلق سبب لإحسان الخالق وإجابته دعاءَ المُحسِنِ.

٢ـ العفو والصفح عن المخلوقين من أعظم الأسباب التي تنال بها محبةُ الخالق، ومن أعلى مقامات الإحسان: ﴿ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (المائدة:١٣).

٣ـ في قوله ـتعالى ـ: ﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَٱللَّهُ قَدِيرٌ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (الممتحنة:٧) إرشاد إلى أنه لا ينبغي للإنسان أن يُفرِط في العداوة، وألا يقطع حبال الصلة مع المخالفين أو المناوئين.

بل يحسن به أن يعتدل في ذلك، وأن يجعل فرصةً للصلح والتقارب ولو كانت ضئيلة؛ فلربما انقلبت تلك العداوة إلى مصالحة ومسالمة، وقد جاء في الأثر: «أحبب حبيبك هوناً ما عسى أن يكون بغيضك يوماً ما،

وأبغض بغيضك هوناً ما عسى أن يكون حبيبك يوماً ما».

٤ـ في قوله ـتعالى ـ: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ (النساء:٥٨) إرشاد إلى أداء الأمانات، وإشارة إلى استحضار الأجر المترتب على ذلك؛ فالقيام بالأوامر الربانية من موجبات رضا الخالق ـجل وعلاـ.

وكثير من الناس لا يستحضر إلا القليل من معاني تلك التأدية، ويغيب عن باله أمور يسيرة يقوم بها من تلقاء نفسه؛ من نحو أداء الحقوق، وإعطاء الأجير أجره، وسداد الديون المتعلقة به، وإعطاء العاملين عموماً حقوقهم المادية والمعنوية؛ فذلك من قبيل أداء الأمانات الذي تُرفع بها الدرجات، وتحط السيئات.

٥ـ في قوله ـتعالى ـ: ﴿ اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ (الحجرات: ٨) إرشاد للإنسان بألا يسترسل مع الأوهام والخيالات التي ترد على خاطره؛ فإن أغلب الظنون كاذبة، وأكثر الخوف مدفوع.

وربَّ أمورٍ لا تضيرك ضيرةً ... وللقلب من مخشاتهن وجيب

وإذا حسنت أفعال المرء حسنت ظنونه، واطمأنت نفسه، و:

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه ... وصدق ما يعتاده من توهم

وعادى محبيه بقول عُداته ... وأصبح في ليل من الشك مظلم

٦ـ في قوله ـتعالى ـ: ﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ (فاطر: ٤٣) زجر وتهديد لمن فسدت مقاصده، وساءت نواياه.

وفيه حث على إصلاح المقاصد، وإحسان النوايا، وذلك يتضمن سوء العاقبة للأول، وحسن المآل للثاني.

٧ـ جميلٌ أن تَتعرف على الله، وتقترب منه وقت الشدة، وأجمل

من ذلك أن يكون في حال الرخاء.

وقبيحٌ أن تنأى عن الله في الرخاء، ويزيدُ القبحُ إذا كان ذلك وقت الشدة؛ ﴿ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ ﴾ (الأنعام: ٤٣).

٨ـ المعركة سجالٌ بينك وبين الشيطان، ولا تُعَدُّ مهزوماً إلا إذا ألقيت السلاح، واستسلمت لعدوك؛ ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ (فاطر: ٦).

٩ـ العمل النافع هو ما أثمر أنساً، وراحة، وأعقب أجراً، وحط وزراً، والعمل الضار بعكس ذلك.

١٠ـ قد ينفعك العدو، وقد يضرك الصديق:

ومن العداوة ما ينالك نفعُه ... ومن الصداقة ما يضر ويؤلم

غير أن ذلك خلاف الأصل؛ فالصديق مظنة المنفعة، والعدو مظنة المضرة.

١١ـ المحافظة على الصديق، ومُياسَرتُه، وإحسانُ سياسته، وقبولُه على علاته، والتجاوزُ عن سيئاته ـ أمارةٌ على نباوة الشأن، وكمال العقل، وكِبَر النفس.

احفظ أخاك وإن تبيَّن أنه ... بالي الودادِ ضعيفُه مُختلُّه

فالبُرْدُ يكفيك العيونَ دَرِيسُه ... والعضو ينفع في الخطوب أشلُّه[1]

١٢ـ من أشد الأمور على النفس أن يفهمك أحدٌ من الناس على ما يريد لا على ما تريد، ثم يبني على ذلك مواقف.

---

١ ـ البُرد: الثوب، والدَّريس: الثوب الخَلِق.

١٣ـ كثيراً ما تتعطل المبادرات النافعة بسبب الحواجز الوهمية.

١٤ـ من الناس من لا تلقاه إلا وهو عاتب عليك دون أدنى سبب، ودون أن يكون له عليك أقلُّ حق.

١٥ـ مجردُ لقيا بعض الناس تشعرك بالارتياحِ والارتفاعِ، ومجردُ لقيا بَعْضِهم تورثك الهمَّ، وقد تولِّد لديك الإحباط.

ولكن الحصيفَ يفيد من الأول؛ فيجعله كالوقود، ولا يتضرر من الثاني، بل يقبله على عِلاَّته، ولا يجعله كالعقبة الكؤود؛ فالأول يدفعه إلى الأمام خطوة، والثاني يكسبه مناعةً وقوة.

١٦ـ لا يلزم من محبةِ فلان، أو مصافاتِه موافقَتُهُ في جميع آرائه، أو معاداة خصومه من أجله.

١٧ـ لا يلزم من مخالفة فلانٍ من الناس، أو تَخْطِئَتِهِ في أمرٍ ما ـ مصادرةُ جميع آرائه ونجاحاته.

١٨ـ لا يلزم مَنْ فُتح عليه في باب من الأبواب، أو قُدِّر له نجاحٌ في ميدانٍ ما أن يُفْتَح عليه في كل باب، أو أن يكون ناجحاً في كل ميدان.

١٩ـ لا يلزم من كان مُخفقاً في شأن من الشؤون أن يكون غير صالحٍ لشيء بعد ذلك.

٢٠ـ كثير من الناس يعتقد أنه محسود مغبوط، فيتخذ مواقف من جراء ذلك الاعتقاد، وقد يكون مخطئاً في اعتقاده.

والحكمة تقتضي إحسانَ الظن، واتساعَ العذر، والاشتغالَ بالنفس حتى ولو كان الإنسان محسوداً حقيقة؛ فالإغضاء عن إساءة الحاسد مظهر من مظاهر الشكر، وذلك قمة الشرف، وذروة النبل.

وإذا حُسِدت فإن شكر فضيلةٍ أن لا تؤاخذ بالإساءة حاسدا

٢١ـ من أروع ما تراه أو تسمعه أن تجد شخصاً يسعى في مصلحتك وأنت لا تعلم، وتزداد الروعة إذا كنت لا تنتظر ذلك منه.

ومن أقبح ما تراه أو تسمعه أن تجد شخصاً يسعى في الإضرار بك في الخفاء، مع أنك لم تقترف ما يوجب ذلك.

ويزداد القبح إذا صدر ذلك ممن تؤمل فيه الخير.

وإخـــوان حـــسبتهم دروعـــاً فكانوهـــا ولكـــن للأعـــادي

٢ـ لطيفة في سيرة موسى ـعليه السلامـ

لقد كثر ذكر نبي الله موسى ـعليه السلامـ في القرآن الكريم، كما ورد له ذكر في السنة المطهرة، وليس المجال مجال بسط، وإنما هي إشارات.

ومن خلال النظر في سيرته ـعليه السلامـ يتبين أنه من أولي العزم من الرسل، وأنه قد بلغ الكمالَ البشري من جهة القوة، والشجاعة، والثبات، ورباطة الجأش؛ كيف لا، وقد بعث إلى أعظم طاغية ذكر في القرآن الكريم ألا وهو فرعون.

كيف لا، وقد عالج من أمة بني إسرائيل ما عالج؛ حيث كانوا على درك سحيق من العناد، والفساد، والخور، واللؤم.

ولعل من أبرز ما جاء في شأن قوته، وشجاعته ما كان منه مِنْ فَقْأ عين المَلَكِ، ومحاجةِ أبيه آدم، وأخذِه برأس أخيه يجره إليه، ووَكْزِهِ الرجلَ القبطي، ومواقفه العظيمة مع فرعون ومَلَئِه، إلى غير ذلك مما يدل على شجاعته المتناهية المتنوعة.

ومع ذلك فإن المتأمل في سير الأنبياء في القرآن الكريم يرى أنه لم يُذكَرِ الخوفُ في سيرة نبي كما ذكر في سيرة موسى ـعليه السلامـ.

حيث ورد ذكر الخوف في سيرته في صيغ متنوعة، وسياقات مختلفة، منها على سبيل المثال قوله ـتعالىـ عنه: ﴿إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ (طه: ٤٥) وقوله ـتعالىـ: ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ (طه:٤٦) وقوله ـتعالىـ: ﴿فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ (طه: ٦٧ـ٦٨) وقوله ـتعالىـ: ﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا

تَخْشَىٰ ﴾ (طه: ٧٧) وقوله -تعالى-: ﴿ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ ﴾ (الشعراء: ٢١) وقوله -تعالى-: ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾ (القصص: ٢١) وقوله عن صاحب مدين لموسى: ﴿ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (القصص: ٢٥) وقوله عن موسى -عليه السلام-: ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾ (القصص: ٣٤).

وهذه السيرة تحتاج إلى مزيد عناية، وتأمل، وتدبر؛ ليتضح من خلالها شيء من الدروس، والعبر.

ومما توحيه دلالة تلك السيرة أن الشجاعة لا تقتصر على الإقدام في ميادين الوغى فحسب، بل هي أعم من ذلك، فتشمل الشجاعة الأدبية في التعبير عن الرأي، وبالصدع بالحق، وبالاعتراف بالخطأ، وبالرجوع إلى الصواب إذا تبين.

وهذا يتجلى في سيرة موسى غاية التجلي.

ومن الإشارات التي تحملها هداية تلك السيرة العظيمة أنه ليس من شرط الشجاعة ألا يجدَ الرجلُ في نفسه الخوفَ جملةً من الهلاك، أو الإقدام، أو نحو ذلك؛ فذاك شعور يجده كلُّ أحدٍ من نفسه إذا هو همَّ بعمل كبير أو جديد.

بل يكفي في شجاعة الرجل ألا يعظم الخوف في نفسه حتى يمنعه من الإقدام، أو يرجع به إلى الانهزام.

قال هشام بن عبد الملك لأخيه مسلمة المسمى ب: ليث الوغى: يا أبا سعيد، هل دخلك ذعر قط لحرب أو عدو؟

قال مسلمة: ما سلمت في ذلك من ذُعْرٍ يُنَبِّه على حيلة، ولم يَغْشَنِي فيها ذُعْرٌ سَلَبَني رأيي.

قال هشام: هذه هي البسالة.

بل إن أشجع الشجعان يجدون في أنفسهم ذلك الشعور إذا هم خاضوا المنازلات، وغشوا ساحات الوغى.

لكن ذلك لا يحملهم على الإحجام والانهزام.

فهذا عمرو بن معدي كرب الزبيدي ـ وحسبك به شجاعة وإقداماً ـ يصف نفسه، ويصور حالته في ساحة الوغى، ويبين أن الخوف يداخله، ولكن ذلك لا يحمله على الفرار والإحجام؛ فلا ينقص ذلك من قدره، ولا ينزل من مكانته؛ حيث يقول:

ولقد أجْمَعُ رِجْلَيَّ بها ... حَذَرَ الموتِ وإني لفرورْ

ولقد أعْطِفُها كارهةً ... حين للنفس من الموت هريرْ

كلُّ ما ذلك مني خلقٌ ... وبكلٍّ أنا بالروع جديرْ

فالشجاعة ـ إذاً ـ هي مواجهة الألم، أو الخطر، أو نحو ذلك عند الحاجة في ثبات، وليست مرادفةً لعدم الخوف كما يظن بعض الناس.

فالذي يرى النتائج، ويخاف وقوعها، ثم يواجهها في ثبات ـ رجل شجاع.

فالقائد الذي يقف على خط النار، فترتعد لذلك فرائصه؛ خشيةً من نزول الموت به، ثم يضبط نفسه، ويؤدي عمله كما ينبغي ـ هو رجل شجاع.

بل هو شجاع -أيضاً- إذا رأى أن خير عمل يعمله أن يتجنب الخطر، وأن الواجب يقضي عليه أن ينسحب بجنوده حيث لا خطر.

فإذا هو أضاع في موقفه رشده، أو ترك موقفاً يجب أن يقفه، أَوْ فَرَّ بجنوده من خطر كان عليه أن يقفه ـ فهو جبان.

فالشجاعة لا تعتمد على الإقدام والإحجام فحسب، ولا على الخوف وعدمه، وإنما تعتمد على ضبط النفس، وعمل ما ينبغي في الوقت الذي ينبغي على الوجه الذي ينبغي؛ فتلك هي شجاعة الحكيم.

قال عمرو بن العاص لمعاوية -رضي الله عنهما-: لقد أعياني أن أعلم: أجبان أنت أم شجاع؟ فقال:

شجاعٌ إذا ما امكنتني فرصةٌ   وإلا تكن لي فرصة فجبان

بل ليس بالمحمود أن يتجرد الإنسان من كل خوف؛ فقد يكون الخوف فضيلة، وعدمه رذيلة؛ فالخوف عند الإقدام على أمر مهم تتعلق به مصالح الأمة، أو يحتاج إلى اتخاذ قرار حاسم ـ فضيلة وأي فضيلة؛ إذ هو يحمل على الروية، والتأني، والتؤدة، حتى يختمر الرأي، وينضج في الذهن؛ فلا خير في الرأي الفطير، ولا الكلام القضيب[1] والعرب تقول: «الخطأ زاد العَجُول».

كما أنها تمدح من يتريث ويتأنى، ويقلب الأمور ظهراً لبطن، وتقول فيه: «إنه لَحُوَّلٌ قُلَّبٌ».

---

١ ـ الرأي الفطير: هو الذي لم ينضج، والكلام القضيب: هو المرتجل.

ولهذا ما زال الحكماء ينصحون الناس ألا يقدموا على مواقع الخطر إلاّ أن تكون فائدة الإقدام أكبر من خسارته، قال أبو الطيب المتنبي:

الـراي قبـل شـجاعة الـشجعانِ هـو أول وهـي المحـل الثـاني
وإذا همـا اجتمعـا لـنفس مِـرَّةٍ بلغـت مـن العليـاء كـل مكـان

وقال:

وكـل شـجاعة في المـرء تغـني ولا مثـل الـشجاعة في الحكـيم

وإنما الجبن المذموم، والخوف المرذول هو ما بالغ صاحبه فيه مبالغة تخرجه عن طوره؛ فهذا هو خوف الجبان الرعديد، الذي يُغَلِّب جانب الشر، ويخشى سوء عواقبه.

أما الشجاع فلا يفكر كثيراً في احتمال الشر، ثم إذا وقع لم يَطِرْ قَلْبُه شَعاعاً، بل يصبر، ويتحمله بثبات؛ إن مرض لم يضاعف مرضه بِوَهْمِهِ، وإن نزل به مكروه قابله بجأش رابط فخفف شدته؛ فمن الحكمة والعقل ألا يجمع الإنسان على نفسه بين الألم بتوقع الشر، والألم بحصول الشر؛ فليسعد ما دامت أسباب الحزن بعيدة عنه؛ فإذا حدثت فليقابلها بشجاعة واعتدال، قال أبو علي الشبل:

ودَعِ التوقُّـعَ للحـوادث إنـه للحـي مـن قبـل الممـات ممـات

وبالجملة فالشجاع ليس بالمتهور الطائش الذي لا يخاف مما ينبغي أن يخاف منه، ولا هو بالجبان الرعديد الذي يَفْرَقُ من ظله، ويخاف مما لا يخاف منه.

ثم إن الشجاعة ليست هي قوةَ البدن؛ فقد يكون الرجل قوي البدن ضعيف القلب، وإنما هي قوة القلب وثباته.

والمحمود منها ما كان بعلم ومعرفة، دون التهور الذي لا يفكر صاحبه، ولا يميز بين المحمود والمذموم.

ولهذا كان القوي الشديد هو الذي يملك نفسه عند الغضب حتى يفعل ما يصلح دون ما لا يصلح.

فأما المغلوب حين غضبه فليس بشجاع ولا شديد -كما يقول ابن تيمية رحمه الله-.

وهكذا يتبين لنا من سيرة موسى -عليه السلام- أن الخوف لا يذم ولا يمدح لذاته، وأن مجرد الشعور الفطري بالخوف لا ينافي الشجاعة.

وأن الإنسان ضعيف بطبعه؛ فمهما بلغ من القوة، والشجاعة، والتمكين - يبقى ضعيفاً لا يملك من شأنه حول ولا طول؛ فهو مربوب مقهور لا يخرج من علم الله، وإحاطته، ولا يستغني عن لطفه وإعانته.

كما أن تلك السيرة العظيمة تحمل في طياتها لفتاتٍ بارعة في التعامل مع الخوف، وأسباب اكتساب الشجاعة؛ فمن ذلك أن الشجاعة -وإن كان الإنسان مفطوراً عليها- تزيد بالدُّرْبَة، والمِران، والتعود؛ فإن موسى -عليه السلام- زادت تلك الخصلة عنده بسبب ملاقاة الشدائد، والخطوب؛ فاجتمع عنده الخُلُقُ الجِبِلِّيُّ بالخلق الاكتسابي.

ومن أسباب ذلك توطين النفس على وقوع المكروه، والحذر من تضخيم النتائج؛ فإن موسى كان يتوقع أن يَفْرُطَ عليه فرعون، أو أن

يطغى، وكان يتوقع تكذيبه إياه، إلى غير ذلك مما وطن موسى نفسه عليه؛ فكان ذلك سبباً في الاستعداد له، ومقابلة ذلك بكل ثبات وشجاعة.

ومما أخذ به موسى نَفْسَه أنه نظر في العواقب؛ فكان ذلك دافعاً له أن يقدم؛ لأن عاقبة مجابهة فرعون سيسفر عنها بيانُ حَقٍّ، وأن مصير فرعون إلى خسار وبوار؛ لأنه مفسد، والله لا يصلح عمل المفسدين.

كما أن موسى -عليه السلام- يعلم ويوقن أنه على حق، وإحسان، وأن الله -عز وجل- مع الذين اتقوا والذين هم محسنون.

ومن ذلك أن موسى -عليه السلام- علم أنه لا يملك عدة ولا عتاداً، وعرف قوة خصمه الذي بلغ من القوة ما بلغ، فخشي موسى من قوة فرعون، وأدرك أن قوته الظاهرة القليلة لا يمكن أن تقف أمام قوة فرعون وجبروته؛ فلما طَمْأنه ربه -جلا وعلا- بقوله: ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ (طه:٤٦) أقدم موسى غير هياب ولا وجل، فصار قلبه مطوياً على سراجٍ من التوكل على من بيده ملكوت كل شيء؛ فكانت عاقبة أمره رشداً وفلاحاً.

ومما أخذ به موسى -عليه السلام- لزوم التقوى، واستحضار معية الله الخاصة؛ فلقد قال له ربه -جل وعلا-: ﴿فَٱسۡتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ (يونس: ٨٩).

وقال له: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ (طه: ٤٦).

فلما كان كذلك انبعث إلى قوة القلب، واطِّراح كلِّ سبب يؤدي إلى الخورِ، وتعظيمِ شأنِ الخوفِ من غير الله؛ فتقوى الله -عز وجل-

هي أعظم باعث للشجاعة؛ فالمؤمنون حقاً لهم الأمن وهم مهتدون، والمرتابون يحسبون كلَّ صيحةٍ عليهم، وكلَّ مكروهٍ قاصداً إليهم.

ومن عرف ربه وقَدَرَه حق قَدْره، وعَظُمَ وقارُه وجلاله في قلبه - هانت عليه الدنيا، وزال عن قلبه مهابةُ الخلق، وانقلبت في حقه المخاوف أمناً كحال موسى -عليه السلام-.

فمن تفقه في التقوى عرف أنها الوسيلة الكبرى للعظمة الصادقة.

ومما أخذ به موسى -عليه السلام- أنه استجاب لأمر ربه لما أمره بالإكثار من ذكره -عز وجل- كما في قوله: ﴿وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾ (طه: ٤٢).

فبذكر الله تطمئن القلوب، وتسكن النفوس، ويُغْلَبُ العدو، وتهون الصعاب، ولهذا أرشدنا الله -تبارك وتعالى- إذا لقينا العدو أن نثبت، ونكثر من ذكره -عز وجل- لما في ذكره من الطمأنينة والثبات.

قال -تعالى-: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (الأنفال: ٤٥).

ومن الأسباب التي أخذ بها موسى -عليه السلام- لجوؤه إلى الله، وسؤاله الإعانة كما في قوله: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨) وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي (٢٩) هَارُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢)﴾ (طه).

ثم ختم الدعاء بأدب جميل يعد من أعظم أسباب إجابة الدعاء؛ التي تستجلب بها الإجابة؛ حيث ختم بغرض نبيل عظيم ألا وهو قوله: ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ (طه).

فهذا بعض ما تيسر تقييده من سيرة موسى ـعليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأزكى التسليمـ.

٣ـ الذوق في تطبيق السنة

قرأت كلمة في الشرح الممتع ٣/٩٠ لشيخنا العلامة محمد ابن صالح العثيمين وهي قوله ﷫ : «**لا ينبغي للإنسان أن يفعل سُنَّة يؤذي بها غيره**».

وهذه الكلمة الجميلة الرائعة من ذلك العالم الرباني تحمل في طياتها معانيَ تربويةً في تطبيق السنة النبوية.

فالحرص على تطبيق السنة، والاقتداء بسيد الخلق ـعليه أفضل الصلاة وأتم التسليمـ خصلةٌ عظيمةٌ، ومنقبةٌ جليلةٌ، تُنال بها الدرجات العلى، ويُتَقَرَّبُ بها إلى الله زلفى.

وكلما زاد الحرص على تطبيق السنة كان ذلك أقرب إلى الكمال.

ولكن ثمت مسألةٌ يحسن التنبه لها في ذلك الشأن، ألا وهي مسألة الذوق في تطبيق السنة، وذلك بأن تكون على بال الحريص على تطبيقها؛ حتى لا يَجْعَلَ من السنة ذريعةً لأذية الآخرين، أو تنفيرهم من الدين.

فمن الأمثلة على ذلك الحرصُ على السواك؛ ففي ذلك اقتداء، وحصول ثواب.

ولكن لا ينبغي أن يترتب على ذلك أذية الآخرين بإصدار أصوات مزعجة، أو حركات مؤذية.

وكذلك الحال في عبادات الحج كرمي الجمار، وتقبيل الحجر الأسود، وما جرى مجرى ذلك من العبادات التي يكثر عندها

الزحام؛ فيحتاج المؤمن إلى استشعار روح العبادة، واستحضار روح الأُخُوَّة الإسلامية؛ فيحرص على تطبيق السنة، ويحرص -كذلك- على رعاية حقوق إخوانه، فيحب لهم ما يحب لنفسه، ويكره لهم ما يكرهه لنفسه؛ فإذا ترتب على فعل السنة المستحبة أذيةٌ فقد يكون تركها أولى.

وقل مثل ذلك في شأن تسوية الصفوف للصلاة، فتجد من الناس من يبالغ في ذلك، ويؤذي من بجانبه؛ بحجة الرغبة في تحاذي المناكب والأكعب، وربما عبس في وجه أخيه المسلم في الصلاة، وربما نهره إذا رأى منه توانياً في الاستجابة.

وكذلك الحال بالنسبة في سد الفُرج؛ فهو محمود؛ ولكن يتقدم إلى الصف الذي أمامه، وليس فيه فرجة، فيزاحم من أمامه، ويضيق عليهم حتى يوجدوا له فرجة.

ولا ريب أن تسوية الصفوف من تمام الصلاة، ولكن لا يحسن أن تتم الصلاة بتكدير النفوس، وتنافر القلوب.

وإنما تكون بلطف، وأدب، وذوق، لا أن تكون بإلغاء مَقْصِدٍ من أعظم مقاصد أداء الصلاة جماعة، ألا وهو تقارب القلوب، وزيادة المودة.

وكذلك الحال بالنسبة لبعض الأئمة الذين يرغبون في تسوية صفوف جماعة مساجدهم، فهم مشكورون مأجورون في ذلك.

ولكن يحسن بهم أن يتدرجوا في ذلك، وأن يراعوا حال الجماعة، وخصوصاً كبار السن، والغرباء، فيجمل بالأئمة أن يحرصوا على تقوية الروابط معهم، وعلى ترغيبهم في السنة، وعلى ملاقاتهم بوجه

طلق، ولسان رطب، وراحة كريمة، وأمرٍ بلطف، ونهيٍ بلا عنف؛ فذلك مما يرغب الناس بالسنة، ويزيدهم إقبالاً عليها.

وقل مثل ذلك في السلام؛ فقد يبذل بعض الناس التحية، فيُلقي السلام على إخوانه المسلمين، ولكن قد يكون ذلك مصحوباً بشيء من العبوس، وتقطيب الجبين، وخشونة العبارة؛ فيتمنى المُسَلَّمُ عليه أنَّ صاحبه لم يبادرْهُ بالتحية.

ولو كان السلام مصحوباً بابتسامةٍ مشرقة، وراحةٍ كريمة، وعبارة ليِّنة ـ لكان ذلك أجدى نفعاً، وأعظمَ ثواباً.

وقل مثل ذلك في رد السلام، فقد يُسَلِّم إنسان على أخيه، فيردُّ المُسَلَّم عليه السلام، ويظن أنه قد قضى حق التحية بمجرد الرد دون النظر إلى طريقته وأسلوبه؛ فقد يكون الرد مصحوباً بشيء من الجفاء، والكزازة؛ فيتمنى المسلِّم أنه لم يبدأ بالسلام.

واللائق أن تُقابَلَ التحيةُ بأحسنِ منها أو مثلها، وذلك بمقابلة المسلِّم بمزيد بشاشةٍ وإقبال، أو أن يُقَابَلَ المُسَلِّمُ ـ في الأقل ـ بمثل ما جاد به.

وكذلك الحال بالنسبة لبذل النصيحة، والقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإكرام الضيف، ومعاملة الوالدين، وغير ذلك مما لا يمكن حصرُه مما يُحْتاج في القيام به إلى شيء من الذوق واللطافة.

٤ـ كبير وهو لا يدري

يوجدُ نفرٌ من الناس قد بلغوا من الكبر عتياً وهم لمّا يزالوا صغاراً في عقولهم، وحماقاتهم، ورعوناتهم، ونظرتهم للأشياء.

فلا يريدون إلا المداراة المستمرة، ولا يقبلون أيَّ مخالفة لرأي من آرائهم، أو تصرف من تصرفاتهم.

وتجد مَنْ حولهم مِنَ الأولاد، أو الإخوان، أو الأقارب، أو الزملاء يعاملونهم بذلك المقتضى.

فهؤلاء قوم قد كَبِروا وما شَعُروا بذلك، بل لا تزال الطفولة باقية في نفوسهم من جهة التصرف، لا من جهة البراءة، والعفوية.

وهذا ضرب مذموم، يصعُبُ التعاملُ معه، ولا يرجى أن يَصْدُرَ منه خير كثير، أو عمل جليل.

بل ربما يكون قصارى ذلك أن يكون كفافاً لا له، ولا عليه.

وفي مقابل ذلك تجد من الناس مَنْ هو كبير في سِنِّه، أو عقله، أو علمه، أو جاهه، أو منصبه، ومع ذلك لا يَشْعُر بأنه كبير؛ من جهة تواضعه، وقيامه بأعمال عظيمة ينطلق بها على سجيته، فيراه مَنْ يعرفه وهو يقوم بتلك الأعمال، ويستغرب أشد الغرابة؛ إذ كيف يقوم بما يقوم به دون أدنى تكلف، ودون أن ينتظر جزاءًا أو شكوراً، في الوقت الذي يستنكف من هو أقلُّ منه بمراحل أن يقوم ببعض ما قام به ذلك الكبير.

مُتَبَذِّل في الحيِّ وهو مُبجَّلٌ   متواضعٌ في القوم وهو مُعَظَّم

فهذا كبيرٌ محمودةٌ سيرته، مشكور صَنيعُه، طَيِّبٌ ذِكْرُه.

ومن كان ذا نفس ترى الأرض جولةً   فلا بد يوماً للسموات يرتقي

ولا ريب أن تلك السجيةَ هي سجية الأكابر والعظماء الذين تكمن عظمتهم في بساطتهم.

وأنت تلحظ هذا المعنى قد تزور فاضلاً كريماً عظيماً؛ فإنك ترى من بشاشته، وخدمته، وتبسطه، وحسن استقباله ما يملأ قلبك بهجة وإجلالاً.

وفي المقابل فإنك قد تزور إنساناً أقلَّ شأناً من الأول بمراحل، فترى مِنْ صِغَرِ نفسه، وانفلات لسانه ما تتمنى معه أن لم تقم بتلك الزيارة إن لم تكن واجبة عليك.

وإذا قرأت التاريخ وجدت أن نفس نبينا محمد ﷺ أعظم الأنفس وأبرها وأكرمها.

ومع ذلك لا تراه إلا هيناً ليناً، متواضعاً خالياً من جميع وسائل الخلابة والاسترهاب، فلم يكن جَلالُ قدره في النفوس، ونفوذُ أمره في الملأ محتاجاً إلى وسيلة من الوسائل المكملة للتأثير الذاتي النفساني.

بل إن تأثيره الذاتي كافٍ في نفوذ آثاره في نفوس أتباعه.

ومع ذلك فقد حصل له أعظم جلال في نفوس أعدائه بَلْهَ أوليائه.

روى أبو داود، والترمذي أن قَيْلَةَ بنت مَخْرمة جاءت رسول الله ﷺ في المسجد وهو قاعدٌ القرفصاءَ قالت: «فلما رأيت رسول الله ﷺ المتخشع في الجلسة أَرْعَدْتُ مِنْ الفَرَق».

فقولها: المتخشع في الجلسة أَوْمَأَ إلى أن شأن المتخشع في المعتاد ألا يرهب، وهي قد أَرْعَدَتْ منه؛ رهبة.

ووصف كعب بن زهير رسول الله حينما دخل عليه المسجد في

أصحابه مؤمناً تائباً، وكان كعب يومئذ أقرب عهداً بالشرك، وأوغل في معرفة مظاهر ملوك العرب وسادتهم؛ إذ هو الشاعر ابن الشاعر؛ فإذا هو يقول بين يدي رسول الله يصف مجلسه:

لقد اقوم مقاماً لو اقوم به ... ارى وأسمع ما لو يسمع الفيل
لظل يرعد إلا أن يكون له ... من الرسول بإذن الله تنويل

ثم يقول في صفة الرسول:

لذاك أهيبُ عندي إذ أكلّمُه ... وقيل: إنك منسوب ومسؤول
من خادر من ليوث الأسد مسكنه ... من بطن عَثَّرَ غِيلٌ دونه غيلُ[1]

وجاء في صحيح مسلم من حديث عمرو بن العاص ﷺ -وهو في سياق الموت- أنه قال: «وما كان أحدٌ أحبَّ إليَّ من رسول الله ﷺ ولا أجلَّ في عيني منه، وما كنت أطيق أن أملأ عينَيَّ منه؛ إجلالاً له، ولو سُئلتُ أن أصفه ما أطقتُ؛ لأني لم أكن أملأُ عينَيَّ منه».

---

١ ـ عثَّر: مكان مشهور بكثرة السباع، والغيل: الشجر الكثير الملتف. انظر السيرة النبوية لابن هشام ٤/١١٤ـ١١٥.

٥ـ كأنه والد

قرأت بيتاً للأديب الكبير مصطفى صادق الرافعي رحمه الله ضمن قصيدة في مدح أمير المؤمنين الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول فيه:

ولم يكن أحدٌ يلهيه عن أحد كأنه والد والناس أطفال

فلفت نظري شطرُ البيتِ الثاني؛ لأن فيه إشارةً إلى معنى عظيم كبير، ألا وهو معنى الأُبوَّة؛ فبعض الناس يمتلك شعوراً بالأبوة؛ حيث تراه يَحْدِبُ على إخوانه، وأصدقائه، وزملائه، ويسعى في مصالحهم، ويحمل همومهم دون أن يُحَمِّلَهُمْ أدنى شيء من أمره.

وربما لاقى منهم ما لاقى من جهل وكنود.

وهذه الخصلة يهبها الله لمن يشاء من عباده، وقد توهب ـفي الغالبـ للكبير من الإخوة؛ حيث يكون هو المسؤولَ الأول بعد والدهِ من جهة رعايتِه إخوانَه، وتحملِ مسؤولية المنزل؛ فيعتاد المروءة ناشئاً، فتهون عليه كهلاً.

ولا يلزم أن يقتصر ذلك المعنى على الكبار، بل قد يمتلك تلك الخصلة أوسطَ الإخوةِ أو أصغرَهم.

وأعرف رجلاً هو أصغر إخوانه، وقد لا يلام لو كان ذا نفس صغيرة، أو كان ذا دلال، أو كثرة طلبات.

ومع ذلك فهو أكبرُ إخوانه نفساً، وأشرفُهم همة، وأكثرهم تحملاً للمسؤولية؛ فلا يكاد إخوانه ـوهم كثرـ يعرفون إلا القليل من شؤون المنزل، أو رعاية الوالدين.

أما صاحبنا فهو يقوم بذلك بكل جدارة وأريحية؛ فهو الذي يتولى جميع ما يحتاجه والداه من نحو العلاج، أو السفر، أو الرعاية عموماً، ويتولى شؤون مزرعة والده.

بل ويقوم -مع ذلك- بكثيرٍ مِنْ حاجات مَنْ يكبره مِنْ إخوانه، إضافة إلى قيامه بشأن زوجته وأولاده و﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ (المائدة: ٥٤) والمعونة على قدر المؤونة.

وأعرف معلماً قديراً أمضى ما يزيد على عشرين سنة في التعليم، وهذا المعلم ذو نفس كريمة كبيرة، وذو تَدَفّعٍ في الخدمة، وأريحيةٍ في تقديم المساعدة؛ حيث يقوم بالمبادرات الكثيرة الكبيرة لزملائه وطلابِه وغيرهم دون مِنَّةٍ أو تباطؤ.

بل إن أحد زملائه الأفاضل يحدثني أن بعض الزملاء ممن يصغرون ذلك المعلم بمراحل - يوصونه بالقيام ببعض الأعمال، أو يكلفونه ببعض المهمات، أو هو يبادر إلى ذلك من تلقاء نفسه دون طلبهم؛ فيقوم بذلك، وهو مسرور القلب، قرير العين.

بل إنهم من شدة دَالَتِهم عليه ربما عاتبوه إذا رأوه مشتغلاً بأموره الخاصة عن خدمتهم، وإنجاز أعمالهم الخاصة بهم؛ فلا يتبرم من ذلك، بل يعتذر إليهم، وكأنه مذنب، ولسان حاله:

وتـــذنبون فنـــاتيكم ونعتـــذر ....

وهذا الضرب من الناس نادر قليل، ولكنهم -بحق- من زينة الحياة الدنيا، وممن يضفون عليها جانباً من الرونق، والروعة، والجلال، والجمال.

٦ـ ساعات الصفاء

الوقت رأس مال الإنسان، وساعات العمر هي أنفس ما عني بحفظه.

فنحن نعيش في زمن محدود، ليل ونهار يتعاقبان بانتظام، ليس يطغى أحدهما على الآخر، وحياة مقسمة تقسيماً محدوداً، صبا فشباباً، فكهولةً، فشيخوخة.

ولكل قسم عمل خاص لا يليق أن يعمل في غيره، كالزرع إذا فات أوانه لم يصح أن يزرع في غيره.

ثم إن هذه الحياة محدودة؛ فإذا جاء الأجل فلا مفر من الموت.

وما فات من الزمن لا يعود؛ فالصبا إذا فات فات أبداً، والشباب إذا مر مر أبداً، والزمن المفقود لا يعود أبداً.

ثم إن الزمن هو المادة الخام للإنسان كالخشب الخام في يد النجار، والحديد الخام في يد الحداد، فكل يستطيع أن يصوغ من زمنه ـبتوفيق اللهـ حياة طيبة مليئة بالجد وجلائل الأعمال، كما أن الإنسان يستطيع أن يصوغ من زمنه حياة سيئة، مليئة بالكسل، والخمول وسيِّيء الأعمال.

فكل ساعة من ساعات عمرك قابلة لأن تضع فيها حجراً يزداد به صرح مجدك ارتفاعاً، ويقطع به قومك في السعادة باعاً أو ذراعاً.

فإن كنت حريصاً على أن يكون لك المجد الأسمى، ولقومك السعادة العظمىـ فدع الراحة جانباً، واجعل بينك وبين اللهو حاجباً؛ فالحكيم الخبير من يقدر الوقت حق قدره، ولا يتخذه وعاءً

لأبخس الأشياء، وأسخف الكلام، ويعلم أنه من أجلِّ ما يصان عن الإهمال والإضاعة، ويقصره على المساعي الحميدة التي ترضي الله، وتنفع الناس.

وإذا أرجعنا البصر في تاريخ النوابغ الذين رفعوا للحكمة لواءً ـ وجدناهم يبخلون بأوقاتهم أن يصرفوا شيئاً منها في غير درس، أو بحث، أو تحرير، أو عمل يعود على الإنسان بالفائدة في دينه، أوصحته، أو دنياه عموماً.

والذي يُرادُ الإشارة إليه ههنا هو **اغتنام ساعات الصفاء** التي هي من أعظم ما ينبغي للعاقل البحثُ عنه، واقتناصُه، والعضُّ عليه بالنواجذ.

وساعات الصفاء في حياة الإنسان لا تقتصر على جانب مُعَيَّنٍ فحسب، بل تمتد إلى أمور عدة، فتشمل لحظاتِ المناجاة، واقتناصَ لذائذها؛ فإذا فتح على الإنسان في ذلك فليبادرْ إليه، وليجمعْ قلبه عليه، ولْيَسْتَجْمِع خواطره له، ولينأ بنفسه عن كل ما يكدر ذلك الصفو.

ومما يلحظ في ذلك الشأن أننا نفرط كثيراً فيه؛ فَتَفُوت علينا أوقاتُ الإجابةِ التي تحسن فيها الخلوة سواء كان ذلك في اللحظات التي تمر يومياً كأوقات الصلوات، أو أواخر الليل، أو التي تمر أسبوعياً كآخر ساعة من الجمعة، أو التي تمر سنوياً كأيام رمضان، فتجد التفريط في لحظات السحور والإفطار.

بل الأمر يتعدى إلى التفريط فيما قد لا يحصل في العمر إلا مرة واحدة كموسم الحج، فتجد من لا يلذُّ له النوم إلا عشية عرفة، أو صبيحة المزدلفة، وتجد من لا يبالي بالدعاء عند الصفا والمروة، وبعد

رمي الجمرة الصغرى والجمرة الوسطى، مع أن تلك الحَجَّة قد تكون هي الفريضة بالنسبة له.

ومن ساعات الصفاء التي لا ينبغي التفريط فيها تلك اللحظات التي تواتيك فيها القريحةُ، فتجد من نفسك استعداداً للكتابة، أو التأمل، أو التفكر، أو تدوينِ بعضِ ما تريد تدوينَه من نحو بحث، أو تحرير، أو تسطير بعض ما يعرِض لك من تجارب، أو خواطر تحصل لك من جَرَّاء سكون القريحة، وعدول التأمل، وصفاء النفس.

ومما يدخل في قبيل ساعات الصفاء تلك الساعات التي تجمعك بمن يكبرك سناً، أو علماً، أو عقلاً؛ فتقتبس من خلالها شيئاً من تلك الخلال مما يزيد رصيدك العلمي، والعقلي، والأخلاقي.

ويدخل في ذلك ما يحصل لك من لقاء الذين تحبهم ويحبونك ممن ترفع معهم الكلفة، وتستعيد بلقائهم نشاطك، وأريحيتك، وتلقي عن كاهلك أعباءً كان ينوء بحملها.

ومن تلك الساعات ما تجده من فراغك، فتمارس من خلاله ما يعود على بدنك بالصحة، وعلى عقلك بالصفاء، وعلى قلبك بالراحة، من نحو المشي في مكان فسيح تستنشق من خلاله الهواء النقي، وتطلق العنان لخيالك كي يجول في سُبُحَات الفكر والتأمل.

ومن ساعات الصفاء تلك اللحظات التي تجد فيها فرصة لمراجعة نفسك، ومحاسبتها، والنظر في سيرتها.

وقد يدخل في ساعات الصفاء ما يكون بعد خروج الإنسان من حدث مثير في حياته، إما فرحاً بنصر، وحصول خير، أو حزناً على فوات مطلوب، أو حلول مكروب؛ فيتبين له بعد ذلك أمور، وحكم، وتجارب، وفوائد ربما لم تخطر له من قبل؛ فلو قَيَّدها عنده في أوراق لكانت مما يفيده في مستقبل أيامه، وإلا ذهبت أدراج الرياح، وفاتت عليه تلك اللحظات والأفكار التي لا تعوض.

وبالجملة فإنه يحسن بالعاقل أن يسعى سعيه، ويحرص كل الحرص على اقتناص ساعات الصفاء، ولحظات التجلي، بل يجمل به أن ينتزعها انتزاعاً، ويسرقها سرقةً؛ كما قال الأول:

سَـرَقْنَاهُ مـن شَـرخِ الـشباب ورَوقـه　　فلمـا سَـرَقْنَا الـصَّفْوَ منـه سُـرِقْنَاهُ

٧ـ خذ منه ما يليق بك

في يوم من الأيام قبل سنوات زارني أحد طلاب العلم الشباب ولما حان وقت الصلاة ذهبنا معاً إلى المسجد، وبعد الصلاة قام صاحبنا؛ ليلقي كلمة، فجلس في مكان الإمام، ثم بدأ يلقي الكلمة، وصار بين الفينة والأخرى يقف وقفات يوجه من خلالها أسئلة إلى الحاضرين، وكان من بينهم كبارُ سِنٍّ، وطلبة علم؛ فوقعتُ في حرج شديد لهذه الطريقة التي لم تَلْقَ قبولاً عند المصلين، فلما انقضت الكلمة، وخرجنا من المسجد قلت لصاحبي: ما هذا؟

فقال: هذه ـكما تعلمـ طريقة شيخنا الشيخ محمد بن عثيمين رحمه الله حيث كان يوجه الأسئلة للحاضرين.

فقلت لصاحبي ـوكان ذا أريحية وخُلُقٍ وقبول للحقـ: أعرف ذلك، ولكن هذه الطريقة تليق بالشيخ محمد رحمه الله لأنه مدرسة، ولأنه عالم له وزنه، وقدرُه، وتقدُّمُ سِنِّه؛ فالناس يَقْبلون منه ذلك، ويسيغونه.

أما أنت فلا يليق بك ذلك؛ لكونك غيرَ معروفٍ عند هؤلاء، ولأن سِنَّك، وعدم معرفة الناس بك لا تسمحان بقبول تلك الطريقة منك.

واللائق بالإنسان إذا كانت هذه حالَه ألاّ يُوْقِعَ نَفْسَه وغيرَه في الحرج إذا سلك مثلَ تلك الأساليب.

اقتنع صاحبي بما قيل، وقال: أنا مجتهد، ولعل الصواب لم يخالفني.

فهذه الحالة وأمثالها كثير تذكرنا بحال بعض الناس الذين ينظرون في سير العلماء، والأكابر؛ فيحاولون تقليدهم أو الاقتداء بهم.

وهذا أمر طيب؛ فالتشبه بالكرام فلاح، ولكن يحسن بالإنسان أن يأخذ منهم ما يليق بحاله، وشخصه، وألا يتعدى طوره، فيقع في اللوم والذم كحال من يسمع عن عالم أنه وقف موقفاً معيناً، فيريد أن يسير على منواله في ذلك دون أن يَخْطُر بباله أن ذلك العالم يليق به ما لا يليق بشاب في مقتبل عمره، ويُقْبَلَ منه ما لا يقبل من غيره.

وكحال من يسمع بكريم من الكرام يسخو بماله، ويكرم ضيوفه، فيريد أن يكون مثله، فيقع فيما لا تحمد عقباه من الحرج، والدَّين.

والحاصل أن العاقل هو الذي يقتدي بالأكابر، والأفاضل، ويعرف كيف يأخذ، ومقدار ما يأخذ دون وكس ولا شطط، ودون إلغاء لشخصيته، وذوبان في شخص من يقتدي به، ودون اعتداد، وغرور، وتطاول إلى ما لا يليق بعمره، ومكانته؛ بحجة أنه مستقل في شخصيته، مُتَحَرِّرٌ في فكره.

٨ـ مبدؤها كلام

هذا جزءٌ من بيت لنصر بن سيار يحذر بني أمية من مغبة الحرب التي رأى نُذُرَها، وبداياتها الكلامية، يقول نصر:

أرى خللَ الرماد وميضَ جَمْرٍ ... ويوشك أن يكون لها ضرامُ
فإن النارَ بالعودين تُذكى ... وإن الحربَ مبدؤها كلام
فإن لم يطفها عقلاءُ قومٍ ... يكون وقودَها جثثٌ وهامُ
فقلت من التعجب ليت شعري ... أأيقاظ أمية أو نيامُ

وهذه أبيات جميلة غايةٌ في النصح والحكمة.

وأنت إذا تدبرت الأحداث العظام، والحروب الطاحنة عبر التاريخ وجدت أنها كانت بسبب كلام تدرج بأصحابه حتى ألقاهم في مكان سحيق.

بل ربما يكون السبب يسيراً جداً، بل قد تكون أحداثاً عائليةً بحتةً داخلَ محيطِ أُسْرةٍ واحدة؛ فتكون سبباً لعداوات كثيرة، من شأنها أن تُغَيِّر مجرى التاريخ.

ولو استعرضنا التاريخ لوجدنا مصداق ذلك لائحاً واضحاً؛ فأَوَّلُ قَتْلٍ حصَل في الأرض إنما هو قتل أَحَدِ ابني آدمَ أخاه؛ حيث دار بينهما حديث بيَّنه الله ـعز وجل ـ في قوله: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ

بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ (المائدة).

وإذا انتقلتَ من ذلك إلى حقب متطاولة، وأتيتَ إلى ما جرى بين يوسف وإخوته وجدتَ شاهد ذلك؛ فالذي حصل في تلك القصة أن إخوةَ يوسف -عليه السلام- حسدوه؛ لِحَظوته عند والده؛ فتشاوروا في ذلك الشأن، وأجمعوا على أن يجعلوه في غيابة الجُبِّ دون أن يفكروا في عاقبة الأمر؛ ودون أن يكون منهم مَنْ يُحذِّر مِنْ مَغَبَّةِ ذلك الصنيع ومآلاته الوبيلة.

فكان ما كان من تلك الأحداث العظام التي صارت نقطة تحول في حياة البشرية عموماً، وحياة بني إسرائيل خصوصاً؛ حيث انتقلوا من بلاد كنعان -فلسطين- إلى مصر، ثم ما كان لهم بعد ذلك من الاضطهاد في مصر، إلى غير ذلك مما قصه القرآن الكريم، وورد في صحيح السُّنَّة.

ولا يخفى عليك حربُ البسوس، وحربُ داحسَ والغبراءِ، وأنها كانت بأسباب تافهة لا تستدعي سوى غض الطرف.

وإذا بحثت في أسباب الحروب العالمية الحديثة وجدت أنها حدثت

بسبب كلامٍ، وحماقات، ورعونات لأكابر الساسة؛ فكان عواقب ذلك حروباً طاحنةً أكلت الأخضر واليابس، وكان وقودُها الأبرياءَ من جميع الأطراف.

وقل مثل ذلك في كثير من المشكلات والعداوات التي تنشأ بين بعض الناس سواء كانت كبيرة أو صغيرة؛ إذ هي -غالباً- شراراتٌ صغيرة لا تزال تكبرُ شيئاً فشيئاً حتى تكون نيراناً موقدة يصعب إخمادها، والسيطرة عليها.

وهذا ما يؤكد لنا ضرورةَ الحكمةِ، والمسارعةِ في معالجة الأمور، والحذر من التهاون في البدايات، والحرص على وأد العداوات في مباديها؛ حتى لا يدفع ثَمَنَها جميعُ الأطراف.

وقد يكون المانعُ من القيام بتلك المبادرات حواجزَ وهميةً، وقد يكون العزةَ بالإثم؛ حيث يأبى كل طرف من القيام بذلك أو قبولِه؛ عزةً وأنفةً.

وربما ندموا إذا رأوا مآلاتِ الأمور، وعِظَمَ حَجْمِ الخسائر، ولات ساعة مندم.

ولو أنهم نظروا في العواقب، وتدبروا المآلات، وأصاخوا السمع لداعي الحكمة، وهبطوا يسيراً من عليائهم، وخفّفوا ولو شيئاً قليلاً من غلوائهم - لكان خيراً لهم وأحسن تأويلاً، ولكان ذلك أحفظَ لجاههم، وأموالهم، وأوقاتهم من أن تضيع سدىً.

٩ـ كل ينفق مما عنده

جاء في أثر إسرائيلي أن المسيح عيسى ـعليه السلامـ مر بجماعة من يهود؛ فغمزوه، ولمزوه، فقال لهم قولاً حسناً، فقيل له: ألا ترد عليهم بما يستحقون؟

قال: «**كل ينفق مما عنده**».

فهذه الكلمة العظيمة جرت مجرى الأمثال في إيجازها وعمقها، وتعبيرها عن المراد، وصحة الاستشهاد؛ إذ يصلح أن يُستشهد بها في كثير من المناسبات والأحوال، ولهذا فلا غرو أن تتباين أقوال الناس، وردود أفعالهم صحةً وخطأً، وذوقاً وأدباً، وحسناً وسوءًا؛ لأن كلاً ينفق مما عنده.

وقد يكون الحدث واحداً، والكلام موجهاً لفئة واحدة، ومع ذلك تختلف المواقف تبعاً لاختلاف الأمزجة، والطبائع، والثقافات، والأخلاق.

ولهذا تقول العرب في أمثالها: «كل إناء بما فيه ينضح» ومعنى ينضح: أي يرشح من خلال مسامِّه.

أي أن الإناء يرشح بما فيه؛ فإذا كان فيه ماءٌ رشَحَ الماء، وإذا كان فيه عسل، رشح العسل، وإذا كان فيه زيت رشح الزيت، وهكذا، وكما أن الإناءَ يرشح بما فيه فكذلك الإنسان؛ فإنه يتصرف طبقاً لطبعه، فكريم النفس يظهر طيب عنصره، واللئيم ينضح شراً وغدراً.

ومما يحضرني في هذا الشأن أن أحد الناس أذيعت له كلمة في مناسبة من المناسبات، فلقيت استحساناً؛ فهاتفه أحد معارفه ممن نالوا قسطاً عالياً من التعليم، فشكره على تلك الكلمة، ودعا له،

وأبدى فرحه وإعجابه بها.

وبعدها بلحظات يسيرة هاتفه شخص آخر مماثل للأول في سنه وفي تعليمه فقال -وهو يريد أن يعبر عن إعجابه-: يا الله صباح خير، أول ما فتحنا الإذاعة سمعنا صوتك!

فلماذا اختلفت ردود الفعل؟ مع أن الموقف واحد؟

الجواب: لأن كلاً ينفق مما عنده، فالأول صاحب ذوق رفيع، ونفسٍ مرهفة.

والآخر بخلاف ذلك.

ويحدثني أحد الأصدقاء عن قريب له يكبره في السن، ويُخْبِرَ عنه أنه ذو فضل، وحياء، وتكرمٍ، وسلامة صدر.

ويذكر من أحواله أنه كثيراً ما يحضر إلى مجلس وفيه أخلاط من الناس، فينظر إليهم نظرة المحب لهم، المحسن الظن بهم، مع أن فيهم من لا يستحق ذلك.

وعلى النقيض من ذلك فهناك من لا يثق بأحد من الناس البتة؛ فلو أحسن إليه أحد لاستراب منه، ولظن أن وراء ذلك نيةً مُبَيَّتَةً.

فما الذي جعل المنظار الأول يزهر، ويضيء، وجعل الآخر يُغَبِّشُ ويَسْوَدُّ؟

إنه إنفاقُ كلِّ أحدٍ مما عنده؛ **فالأول** نفسه كريمة، نزيهة؛ فهو ينظر إلى الناس من خلال تلك المرآة الصقيلة الصافية، وتلك الأرض الطيبة المباركة.

والثاني نَفْسُهُ كَزَّةٌ قَلِقَةٌ، مضطربة، وأرضُه سَبِخَةٌ لا تُخرج إلا نكداً؛ فهو ينظر من خلالها إلى الأشياء نظرةَ خوفٍ، وارتيابٍ.

ويقاس على ذلك أحوال كثيرة جداً.

وبعد فماذا عندك تنفقه من قول، أو عمل، أو ظن بالناس؟

١٠ـ الاتحاد الأوربي

أوربا ـكما هو معلوم ـ قارة كبيرة تجمع أمماً عريقة، وثقافات متباينة، وأجناساً مختلفة، ودولاً كثيرة.

وأغلب تلك الدول لها تاريخ، وحضارة، وثقافة، وعراقة.

وأكثرها تفخر بما لها من مجد، وتحاول المحافظة على خصوصيتها، ومكتسباتها.

وقد قامت الحروب بين كثير من تلك الدول، وحصل بينها ما حصل من التدابر، والقطيعة، والتقاتل.

ولعل آخرها، وأشرسها ما حصل في الحروب العالمية الأخيرة، التي أكلت الأخضر واليابس، والتي لا زالت آثارها باقية إلى يومنا هذا؛ فَقَلَّ أن تجد أُسْرة في أوربا إلا ونالها ما نالها من قتل أو تشريد.

بل إن كثيراً من الأحياء منهم الآن أصابه ما أصابه في نفسه، أو والده، أو جده، أو قريبه.

ثم إن الفروق في الديانة موجود ـأيضاًـ لاختلاف الديانات، أو الكنائس بين أصحاب الديانة النصرانية، وما يندرج تحت ذلك من تفصيلات يطول ذكرها.

فأسباب العداوة والفرقة ـإذاًـ معقولة، متوافرة.

ومع ذلك فإن عقلاءهم تنادوا لرأب الصدع، ووقف النزيف، والنظر في المصالح الكبرى، والحرص على تجنيب أجيالهم القادمة شبح الحرب، والجوع، والخوف، والفقر، والجهل.

وحرصوا كل الحرص على أن يكون لهم حضورٌ قويٌّ بين دول العالم؛ حتى يُهابَ جنابُهم، ويُحْسَبَ حِسَابُهم.

ومن هنا قامت فكرة الاتحاد الأوربي، وصارت حقيقة ماثلة للأعيان بعد أن كانت صورة قائمة في الأذهان.

ولا زالوا يسعون سَعْيَهم في تطوير ذلك الاتحاد، وتعاوُرِه بالتهذيب والإصلاح.

وكلما سمعتُ، أو رأيتُ، أو قرأت شيئاً عن ذلك الاتحاد حصل لي تَذكُّرٌ، وألم.

أما التذكر فهو لما جاء في صحيح مسلم عن موسى بن علي عن أبيه قال: قال المستورد القرشي عند عمرو بن العاص: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**تقوم الساعة والروم أكثر الناس**».

فقال له عمرو: أبصر ما تقول، قال: أقول ما سمعت من رسول الله ﷺ قال: لئن قلت ذلك إن فيهم لخصالاً أربعاً: إنهم لأحلم الناس عند فتنة، وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة، وأوشكهم كرة بعد فرة، وخيرهم لمسكين ويتيم وضعيف، وخامسة حسنة وجميلة: وأمنعهم من ظلم الملوك.

وفي رواية أن المستورد القرشي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تقوم الساعة والروم أكثر الناس».

قال: فبلغ ذلك عمرو بن العاص فقال: ما هذه الأحاديث التي تُذكَرُ عنك أنك تقولها عن رسول الله ﷺ.

فقال له المستورد: قلت الذي سمعت من رسول الله ﷺ.

قال: فقال عمرو: لئن قلت ذلك إنهم لأحلم الناس عند فتنة، وأجبر الناس عند مصيبة، وخير الناس لمساكينهم وضعفائهم.

وقوله: «**أجبر الناس عند مصيبة**»: هكذا في معظم الأصول: وأجبر، بالجيم، وكذا نقله القاضي عن رواية الجمهور.

وفي رواية بعضهم: وأصبر، بالصاد، قال القاضي: والأول أولى لمطابقة الرواية الأخرى: «**وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة**»، وهذا بمعنى أجبر.

وفي بعض النسخ: أخبر، بالخاء المعجمة، ولعل معناه أخبرهم بعلاجها والخروج منها.

فانظر إلى كلام هذا الصحابي الجليل، والداهية العظيم الذي اجتمع له نور العقل والفطرة، ونور الشرعة المطهرة، انظر كيف عرف طبائع أولئك القوم، وما يتميزون به من تلك الخصال؟!

وكيف استدل على أن من يملك تلك المقومات جدير بأن يكون له غلبة، ومنعة، وهيبة؛ **فهذا هو التذكر الذي أتَذَكَّرُهُ**.

أما الألم فهو ما يكون عند النظر في حال المسلمين؛ فبينما أوربا وهي الدول الكافرة التي لا تستند إلى وحي يزكيها، وينير عقولها - تتجه إلى الاتحاد، والاجتماع، ونبذ الخلاف، واطراح الأحقاد، وترك الاجترار للمآسي الماضية - إذا بالمسلمين شذر مذر، وكل حزب بما لديهم فرحون!

مع أنهم ينتسبون إلى وحي معصوم، يأمرهم بالاجتماع، ويبين لهم أسبابه، ويحذرهم من الخلاف، ويبين لهم عواقبه.

ومع ذلك تراهم يتفرقون لأتفه الأسباب، ولا يكادون يجتمعون ولو توافرت لديهم أسباب الاجتماع.

فلعل الله -بمنه وكرمه- يهيئ للمسلمين أسباب التآلف، ويصرف عنهم ما يُفضي إلى فرقة وتدابر.

١١ـ الوهم

أعرف شخصاً ذا نفس قلقة، وكان له قريب عاقل، وقد حصل نقاش في موضوع يسير جداً، فصرم الشخصُ ذو النفسِ القلقةِ قَرِيْبَهُ، وعاداه، وصار لا يُسَلِّم عليه، ولا يرد سلامه، بل وينظر إليه شزراً، بل أصبح يتكلم فيه، ويذمه، واستمرت تلك الحال سنوات.

وصاحبنا العاقل يرى ويسمع، ولكنه آثر الصمت، وتَرْكَ المهاترة؛ بل إنه يدعو لقريبه دائماً.

يقول صاحبنا العاقل: «في يوم من الأيام كنت أصلي العصر، وقد دعوت في تلك الصلاة لصاحبي من كل قلبي؛ لأنني تأذيت منه، وطالت تلك الأذيةُ بعضَ أقاربي، وصار يحرض بعض أقاربه عليّ.

فلما انصرفت من تلك الصلاة، والتفت وإذا به قد صلى في مسجد آخر، ودخل مسجدنا يريد إمام المسجد في موضوع خاص به.

فلما رآني عاد القهقرى، فلحقت به، وأوقفته، وقلت له: يا أبا فلان، والله إنني أدعو لك، وآخر ذلك قد كان في تلك الصلاة؛ فإلى متى ستستمر على تلك الحال؟

وما الذي نالك مني طيلة السنوات الماضية؟

وصار بيني وبينه حديث حول هذا الشأن.

وبعد ذلك رأيت تغيراً في وجهه، وقال لي: والله إنني ما كنت أظنك كذلك، كنت أظن أنك تكرهني، وتعاديني، وتُغْري بي،

وكنت أتصور أنك لا تراني شيئاً.

فقال له صاحبه العاقل: وهل رأيت شيئاً من ذلك، أو سمعت به؟

قال: لا، وإنما هكذا كنت أتصور.

فقال له صاحبه: وهل ستستمر على هذه الحال؟

قال: لا، أنا الآن عرفتك جيداً، وسأبدأ بمراجعة نفسي».

يقول صاحبنا العاقل: «وبعدها صار يحترمني، وعادت المياه إلى مجاريها».

وأعرف إنساناً مسكوناً بالأوهام؛ فلو أثنيت عليه، أو شكرته لخشيَ أن تصيبه بالعين، بل إنك لو نصحته، وأبديت ملاحظة عليه لقال لك: اذكر الله؛ خشية أن تصيبه بعين.

وتلاحظ في أيام الامتحانات أن كثيراً من الطلاب تصيبهم الوساوس؛ خوفاً من العين؛ فترى الطالب قد أهمل المذاكرة تماماً؛ فإذا قرب الامتحان استنفر كافة قواه، وربما لا تواتيه نفسه على ذلك؛ لأنه قد حَمَّلها ما لا تطيق، ولم يتدرج في المذاكرة؛ فبمجرد شعوره بالملل، أو قلة الاستيعاب تراه يَتَّهم فلاناً أو فلاناً أنه أصابه بعين، ولم يعد له قدرة على المذاكرة والتحصيل، وصار يبحث عمن يَرْقِيْهِ، أو يأخذ له شيئاً من آثار مَنْ يَتَّهمه بأنه عانه.

ولا ريب أن العين حق، وأنها تورد الرجل القبر، والبعير القِدْر، وأنه لو كان شيءٌ سابق القدر لسبقته العين -كما صح ذلك عن النبي ﷺ-.

ولكن الخطأ في جعلها شَمَّاعة يُعَلَّق عليها كلُّ إخفاقٍ، وعجزٍ، وكسل.

فمن خلال ما ذُكِرَ وغيره كثير، يتبين لنا أمورٌ، ومنها ما نحن بصدده، وهو موضوع الوهم، فترى أن الوهم قد سيطر على نفوس كثيرين، وصارت الخيالات والأوهام عندهم حقائق لا تقبل الجدل.

وهذا يرينا أن الوهم مرض خطير، وقد يدخل ضمن قائمة الأمراض المعدية؛ فهو مَرَضٌ من جهة إضراره بصاحبه، بل ربما فتك به.

وهو -في الوقت نفسه- مرض مُعْدٍ؛ من جهة أن من جالس المصابين به أوشك أن ينتقل إليه ذلك الداء.

والذي يتأمل حياة الناس يلاحظ أن المبتلين بهذا الداء كثير، وَهُمْ ما بين مقلٍ ومستكثر.

فلا غرو -إذاً- أن تُوْجَدَ العداوات، والبغضاء التي منشؤها الأوهام؛ فتجد من الناس من يتصور أن فلاناً يبغضه، ويقف في طريقه، ويتربص به الدوائر، وربما سمعتَ هذا الكلام، فانطلى عليك، وصرت تبغض ذلك الشخص الظالم في نظرك.

فإذا حققت الأمر وجدت أن الحقيقةَ بخلاف ما بلغك تماماً، بل ربما يكون ذلك الشخص الذي يُتَصَوَّر أنه ظالم حقود حسود أنه هو المظلوم، بل قد يكون لا يعرف ذلك الشخص الذي يرميه بتلك العظائم.

ومن صور الوهم ما تجده من نَفَرٍ من الناس؛ حيث تقوم بعض تصرفاتهم على ما يرونه من الرؤى، أو ما يُفسَّر لهم منها؛ فإذا رأى واحدهم رؤيا عبَّرها لنفسه، أو عرضها على أيِّ مُعَبِّر كان، فيقبلها وكأنها وحيٌ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فَيُرَتِّبُ على

ذلك عداوات، وصداقات، ومواقف مع أن الأمر لا يعدو كونه ظنوناً قد يكون خطؤها أكثر من صوابها.

ومن صور الوهم ما تجده عند فئام من الناس؛ فتراه يخاف من أمور كثيرة، وهي -في الحقيقة- مجرد أوهام.

وربَّ امورٍ لا تضيرك ضيرةً ... وللقلب من مخشاتهن وجيبُ

وهذا يؤكد لنا ضرورة التعامل مع الحقائق، والبعد عن الأوهام الكاذبة والظنون السيئة، والتحليلات الخاطئة؛ حتى تكون علاقاتنا، وأحكامنا مبنية على أساس متين لا على كَثِيبٍ مهيلٍ.

ومن بُلِيَ بالوهم، وزاد ذلك عنده فليستعذ بالله، ويُحْسنَ أعماله، ويصلحَ نيَّاتِه؛ لأنه:

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه ... وصدَّق ما يعتاده من توهمِ
وعادى محبيه بقول عُدَاتِهِ ... واصبح في ليل من الشك مُظْلِمِ

وإذا كان الإنسان يعاني من الأوهام معاناةً شديدةً فليجاهد نفسه على تركها، وليستشر في أمره.

وإذا أعيته الحيلة، وكان ذلك خارجاً عن طوره فليعرض حاله على طبيب نفسي مختص؛ فربما كان فيه نوع من أنواع الوساوس: القهري أو غيره.

وعلاج ذلك ميسور عند الأطباء النفسيين؛ فلعله يجد ما يشفيه ويريحه، ويريح أقاربه ومخالطيه.

أما أن يدع أمراضه، وطبيعته القلقة تقوده إلى إساءة الظنون، وإفساد العلاقات، وإيذاء الأبرياء فليس ذلك من الحزم ولا العقل في شيء.

١٢ـ مقتضى الحال في الوعظ

أذكر أنه في يوم عرفة في أحد مواسم الحج قام أحد أهل العلم الأكابر وألقى كلمة بعد الظهر في أحد المخيمات الكبيرة، وكانت كلمة موجزة جامعة اشتملت على وعظ الحاضرين، وتذكيرهم بعمل ذلك اليوم، وتوصيتهم باغتنامه بالدعاء، وقوة الرجاء، والانكسار لله، والتذلل بين يديه.

وكانت تلك الكلمة مُعَدَّة من قبل القائمين على ذلك المخيم.

وبعد أن انتهى ذلك العالم من كلمته قام شخص آخر قليل العلم، وشرع يتكلم، وأطال، وكرر، وخرج عن الموضوع، مما جعل كلمته تَزِلُّ عن القلوب؛ فَعَرَّض نفسه للذم، وجعلها في موقف لا ينبغي؛ حيث تكلم بعد ذلك العالم، وأسهب في الكلام، مع أن كلمته لم تكن مدرجة من قبل في برنامج القائمين على المخيم.

ولو أنه اكتفى بالكلمة التي كانت قبله لكان خيراً له، ولا عِطْر بَعْدَ عروس ـكما في المثل السائرـ.

وفي أحد مواسم الحج قام أحدهم، وألقى كلمة عَصْرَ يومِ عرفة، وأطال فيها، حتى انتصف العصر دون أن يراعي أن ذلك الوقت هو لُبُّ الحج، وأنه ليس موضعَ إطالةٍ وتشعيب.

وأذكر أن أحدهم ألقى كلمة صبيحة المزدلفة بعد صلاة الفجر، وأطال فيها، وتشعب في الحديث بما لا ينبغي الحديث عنه في مثل ذلك اليوم، حتى اقترب وقت طلوع الشمس، ونسي أو جهل أن

هذا الموضع موضع دعاء، وفَوَّت على نفسه وعلى الحاضرين تلك الفضيلة العظيمة.

ولو أنه ذكَّرَهم بعمل ذلك اليوم تذكيراً موجزاً لكان خيراً له وللحاضرين.

وفي أحد أيام التشريق ألقى أحدهم كلمةً، وصار يرمي الحجاج الحاضرين أمامه بسياط من اللوم والتقريع حتى أصابهم الملل، والضيق.

وأولى لهذا ثم أولى له أن يذكرهم بسعة رحمة الله، وأن يُقَوِّيَ رجاءهم به -عز وجل- فإذا لم يقوَ رجاؤهم في تلك الأيام فمتى يقوى؟

ثم إن الناس الذين يستمعون لمن يتكلم ليسوا على درجة واحدة من جهة العلم، والثقافة، والمزاج، بل هم مختلفون متباينون، ولكن ذلك يغيب عن بعض المتكلمين.

فهذه المواقف وما جرى مجراها تُبِيْنُ عن قلة فقه ومراعاةٍ لمقتضيات الأحوال؛ فلقد غاب عن أولئك ضيق المكان، والزمان، وغاب عنهم ملاءمةُ الكلام لأحوال السامعين، وأن طرائقه تختلف باختلاف الأحوال والأشخاص؛ ولهذا عُرِّفت البلاغة بأنها: مطابقة الكلام لمقتضى حال السامعين.

ومن هنا كان من الأهمية بمكان أن يتعرف المرء على أحوال الناس، وأن يراعي عقولهم، فذلك دليل على حسن التصرف، وسبب في القوة والتأثير؛ فالخبرة بما للطوائف والبيئات من أحوال نفسية، وإلقاء الدعوة بالثوب الملائم لهذه الأحوال موكولٌ إلى ذكاء المتكلم.

وهكذا يتبين لنا أن مراعاة مقتضيات الأحوال من أمضى أسلحة المتكلم، فإذا اجتمع مع ذلك براعة الأسلوب كان نوراً على نور؛ فذلك مما يأخذ بالألباب، ويجعل الموعظة تأخذ طريقها إلى القلوب؛ فالعمل على إنقاذ النفوس من أودية الغواية، والإقبال بها إلى مطالع السعادة مسلك وعر، ولا يمر فيه على استقامة تامة إلا من بلغ في صناعة البيان أمداً قصياً.

ولا يكفي في الدعوة أن يكون في يد القائم بها حجة، أو موعظةٌ يلقيها في أي صورة شاء؛ ذلك أن المخاطبين يختلفون ذوقاً، وثقافةً، واختلافَ زمنٍ وبيئةٍ ـكما مرـ.

ومن اللائق أن تصاغ دعوةُ كلِّ طائفةٍ في أدب يليق بأذواقها وثقافتها؛ ذلك أن الموعظة ثقيلة على السمع، مُسْتَحْرَجة على النفس؛ لاعتراضها الشهوة، ومضادتها للهوى، حتى قال يونس ابن عبيد: «لو أمرنا بالجزع لصبرنا».

يشير إلى ثقل الموعظة على السمع، وجنوح النفس على مخالفتها.

ولكنَّ صَوْغَها بأسلوب رائع يجعلها خفيفةً على السمع، سهلة النفوذ إلى القلب.

ولا يعني ذلك أن يتكلف الواعظ السجع، ويتحرى دقائق الإعراب، ووحشيَّ اللغة.

وإنما المقصود أن يلبس موعظته ثوباً جميلاً يُفهم، ويُستحسن، ويَقعُ موقعه في القلوب.

فها هو ابن الجوزي رحمه الله ـ وهو الإمام المتمرس في الوعظ وأساليبه ـ يقول: «فالتحقيق مع العوام صعب، ولا يكادون ينتفعون بِمُرِّ الحقِّ، إلا أن الواعظ مأمور بأن لا يتعدى الصواب، ولا يتعرض لما يفسدهم، بل يجذبهم إلى ما يصلح بألطف وجه.

وهذا يحتاج إلى صناعة؛ فإن مِنَ العوام مَنْ يعجبه حسن اللفظ، ومنهم من يعجبه الإشارة، ومنهم من ينقاد ببيت شعر.

وأحوج الناس إلى البلاغة الواعظ؛ ليجمع مطالبهم.

ولكنه ينبغي أن ينظر في اللازم الواجب، وأن يعطيهم من المباح في اللفظ قدر المِلح في الطعام، ثم يجتذبهم إلى العزائم، ويعرفهم الطريق الحق».

ولقد كانت دعوة النبي ﷺ كذلك؛ فإنها كانت محفوفة بما يقرب العقول إلى قبولها، وتألف النفوس إلى سماعها؛ فكان ﷺ يراعي في إبلاغها الطرق الكفيلة بنجاحها؛ فيورد لكل مقامٍ مقالاً يناسبه، ويكسو كل معنىً من المعاني ثوباً يليق به، ويخاطب كل طائفة على قدر عقولهم، ويلاقيهم بالسيرة التي هي أدعى إلى إقبالهم، وأسرع أثراً في صرفهم عن غوايتهم.

وخلاصة القول أن الوعظ عمل جليل، وله ـ في نظر الشارع ـ مقام رفيع.

فالوعظ هو الدعوة إلى ما فيه خير وصلاح، والتحذير مما فيه شر وفساد.

والواعظ هو الذي يرشد الجاهلين، وينبه الغافلين، ويعالج النفوس الطائشة مع أهوائها؛ ليعيدها إلى فطرتها السليمة من الإقبال

على الفضائل، والترفع عن الرذائل.

ولكنَّ القيامَ بهذا العمل جهادٌ يحتاج إلى ألمعيَّة مهذبة، ودراية بالطرق الحكيمة، علاوة على العلم الذي يُميِّز به بين الحق والباطل، ويفرِّق به بين المعروف والمنكر.

ثم إن العلم والنباهة، وحكمة الأسلوب لا تأتي بثمرتها المنشودة إلا أن يكون الواعظ طيب السريرة، مستقيم السيرة.

كما أن الواعظ يحتاج إلى لين الجانب، وترك الترفع، ويحتاج إلى أن يكون معتنياً بمظهره، آخذاً أهبته، وأن يكون قويَّ الملاحظةِ، حاضر البديهة، مراعياً ظروفَ المكان، والمدة الزمنية للكلمة.

كما يحسن به مراعاة مشاعر الحاضرين، وأن ينوع في أساليبه، وأن يحسن الاستفتاح، ويترسل في الكلام، ويحسن الختام.

فهذه آداب الموعظة، وأدواتها على سبيل الإجمال[1] فإذا أخذ بها الواعظ أثمر وعظه، وعَظُمَ في النفوس وَقْعُهُ.

---

١ ـ إذا أردت التفصيل في ذلك فارجع إلى كتاب أدب الموعظة للكاتب.

١٣ـ ﴿فانبذ إليهم على سواء﴾

هذا العنوان جزء من آية في سورة الأنفال وهي قول الله ـتعالىـ:
﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾(الأنفال:٥٨).

وهذه الآية تشتمل على حُكْمِ المعاملة لمن تلوح منهم بوارق الغدر، بحيث يبدو من أعمالهم ما يدل على خيانتهم من غير تصريح منهم بذلك.

وقوله: ﴿ فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ﴾ (الأنفال:٥٨) أي ارْدُدْ عليهم عهدهم رداً واضحاً علناً مكشوفاً؛ حتى يستوي عِلْمُكَ، وعِلْمُهم بذلك، ولا يحل لك أن تَغْدُرَهم، أو تسعى في شيء مما مَنَعَهُ مُوجَبُ العهد حتى تخبرهم بذلك.

هذا هو معنى الآية ـكما يقول المفسرونـ.

وكما أن هذا هو معناها فهي ـكذلكـ تشير إلى ما هو دون ذلك مما يجري في العلاقات العامة؛ إذ كثير من الناس يَشْكُون من تَقَلُّبِ أصحابهم، وتلوُّنِ أهل ودِّهم.

ومبعثُ الشكوَى أنهم يقولون: لنا أصحاب نحن وإياهم على خير ما يرام، وفجأة نراهم وقد صرموا حبال الود، وقطعوا العلائق، وتركوا الاتصال بنا، أو الرد علينا، وربما نقابل أحدهم بعد مدة فيلقانا بكل برود وتثاقل وعبوس دون أن ندري سبب ذلك، ودون أن يكون له مقدمات.

وقد نكون معهم في اتفاق حول شأن من الشؤون، ثم نُفاجَأ بنقض ذلك الاتفاق دون سبب ظاهر.

ولا ريب أن هذه آفة قبيحةٌ تَعْصِفُ بالعلاقات، وتُوْدِي بكثير من المودات، وتورث سوء الظن، وتبعث على القطيعة.

فيحسن بالعاقل اللبيب الذي يحترم نفسه، ويرعى حَقَّ من يخالطه، أو يصادقه أن يضع هذا الأمر في حسبانه؛ فلا يُقْدِمَ على قطع العلاقة مع أحد دون سبب، ولا ينقض ما أبرمه من عَهْدٍ أو عَقْدٍ مع غيره دون مقدمات.

وإذا كان ثَمَّ سببٌ فليخبر صاحبه به، ولينبذ إليه على سواء؛ فلعلَّ له عذراً، وأنت تلوم، ولعل ما بلغك، أو توصلت إليه من نتيجة غيرُ صواب.

أما أن يقطع المودة هكذا فما ذلك بمسلك سديد ولا رشيد.

ثم إن العاقلَ إذا تَعَرَّض لمثل ذلك الموقف؛ بحيث يرى من بعض خلطائه تنكراً، أو نقضاً فإنه يأخذ بالحكمة؛ فإن وُجِدَ سببٌ لذلك التَّغَيُّر، أو كان ثَمَّ لبسٌ أو سوءُ فهمٍ ـ فإنه يوضحه، أو يعتذر إن كان أخطأ في حق صاحبه.

وإذا لم يكن شيء من ذلك فلا يُقْلِقْ نَفْسَه، ولا يجعلْها تذهب حسراتٍ على ذلك الصاحب العاتب الزاري؛ فاللوم على من صرم بلا سبب، وربما كان ذلك طبيعةً له معك ومع غيرك؛ فمن غرائب النفوس والطباع أن بعض الناس مولعٌ بالهجر، مُغْرىً بالقطيعة، يتلذذ بقطع الأواصر، وإيذاء الخلطاء والأقرباء.

وإذا كان الأمر كذلك فلا خير في ودٍّ يجيء تكلفاً، وليست تنال مودة بعتاب، وإذا هجرك بلا سبب فربما يرضى بغير سبب.

١٤ـ وجه طلق

أعرف رجلاً تجاوز الخمسين من عمره، أعرفه منذ سنوات طويلة تزيد على الثلاثين سنة.

هذا الرجل ليس ذا علم، ولا مال، ولا شهرة، ولا يتميز بأي شيء عن عامة الناس.

وقد رأيت قلوب أقاربه، وزملائه، وأصدقائه، ومعارفه ـ عموماً ـ تنجذب بطواعيتها إليه ؛ فإذا جالسوه أَنِسوا به، وإذا ذكروه فرحت قلوبهم لذكره، ولا تكاد تجد له مبغضاً. فما السر في ذلك؟

السر أن الله ـ عز وجل ـ أكرمه بطلاقة الوجه، وإشراقة المحيا، ودوام الابتسامة؛ فلا تراه في مجلس، أو طريق، أو مناسبة إلا وهو يبتسم، ويَتَطَلَّق.

وبيني وبين ذلك الرجل قرابة، وعلاقة قديمة، وصلة مستمرة.

وأحياناً يشكو لي بعض تقصيره، ويتألم من حاله؛ فيدور بيننا أحاديث في ذلك الفلك.

ومن ضمن ذلك أنني أقول له: كلنا ذلك الرجل، ونحتاج جميعاً إلى مجاهدة، ولكن اشْكُرِ الله أن منَّ عليك بطلاقة وجهك، وإشراقة محياك، وتبسمك في وجوه الناس، واحتسب ما تقوم به من ذلك؛ فإنه من قبيل الحسناتِ، والحسناتُ يُذْهِبْنَ السيئات.

وكان يستغرب من كونه يؤجر على ذلك العمل الذي لم يخطر بباله؛ لأنه لا يتكلفه، بل يسير فيه على سجيته، ويقول: كيف يكون ذلك؟

فقلت له: إنك بهذا العمل تكسب الأجر والثواب من طرق

كثيرة، منها ما يلي:

١ـ أن البشاشة والبشر من المعروف الذي ترفع به الدرجات، وتحط به السيئات: قال النبي ﷺ: «لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجهٍ طَلْق» رواه مسلم.

٢ـ أن تبسمك في وجه أخيك صدقة: قال النبي ﷺ: «تبسمك في وجه أخيك صدقة» أخرجه الترمذي، وقال: «هذا حديث حسن غريب».

٣ـ أنه اقتداء بالنبي ﷺ: قال جرير بن عبدالله البجلي رضي الله عنه: «ما حجبني رسول الله ﷺ منذ أسلمت، ولا رآني إلا تبسم في وجهي» (رواه البخاري ومسلم).

فانظر إلى أثر تبسم النبي ﷺ في وجه جرير رضي الله عنه وكيف كان ذلك من قبيل ما يُحدِّث، ويفاخر به؟

٤ـ أن ذلك سبب لانشراح الصدور: قال ابن عقيل رحمه الله: «البشر مؤنس للعقول، ومن دواعي القبول، والعبوس ضده».

فإذا لقيت الناس بوجهك الطلق شرحت صدورهم، وأزلت عنهم بعضَ همومِهم، وربما انبعثوا بسبب ذلك إلى مزيد من الجد والعمل، وربما استمر أثر ذلك إلى داخل بيوتهم.

وكل ذلك داخل في قبيل المعروف، والصدقات.

وهب أنك قَطَّبْتَ جبينك، وقابلت الناس بعبوس وكُلُوحٍ؛ فما النتيجة؟

النتيجة عكس ذلك تماماً؛ فتكون بذلك كسبت الإثم، أو في الأقل

خسرت البر.

٥ـ أن ذلك التبسم سبب لكسب الصداقات، ووأد العداوات، وحسن السمعة، والذكر الطيب.

قيل للعتابي: «إنك تلقى الناس كلّهم بالبشر!».

قال: «دفع ضغينة بأيسر مؤونة، واكتساب إخوان بأيسر مبذول».

وقال محمد بن حازم:

وما اكتسب المحامد حامدوها ... بمثل البشر والوجه الطليق

وقال أعرابي: «البشر سحر، والهدية سحر، والمساعدة سحر».

وقال آخر:

ولاقِ ببشرٍ من لقيت تكن له ... صديقاً وإن امسى مغباً على حقد

وكان عمر بن عبدالعزيز ﷺ يتمثل بهذه الأبيات:

الق بالبشر من لقيت من النا ... س جميعاً ولاقهم بالطلاقة

تَجْنِ منهم به جناءَ ثمارٍ ... طيباً طَعْمُهُ لذيذَ المذاقة

ودَعِ التيهَ والعبوس عن النا ... س فإن العبوس رأس الحماقة

كلما شئت ان تعاديَ عادي ... ت صديقاً وقد تعز الصداقة

وقال أبو جعفر المنصور: «إن أحببت أن يكثر عليك الثناء الجميل بغير نائل ـ فالقهم ببشر حسن».

فهذا شيء مما أوحت به سيرة ذلك الصديق المبتسم، ذي الوجه الطلق.

١٥ـ الندوات والمداخلات

شاع في الأزمنة المتأخرة عقد الندوات العلمية، والثقافية، والفكرية، وغيرها.

والندوة تبحث في موضوع، أو قضية، وتتكون من مديرٍ لها، واثنين أو أكثر يُلْقُون ما عندهم في ذلك الشأن.

وهذه الندواتُ تلقى أمام جمهور من الناس، أو في وسيلة إعلامية.

وغالباً ما يتخلل تلك الندوات مداخلاتٌ تثري الموضوع، وتُكَمِّل ما قد يعْتَورُ الندوة من قصور، ويُبْدى من خلالها بعضُ التساؤلات أو الاعتراضات على ما ألقي.

ولا ريب أن تلك الندواتِ والمداخلاتِ مما ينهض بالعلوم، ويوسع الآفاق، ويرتقي بالثقافة، ويقرِّب وجهات النظر، ويعوِّد على الأخذ والرد، والمناقشة.

وغالباً ما تسير تلك الندوات على وَفْقِ ما رُسِم لها، فتؤتي أكلها ضعفين.

ولكن ثمت آفات تعتري بعض الندوات، فتعكر صفوها، وتُذْهِبُ بهجتها، وتقلل الفائدة المرجوة منها.

ورغبة في الارتقاء بندواتنا، وحواراتنا أحببت تقييد ما أراه من خلل يعتري تلك الندوات؛ فمن ذلك: **قلة التخطيط**؛ فبعض الندوات يُضْرب لها موعدٌ محددٌ، وموضوعٌ معينٌ، وأناسٌ يلقونها دون تفصيل دقيق لسير تلك الندوات؛ فلا يُحَدَّدُ للمتكلمين وقتٌ لا

يتجاوزونه، ولا يحدد وقت الندوة بالساعة والدقيقة المعينة، وإنما يقال: الموعد بعد العشاء أو صبيحة ذلك اليوم، وتبدأ الندوة بكلمة فلان ثم فلان، وهكذا...

. ومن هنا يحصل الخلل في حضور الناس للندوة؛ فقد يأتون قبل بدايتها بوقت طويل، وقد يأتون بعد بدايتها، أو في نهايتها.

ويحصل الإسهاب، أو الإخلال من قبل المتكلمين.

وقد يدعى للندوة وجهاء، أو علماء؛ فلا يخصص لهم أماكن يجلسون عليها في المقدمة، وإنما تكون الأمور هكذا؛ فمن أتى مبكراً جلس في المكان الذي يطيب له الجلوس فيه.

والأولى أن يخصص لبعض الحاضرين مقاعد معروفة؛ حتى لا يقع الحرج.

ومن الآفات التي تعتري الندوات والمداخلات الإطالة، وتجاوز الحد؛ فمن المُلْقِينَ مَنْ يُحَدَّد له وقتٌ، ثم يتجاوزه بمراحل، فَيُضْجِر الحاضرين، ويُثقل عليهم، ويوقِعُ نفسه وغيره في حرج؛ حيث يُخْرِج مدير الندوة، ويضطره إلى إرسال الأوراق الصغيرة، أو أن يبدأ بطرق مكبر الصوت؛ كي يتوقف المتكلم عن الكلام.

وبعد أن يتنبه الملقي يبدأ بالاعتذار من ضيق الوقت، وأن المدة ليست كافية، وأن في جعبته الكثيرَ مما لم يَقُلْه.

ولو أنه استعد، وراعى عامل الوقت، وعَصَر موضوعه بما يناسب المقام، وأتى على الذي لم يستطع إلقاءه على عجل ـ لكان خيراً له، وأسلم لعرضه، وأبقى لأثر كلامه؛ ولأَنْ يقال: ليته واصل خيرٌ من أن

يقال: ليته سكت.

وكذلك الحال بالنسبة لبعض المداخلين؛ حيث يطيل في المقدمات، ويتشعب في الحديث، ويخرج عن الموضوع، ويكرر ما قيل.

وقد يكون سبب ذلك أنه لم يفهم المراد، أو أنه كان شارد الذهن أثناء إلقاء الندوة، أو أنه أتى متأخراً؛ فحري بمن أراد المداخلة أن يحسن العرض، والاعتراض، وأن تكون مداخلته ذاتِ فائدةٍ، وإضافةٍ للموضوع، وأن تكون بأسلوب مقبول، وأدب جَمٍّ.

وإذا كُفِي من يريد المداخلة بمن سبقه فالأولى له أن يكتفي بذلك؛ فليس المهم أن يداخل، وإنما المهم كيف يداخل؟ وماذا سيقول؟ وما أثر ذلك؟

ومن آفات بعض الندوات والمداخلات أن يُطْرَحَ موضوع معين، أو قضية من القضايا دون أن يحرر محل النزاع؛ فترى بعض الملقين أو المداخلين يتنازعون حول أمور خارجة عن الموضوع.

والأولى أن يكون الحوار دائراً في الموضوع، ومحل النزاع.

ومن آفات بعض الملقين ضيق الصدر بالاعتراض؛ فتراه يطرح ما شاء أن يطرح من الآراء، ولا يريد لأحد أن يعترض، أو يصوِّب، أو يستفهم.

بل تراه يثور لأدنى اعتراض، أو مخالفة.

وما هكذا تورد الإبل، ولا هكذا يُستقبل الاعتراض أو النقد.

وإنما يحسن به أن يستقبل ذلك بصدر رحب، ونَفْسٍ مطمئنة،

ونَفَسٍ مُسْتَرِيض كما قال الحكيم:

يحلو النضالُ ولا نضالَ الذُّ من — تنقــاد آراء بغـــير خِــصام
هي كالسحائب هذه وطفاء إن — ســنحت وتلـك تمـرُّ مَـرَّ جهـام
والـرأيُ يَخلُـصُ بالنقّـاش الحـرِّ — صَـدإ الخُمـولِ ولُبْـسَةِ الإبهـام
وجـآذرُ الأفكـارِ لا تَـرِدُ الحمـى — مـا لم تُـسَسْ برويَّـة ونظـام

وما مضى إنما هي إشارات ربما تسهم -بإذن الله- في إنجاح الندوات والمداخلات، فيكون لها أحسن الفائدة، وأطيب العائدة.

١٦ـ الصاحب المواتي

أنشد مخارق عند المأمون قول أبي العتاهية:

عذيريَ في الإنسان ما إن جفوته صفا ليْ ولا إن صرتُ طوع يديه

وإني لمشتاقٌ إلى ظلِّ صاحبٍ يروق ويصفو إن كدرت عليه

فقال المأمون: أعد، فأعاده سبع مرات، فقال المأمون:

يا مخارق خُذْ مِنِّي الخلافةَ، وأعطني هذا الصاحب.

ويقول الشافعي رحمه الله:

احب من الإخوان كلَّ مُواتِ وكل غضيض الطرف عن عثراتي

يوافقني في كلِّ امرٍ احبه ويحفظني حياً وبعد مماتي

فمن لي بهذا ليت اني لقيته فقاسمته مالي من الحسنات

فيا ترى ما الذي حدا بالمأمون أن يُؤْثِرَ هذا الصاحب على الخلافة؟ وما الذي جعل الشافعي يبحث عن هذا الصاحب الذي يتمناه، ويستبعد لقياه، ولا يمانع في أن يُشْرِكَهُ معه في حسناته وهي أغلى ما يملك؟

لعله الصاحب المواتي الذي لا تتكلف في معاملته، ولا تتأذى من حديثك معه، ولا تخشى بادرةَ غَضَبِه إن أخطأت في حقه، ولا تخاف من سوء ظنه إن قلت كلمةً محتملة.

وهو -كذلك- الذي يحفظك في غيبتك وحضورك، ويحسن الاستماع إذا تحدثت إليه، ويحسن الحديث إذا حدثك.

وهو الذي يوافقك بصدق، ويخالفك بلطف، ويرضيه اليسير من

برك، ويصبر على الكثير من جفائك، ويَقْبَلُكَ على عِلاَّتك، ويغض الطرف عن عيوبك.

فهذا هو سلوة الروح، وقرة العين، والنعيم المعجل، فإذا ظفرت به فاشدد يديك به، وعض عليه بالنواجذ، وثنِّ عليه بالخناصر؛ فإنه المسك الأذفر، والكبريت الأحمر.

قال أبو هلال العسكري رحمه الله:

رايت بالود عن القربى غنى   وليس بالقربى عن الود غنى
وصاحب الصدق حسامٌ منتضى   يزين في السلم ويكفي في الوغى

وقال:

ليس حدُّ الحسام اكفى واغنى   من اخ ذي كفاية وغَناء
واخ المرء عصمةٌ في بلاء   يعتريه وزينة في رخاء

ومن أبلغ ما قيل في إرضاء الرجل عن صاحبه قول الراجز:

لم اَقْضِ مِنْ صُحبة زيدٍ أَرَبي   فتىً إذا نبهته لم يغضبِ
ابيضَ بسامٍ وإن لم يُعْجَبِ   ولا يضن بالمتاع المحقبِ
موكل النفس بحفظ الغيب   اقصى رفيقين له كالأقرب

فما أشد حاجة الإنسان في هذه الدنيا إلى مثل أولئك، وما أعظم سروره بهم، وما أشد حسرته إذا فقدهم.

قال الإمام الشافعي رحمه الله: «لا سرور يعدل صحبة الإخوان، ولا غمَّ يعدل فراقهم، والغريب من فقد إلْفَه، لا من فقد منزله، وأنشد:

واحسرةً للفتى ساعة   يعيشها بعد أودَّائه

عمر الفتى لو كان في كفه … رمى به بعد أحبائه

وقال الأستاذ محمد كرد علي رحمه الله : « المرء يحتاج إلى أصحاب في فرحه وترحه ، وفي حَلّه ومُرتحله ، يحتاج أبداً إلى من يأنس إليهم ، ويأنسون إليه ، ويبادلهم الأفكار ، ويُجيل معهم الرأي.

ولا تضره كثرتهم بقدر ما يضره سوء اختيارهم.

وليس أشقُّ على المتصادقين من عدم المشاركة في التربية والعقل » .

١٧ـ بديهة معلم

يذكر لي أحد الأساتذة الفضلاء أنه لما كان طالباً في المرحلة الثانوية كان يدرس لهم مادة الحاسبِ معلم حازم حليم عاقل، يحسن عرض المادة، ويجمع لهم في دروسه ما بين المتعة والفائدة.

ويذكر أنه في يوم من الأيام، والمعلم يكتب بعض عناصر الدرس على السبورة أصدر أحد الطلاب صوتاً يشبه صوت شاة؛ فضحك الطلاب جميعاً، والتفت المعلم إليهم، وقال: من الذي أصدر الصوت؟

فلم يجبه أحد؛ فتوقع الطلاب أن يرفع المعلم صوته باللوم، أو أن يسخر منهم، ويشعرهم بأنهم ليسوا أهلاً للعلم؛ إذ كيف يصدر هذا الصوت من أحدهم، ويضحكون منه، ولا يخبرون عن ذلك الذي أصدره؟

وتوقعوا أن يعاقبوا عقاباً جماعياً، أو أن يُفْتَح التحقيقُ في هذه القضية، أو أن يَسْتدعي مدير المدرسة، أو وكيله؛ لهذا الشأن.

ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث؛ بل لقد تبسم المعلم، وقال: أنا السبب؛ لأنني لم آتِ بالبرسيم؛ لأنني لم أكن أعلم أن من بين الطلاب شاةً.

فلما قال ذلك: انفجر الطلاب ضاحكين إلا الطالب الذي أصدر الصوت؛ حيث وَجَمَ، وتغيَّر لونُ وجهه، وعرف المعلم أنه هو الذي أصدر الصوت.

بعدها واصل المعلمُ إلقاءَ الدرس، وكأن شيئاً لم يكن؛ فصار ذلك الموقف مثار إعجابنا، ومدار حديثنا مدة طويلة، ولا زلنا نتذكره رغم مُضيٍّ سنوات عليه. اهـ.

تُرى لو أن ذلك المدرس ـكعادة الكثيرين وقد لا يلامونـ رفع

صوته، واستدعى مدير المدرسة، أو وكيلها، أو المرشد الطلابي، أو أنه أَسَفَّ في عبارته، وأمطر على الطلاب وابلاً من الإهانات، ترى هل سيجدي ذلك أكثر مما أجدى ذلك التصرف السهل العفوي؟

أعتقد أنه لن يجدي، وربما صار لذلك عواقب وخيمة.

ولكنه تصرف بهدوء، وعالج الموقف بحكمة، وعاتب الطالب بطريقة تليق بالموقف دون أن يوجه إليه الكلام مباشرة، ودون أن يُدْخل أطرافاً أخرى في القضية، فهذا تصرف ارتآه المعلم، ولا يلزم أن يكون سليماً من كل ناحية، وإنما هو تصرف اقتضاه الحال، وأَمْلَتْهُ البديهة، ولم يكن لدى المعلم وقتٌ للتفكير فيما يمكن أن يقوم به.

ولكنه -على كل حال- تصرف آتى ثمرته، ولم يعطل سير الدرس، أو يُخِلَّ بنظام الفصل.

ولا ريب أن المعلم الفاضل الحكيم الحازم هو ذاك الذي يحرص كل الحرص على حل مشكلات طلابه بنفسه، وهو الذي يبذل قصارى جهده كيلا يَدْخُل أحدٌ بينه وبين طلابه؛ فذلك أنجع في العلاج، وأجدى في التربية، وأعمق أثراً في الطلاب، وأبقى لهيبة الإدارة في نفوسهم؛ لأنهم إذا اعتادوا الخروج إلى الإدارة، أو استدعاء المدير أو المرشد عند كل صغيرة وكبيرة لم يعد لأحد في المدرسة هيبة عندهم؛ فحري بالمعلم ألا يُصَعِّد الأمور إلا إذا أعيته الحيلة، وضاقت به السبل.

ثم إن الطلاب يوجد مِنْ بينهم مَنْ يؤذي بلحن منطقه، ولا يعنيه

الدرس بقليل ولا كثير؛ فلربما استثار المعلم، وآذاه بسفالته وسفاهته.

ولهذا كان من الحكمة أن يُعرض المعلم عن هؤلاء وأمثالهم، فلا يجاريهم ولا يمازحهم، ولا يتحدث معهم إلا بقدر ما تدعو إليه الحاجة من سلام، أو رده، أو إجابة لسؤال أو نحو ذلك.

ولا يعني ذلك أن تدع الطالب دون علاج أو عقوبة، وإنما تحرص على ألا يَتَسَفَّه عليك أمام الطلاب.

وإلا فإنه يعالج ويعاقب، إما بالمناصحة الفردية، وإما باستدعائه خارج الفصل، وإما بالتفاهم في شأنه مع الإدارة أو المرشد، أو المشرف، وإما مع ولي أمره، أو ما شاكل ذلك من أنواع العلاج.

بل قد تقتضي الحكمة أن تجازيه في الفصل أمام زملائه إن ظننت أن ذلك سيردعه، ولم تخش مفسدة أكبر تحصل من جراء ذلك.

ثم إنه لا يحسن بالمعلم أن يكون كثير العتاب، مبالغاً في تقريع الطلاب، خصوصاً عند الأخطاء اليسيرة أو غير المقصودة؛ لأن الناس يكرهون من يؤنب في غير مواطن التأنيب، وينفرون ممن يبالغ في التوبيخ دون ترو وتؤدة؛ فلربما استبان له بعدُ أن ثمة اجتهادا صحيحاً، أو أنه مخطئ في عتابه وتأنيبه.

إن كثرة التأنيب قد تحرج الطالب، وربما أصيب بخيبة أمل، وفقدٍ للثقة بنفسه، وربما قاده ذلك إلى ترك الدراسة إلى غير رجعة.

فعلى المعلم أن يعتدل في توبيخه وعتابه، وألا يوبخ إلا عند الحاجة لذلك.

ولا يعني ذلك ألا يبدي الملاحظات، وألا يسعى في إصلاح الأخطاء.

وإنما يعني أن يكون ذا نظرة متوازنة، وأن يكون واقعياً في علاجه، ونظرته للآخرين، وأن يكون منصفاً؛ فما أجمل الإنصاف!

والحاصل أنه يحسن بالمعلم أن يَحْملَ خلال تدريسه شعارين:

الأول: الحزم من غير عسف: لأن في الحزم ضبطاً للطلاب، وكبحاً لما عندهم من جماح، كما أن فيه حفظاً للوقت، وإبقاءً لهيبة المعلم والعلم.

ومما يعين المعلم على الحزم أن يكون حازماً مع نفسه.

ومن حزمه مع نفسه أن يعد الدرس جيداً، وأن يلقيه كما ينبغي؛ فإذا أعد الدرس جيداً، وألَمَّ بكل شاردة وواردة فيه ـ كان من أثر ذلك عليه وثوقُ الطلاب بما يقول، وظهورُ التجديد فيما يعمل، وتنويع الدرس على ما يحب.

وإذا ألقى الدرس كما ينبغي ـكأن يربطه بالدروس السابقة، ويسيرَ فيه خطوةً خطوة، ثم يلخصه بطريقة الأسئلةـ ملأ الوقت على الطلاب، فلم يَعُدْ فيه فراغٌ لعبث عابث، ولا تجني سفيه.

وإذا حرك أذهانهم بالتشويق، والتطبيق، والسؤال ـلم يُصِبْهُم سأمٌ ولا ضيق.

ومن هنا يُشغل المعلمُ طلابَه عن أنفسهم وعن نفسه، فلا يفرغون لاصطياد نكتة، ولا لالتماس غميزة؛ إذ ليس أعون للمعلم على حفظ نظام الفصل من ملء الوقت بالمفيد الممتع، ولا أضمنُ لجودة شرحه، وحسن استماع التلاميذ من فهم الموضوع وجودة إلقائه.

ومما يعينه على الحزم ألا يسمح لطالب بأن يسيء للفصل، أو

لأحد من زملائه.

ومن ذلك أن يتابعهم في واجباتهم، وأن ينجز الوعد إذا وعد أحداً من تلاميذه.

وبالجملة فالحزم مطلوب، وهو من علامات النجاح، ومن مقومات المروءة، بشرط ألا يصل إلى حد التسلط والاستبداد، والشدة المفرطة، والصرامة المتعدية لأطوارها؛ لأن تلك الطريقة تفسد الجيل، وتغرس فيه رذائل مهلكة؛ إذ تسلب من الطالب جميع عزائمه وسائر إرادته، وتحمله على الكذب والنفاق، وتغرس فيه الجبن والخور، وتُبَغِّض إليه العلم والقراءة، كما أنها تحول بينه وبين عزة النفس، وما يتبعها من قوة الجأش، وأصالة الرأي، وإرسال كلمة الحق عندما يقتضيها المقام؛ فيكون ألعوبة بين معاشريه كالكرة المطروحة يتلقفونه رجلاً رجلاً، وآلة يصرفونها كما يشاؤون.

ولئن كانت الشدة مطلوبةً مع بعض النفوس التي لا يَرُدُّ جماحَها غيرُ الشدة ـ فإن من النفوس ما لا يأسرها إلا الجميل من القول، ولا يُرَدُّ جماحها إلا بزمام الرفق والملاطفة.

الثاني: الحلم من غير ضعف: فكما يحسن الحزم فكذلك يحسن الرفق واللين، قال النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله**» (رواه البخاري ومسلم).

وقال: «**إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه**» رواه مسلم.

فيجمل بالمعلم أن يكون رفيقاً بطلابه، رحيماً بهم، مشفقاً عليهم،

محسناً إليهم، صابراً على بعض ما يصدر من جفائهم وسوء أدبهم.

ولا يعني ذلك ترك الحبل على الغارب للطالب، فلا يؤمر ولا ينهى، ولا يؤدب ولا يعاقب؛ بحجة رحمته، والرفق به.

لا، ليس الأمر كذلك؛ فترك تأديبه وتوجيهه خطل وخلل، وخرق وجهل، وتفريط وإضرار.

وذلك مما ينمي فيه الميوعة، ويقتل منه الرجولة.

والحكمة تقتضي أن يكون المعلم حازماً من غير عسف، ليِّناً من غير ضعف؛ فالحزم والرفق رضيعا لبان، يجتمعان ولا يتنافيان.

فالتربية النافعة ما كانت أثراً لمحبة يطفئ البأس شيئاً من حرارتها، وصرامة تلطف الشفقةُ نبذةً من شدتها.

١٨- أتى بالعجائب

العاقل الذي يَقْدُرُ نَفْسَه قَدْرَها هو من لا يتعدى حدود ما يَعْرِف، ويتخطى إلى ما لا يَعْرِفُ؛ حتى لا يكون غرضاً للذم، أو اللوم، أو الإثم.

ونحن في عصر كثرت فيه التخصصات، وتشققت العلوم، وصار التخصص في بعض العلوم دقيقاً جداً سواء في علوم الشريعة، أو اللغة، أو الطب، أو الطبيعة، أو السياسة، أو الاقتصاد، أو نحو ذلك.

ولا يَمْنَعُ أن يجمع الإنسان بين عدة تخصصات، ولا يُثَرَّبَ على من كان ذا تخصص وتكلم بما يعلم في تخصص آخر، كحال من يجمع بين علم الطب، والشريعة.

أو من يكون ذا تخصص في الهندسة، وعنده علم ببعض فروع الشريعة، أو الطب، فيجول في حدود ما يعرف دون أن يتخطى إلى مقامات المتخصصين، فينازِعَهُم في أُمُورٍ هُمْ أدرى بها منه.

وإنك في بعض الأحيان لَتجلِسُ إلى مَن لهم عنايةٌ في تربية الإبل، والولع بها، فتراهم يشرِّقون ويغرِّبون في ذكر تفاصيل دقيقة في طبائع الإبل، وأجناسها، وأسمائها، وألوانها.

ولهم في ذلك مصطلحات، وعبارات يتداولونها بينهم.

وقل مثل ذلك في عالم الصيد، والولع بالصقور؛ فلهم رموز، وإشارات، ومصطلحات لا يعرفها تمام المعرفة إلا من كان على شاكلتهم.

والذي يحترم نفسه لا ينازع هؤلاء في ذلك، ولا يتقدم بين أيديهم؛ لأنه ربما عَرَّض نفسه للسخرية إذا تكلم بما لا يحسن.

والأمر كذلك في عالم الرياضة؛ حيث ترى بعض المجالس تُشْغَلُ

بالحديث عنها، وبتحليل مبارياتها، ولا يرضى أصحاب ذلك الميدان أن يخوضَ فيه من ليس أهلاً له.

وهكذا بقية المجالات عَظُمَتْ أو صغرت.

والذي يلاحظ أن فئاماً من الناس لا يَقَرُّ له قرارٌ حتى يدخل في كل ميدان، ولو كان جاهلاً تمام الجهل في ذلك الميدان.

ومن هنا يقع في اللوم، والتندر، والاستخفاف.

وأذكر أن أحدهم أراد أن يتكلم عن الرياضة عندما سمع جلاسَه يتحدثون عنها، وكان لا يفقه شيئاً فيها، وكان المنتخب آنذاك قد وصل إلى نهائيات كأس العالم، وسمع صاحبنا من حوله يتحدثون، ويحللون المباريات، ويقولون: أخشى ما نخشاه منتخب كذا وكذا، وصاحبنا يسمع كلمة (المونديال) تتردد في كلامهم، وهو لا يدري معناها، فأحب أن يشارك، فما وجد إلا أن يقول: إن أخوف ما أخاف على منتخبنا هو المونديال؛ لأنه أخطر ما سيواجهه؛ وهو يظن أن المونديال اسم فريق!

فغمزه أحد رفاقه الناصحين، وكان بجانبه، وقال له: اسكت، قال: لماذا؟

قال: أخبرك بعد نهاية المجلس.

وبعد أن انفض الحاضرون، قال له صاحبه: لا تَعُدْ إلى الكلام بما لا تعرف، ولو سمع الحاضرون ما قلت لجعلوا منك أضحوكة؛ أتدري ما المونديال؟

قال : لا ، قال : هي النهائيات ، أو المسابقة ، أو البطولة.

هذا هو مسماها ، وليست اسماً لفريق.

وبعدها عرف صاحبنا قدره في هذا المجال ، ولم يَعُدْ يتكلم فيه.

وأذكر أن شخصاً كان في مجلس ، فتكلموا في الإبل ، فقال : إن فلاناً أصابه بَعيرٌ بِنَكْرَةٍ[1] فكان من ضمن الحاضرين رجل ذو دراية بالإبل ، فضحك ، وقال : يا هذا! النَّكْرَةُ للحمار ، وليست للبعير ، قل : رَمَحَهُ.

يقول صاحبنا : بعد ذلك صرت لا أتكلم عن الإبل بحضرة أهلها والعارفين بها ، بل إذا كنتُ فيهم جلست إليهم جلسةَ المتعلمِ ، فلا أتعدى حدودي ، بل أسألهم ، وأراجعهم في مصطلحاتهم.

وهذا يذكرنا بقول طرفة بن العبد ـ وكان صغيراً ـ لما سمع المُتَلَمِّسَ يقول :

وقد اتناسى الهمَّ عند احتضاره بناجٍ عليه الصيعريةُ مُكْدَمِ

قال طرفة : استنوق الجمل استنوق الجمل ، قال ذلك متندراً بخاله الذي أخطأ ، وجعل ما هو من خصائص الناقة من خصائص الجمل[2].

---

١ ـ النَّكْرَة عند العامة هي ضَرْبة الحمار ، والرَّمْحَة ضربة البعير ، فإذا ضرب الحمار أحداً برجله قيل : نَكَرَه الحمار ، وإذا ضرب البعير أحداً برجله قيل : رَمَحه البعير.

٢ ـ ولهذا أصبحت كلمة طرفة (استنوق الجمل) مثلاً يضرب للرجل الواهن الرأي المخلط في كلامه ، وقصة المثل كانت بحضرة بعض الملوك؛ حيث أنشد المتلمس شعراً قال فيه البيت السابق :

وقد اتناسى الهمَّ عند احتضاره بناجٍ عليه الصيعريةُ مُكْدَمِ

=

ويحدث أحد الأصحاب قائلاً: إذا كنت عند أهل الصقور أخذت أتكلم عنها، وأنا لا علم لي بكثير من اصطلاحاتهم، وإنما أتكلم؛ لأثير حفيظتهم؛ فكانوا يغضبون لذلك أشد الغضب، وينكرون علي أشد الإنكار.

أقول: إذا كان هذا الشأن في عالم الإبل، أو الصقور، أو الرياضة، فما الشأن في أمور العلم، ومسائل الدين الكبار، وقضايا الأمة المصيرية؟

هل يليق بإنسان لا يعلم أبجديات ما يتحدث عنه أن يخوض فيه نقداً، وتحليلاً، وتنظيراً، وتصحيحاً، وتخطئةً؟

ولئن ساغ له أن يتحدث في ذلك مع زملائه حديثاً عابراً، فهل يسوغ له أن يذيعه وينشره على نطاق أوسع؟

وإن أبى إلا الخوض فيما لا يعنيه كان حقيقاً بأن يأتي بالعجائب؛ لأنه تكلم بما لا يعرف.

وخلاصة القول أنه يحسن بالعاقل ألا يخوض في كل مجال، ولا يلزمه أن يكون له رأي في كل مسألة، وإذا كان له رأي فليس ضرورياً أن يبديه، وإذا كان سيبديه، فليس ضرورياً أن يبديه لكل

= فقال: : «بناج» يعني جملاً، والصيعرية سمة من سمات النوق، هي اعتراض في السير من الصعر، وهي سمة في عنق الناقة، والمكدم: الغليظ.

ومعنى: استنوق الجمل: أي صار الجمل ناقة، فقال المتلمس: ويل لهذا من لسانه، فكان هلاك طرفة بلسانه؛ هجا عمرو بن هند؛ فقتله.

أحد أو أن يفصل فيه.

ويحسن بالعاقل -أيضاً- أن يعرض آراءه على ذوي الحِجا، والنصح، والنظر البعيد؛ حتى لا يقع في بحر الحسرات؛ لأنه ركب العَجَلَة وهي أم الندامات.

ويجدر به قبل ذلك وأثناءه، وبعده أن يستخير الله -عز وجل- وأن يسأله التوفيق، والهدى، والتسديد -خصوصاً في الأمور الكبار-.

وإذا اشتبه عليه شيء مما قد اختلف فيه -كما يقول ابن تيمية- فَلْيَدْعُ بما رواه مسلم في صحيحه عن عائشة -رضي الله عنها- أن رسول الله ﷺ كان يقول إذا قام يصلي من الليل: «**اللهم رب جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون - اهدني لما اختُلِفَ فيه من الحق بإذنك؛ إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم**».

فإن الله -تعالى- قد قال فيما رواه عنه رسوله: «**يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم**».

فإذا دعى بذلك الدعاء العظيم كان حرياً بأن يوفقه الله، ويزيل عنه حيرته، واضطرابه، وتردده، ويريه الحق حقاً ويرزقه اتباعه، والباطل باطلاً ويرزقه اجتنابه.

فإن أبى إلا الدخول في كل طريق، والتولج في كل مضيق - فإنه ربما أتى بما لا لم يأت به الأوائل من العجائب والغرائب، وستنطبق عليه مقولة الحافظ ابن حجر حين قال رحمه الله: «إذا تكلم المرء في غير فنه أتى بهذه العجائب» الفتح ٣/٥٨٤.

ورحم الله ابن حبان إذ نقل قولاً ساقطاً لأحدهم في مقدمة كتابه (المجروحين ١/١٧) فقال: «ولو تملَّق قائل هذا القول إلى بارئه في الخلوة، وسأله التوفيق لإصابة الحق لكان أولى به من الخوض فيما ليس من صناعته».

قال أحد الحكماء: «ليس أحد أولى بالأناة والروية من كاتب يعرض عقله، وينشر بلاغته؛ فينبغي له أن يعمل النسخ، ويقبل عفو القريحة، ولا يستكرهها، ويعمل على أن جميع الناس أعداءٌ له، عارفون بكتابه، منتقدون عليه، متفرغون إليه».

وقال آخر: «إن لابتداء الكلام فتنةً تروق، وجدةً تُعجب؛ فإذا سكنت القريحة، وعدل التأمل، وصفت النفس ـ فليعد النظر، وليكن فرحه بإحسانه مساوياً لغمه بإساءته».

١٩ـ أخلاق بائع

يحدثني أحد أصحاب المحلات التجارية فيقول: ها أنا قد جاوزت الخمسين من عمري، وكنت كزاً غليظاً، سيّيء الخلق، صعب المراس.

وهكذا كانت سيرتي مع أصحابي، وأقاربي، حتى قيَّض الله لي قبل سنوات فَتْحَ محلٍ تجاري، فصرت أحرص على البيع، والكسب، فألزمني ذلك أن أُغيِّر طباعي، فأخذت بِسُنَّةِ المداراة، ولزمت خُلُقَ الصبر؛ حتى لا أخسر زبائني.

ولقد كان بعضهم يأتي، فَيَقْلِبُ المحلَّ رأساً على عقب، ولو طاوعت طبيعتي لربما لم أكتف بالنهر والزجر، بل ربما مددت يدي إليه بالضرب.

ولكن كنت ألزم الهدوء، وأجاهد نفسي على التَّحَلُّم.

واستفدت كذلك من أخلاق الزبائن؛ فبعضهم سمح كريم حيي لطيف، وبعضهم كزٌّ بخيلٌ شحيحٌ صفيقٌ؛ فكانت حاجتي ماسة لمراعاة الأوائل، ومداراة الآخرين.

وبعد فترة تَغَيَّر كثير من طباعي، وأفدت من البيع والشراء أخلاقاً ما كنت أحلم بها، وصار أثر ذلك عائداً إلى تعاملي مع أقاربي، وأهل بيتي.

وأدركت أن الإنسان قادرٌ ـبإذن اللهـ على تغيير طباعه، والنهوض بنفسه، فزادت بذلك مسراتي، وخفَّت آلامي وأحزاني.

ولا ريب أنك ـأيها القارئ الكريمـ قد أدركتَ العبرة من هذه الحادثة؛ وكيف كان حرص صاحبنا على مصلحته دافعاً لأن يرتقي بخلقه، ويُغَيِّر طباعه.

فسيرة هذا البائع ترشد إلى أن تغيير الطباع وارد ممكن، وتشير إلى

أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، وتدل على أنه لا يكفي مجرد العلم بالخطأ أو التقصير، أو الرغبة في التغيير.

وإنما لا بد -مع ذلك كله- من الإرادة الجازمة، والسعي الحثيث لمغالبة النفس، والسير بها إلى الأمثل.

وبعد فلو أننا نحرص على الارتقاء بأخلاقنا وتعاملنا، ونستحضر أن ذلك من صميم ديننا - لكان ذلك خيراً لنا وأحسن تأويلاً.

ولو أننا نحرص على الدعوة إلى الله، ونستشعر أن ذلك من أعظم ما يجب علينا، وما يحبب الناس بديننا، ويكون لدينا إحساس كإحساس ذلك البائع، ورغبتهِ في كسب زبائنه - لكانت النتائج مذهلة.

وهذا الكلام يوجه إلى بعض من لا يرعون أدب الإسلام، وحكمة الدعوة إليه.

وإلا فهناك -ولله الحمد- فئام من محبي هذا الدين يدعون إليه بأقوالهم، وأفعالهم، ويحرصون على ذلك أشد من حرصهم على أيِّ شيء من حطام الدنيا.

٢٠ـ خذه على عِلاَّته

كثيراً ما يؤمل الوالد في أولاده أن يكونوا على قدر كبير من المروءة، والعلم، والتميز، وتراه يسعى سعيه، ويبذل مستطاعه في ذلك السبيل.

وقد يكون الوالد راغباً في رؤية ما فاته مِنْ فرصٍ ماثلاً في أولاده.

ولكن قد تسير الأمور على غير مراده، فلا يكون الأولاد على وَفْق ما أمَّل.

ومن هنا قد يصاب بخيبة أمل، وربما ضاق ذرعاً بفوات ما توقعه من خير، وربما وقع في الاعتراض على الحكمة الربانية.

وقد يغبط فلاناً وفلاناً ممن صار أولادهم ذوي تَمَيُّزٍ، وعلم، وكفاءة.

وقد يزهد بأولاده، ولم يعد يراهم أهلاً لأن يَبْذِلَ من أجلهم ما يبذل.

وهكذا يضيق صدره، وتتنغص حياته.

ولو اتسع عقله، وبَعُدَتْ نظرتُه، ورضي بِقِسْمَةِ ربِّه لما وقع في بحر الحسرات، وإنما سَلَّم، واستبشر، وأمَّل، وانتظر الخير، وصار لسان حاله يقول:

وعلـــيَّ أن اســـعى وليـــــــس علـــيَّ إدراك النجـــاح

فهو ـإذاًـ محسنٌ، مأجورٌ، مثابٌ على ما بذل.

ولكنَّ مقاليد الأمور بيد الله ـعز وجلـ فحريٌّ به أن يرضى، ويقنع، ويُسَلِّم، ويتحرى الخَيِرة، فربما صلحوا بعد حين، وادَّكروا بَعْد أمة، وربما خرج من أصلابهم مَنْ يناله بِرُّهُمْ، ودعواتُهم.

وجدير بالوالد أن يقبل أولاده على علاتهم؛ فيعاملهم على ما هم عليه ولو كانوا خلاف ما يؤمل.

والعرب تقول في أمثالها: إذا لم يكن ما تريد فأرد ما يكون.

وتقول: أَنْفُكَ مِنْكَ وإنْ ذَنَّ[١]، وعِيْصُكَ[٢] مِنْكَ وإنْ كان أَشِباً[٣].

وإذا كانت الأخرى بحيث لم يرضَ، ولم يُسَلِّم، فَسَيَمَلُّ منه أولاده، وربما زادوه وهناً على وهن؛ فكانت الحسرة عليه مضاعفة.

وأعرف رجلاً كان يؤمل في أولاده أن يكون لهم شأن، ويتمنى ذلك من كل قلبه، ويبذل ما يستطيع في ذلك الشأن، ولم يكن ممن لا يعنيه صلاح أولاده في قليل ولا كثير، ولكنه صُدِم بأنهم غير مُهَيئين لذلك؛ فصار لسان حاله كما يقول الحكيم:

ولَدَتْكَ تبغي في الحياة انيسا ... يرعى عقولاً أو يقود خميسا

ولرب أُمٍّ أمَّلت في طفلها ... هِمَمَ الملوك فقام يحدو العيسا

فأحد أولاده يسير سيراً بطيئاً في الدراسة، وأحدهم كسول متبلد، وهلم جرا؛ فكان والدهم يتبرم من هذا الوضع، ويتأسف له أشد الأسف، ويكثر من لوم أولاده، ومقارنتهم بأولاد فلان وفلان.

وأخيراً رأى أنه لا بد من التسليم للأمر الواقع، وصار يُوطِّن نفسه على الرضا بتلك الحال، ويعامل أولاده على حسب أحوالهم، لا بما يؤمله هو؛ فزال عنه وعن أولاده همٌّ ثقيل، وصار يستمتع بالجلوس معهم، وصاروا يأنسون بالقرب منه.

---

١ ـ ذن: سال مخاطه.

٢ ـ عيصك: الجماعة من السدر يجتمع في مكان واحد.

٣ ـ أشباً: الأشب شدة التفات الشجر.

والحاصل أنه ينبغي للإنسان أن يبذل ما في وسعه في تحصيل الخير، وله أن يؤمل الآمال العراض، ويسلك السبل الموصلة إليها؛ فإذا جاءت الأمور على ما يريد حمد الله، وإذا جاءت على خلاف ما يؤمل رضي وتعزى بقدر الله، واستحضر قول ربه -جل وعلا-: ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ﴾ وقوله: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾.

وكذلك الحال مع الوالدين، والأقارب، وخاصةِ الأصحابِ، ونحوهم ممن لابد له منهم، وممن يكونون على طبائع قد لا تروق الإنسان؛ بحيث يؤمل أن يكونوا على قدر كبير من حسن المعشر، وطلاقة المحيا، وترك التَّلوُّن والتعصبِ للرأي، ونحو ذلك مما يرتضى.

فعلى من لا يعجبه تقصيرُ أولئك أن يسعى للارتقاء بهم.

وإذا أعيته الحيلة فليسلِّمْ أمره لله، وليأخذْ هؤلاء على علاتهم، ويقبل ما يصفو من أخلاقهم، ويعرض عما تكدر منها؛ فالحكيم العاقل هو من يداري من لابد له من معاشرته؛ حتى يأتيه الله بالفرج أو المخرج -كما يقول ابن الحنفية رحمه الله-.

قال الحكيم العربي:

النـاس إن وافقـتهم عَـذِبوا أوْ لا فـإنَّ جنـاهُمُ مُـرُّ
كـم مـن ريـاضٍ لا نظـير لهـا تُركـت لأن طريقهـا وَعْـرُ

وقال البحتري:

اخٌ لـي كـأيـام الحيـاة إخـاؤه تَلَـوَّنُ الوانـاً علـى خطوبهـا
إذا عِبْـتُ منـه خَلَّـةً فهجرتُـه دعـتني إليـه خَلَّـةٌ لا اعيبُهـا

٢١- غفلة

كثيراً ما ننسى أنفسنا، ونغفل عن تصرفاتنا، ونعاتب غيرنا في أمور، ثم نقع فيها من حيث نشعر، أو لا نشعر، كما قال الحكيم:

اری كلَّ إنسان يرى عيبَ غيره ويعمى عن العيب الذي هو فيه
وما خيرُ مَنْ تخفى عليه عيوبُه ويبدو له العيبُ الذي لأخيه

وهذا من طبيعة البشر؛ حيث يعتريهم الذهول، وربما تستولي عليهم الغفلة.

ولا بد من سِنَة الغفلة، ولكن كن خفيف النوم -كما يقول ابن القيم رحمه الله-.

وإذا استشعرنا هذا المعنى قَلَّ عتابنا لغيرنا، وتقلصت أخطاؤنا، واتسعت صدورنا لما يصدر من خطأ في حقنا، وصرنا أكثرَ شكراً، وصبراً، وأقلَّ كنوداً، وتضجراً.

ومن مظاهر الغفلة التي تعترينا أن فئاماً منا يلومون مَنْ لا يَرُدُّ على هاتفه، ولا يلتمسون له عذراً، ثم هم يقعون فيما لاموا غيرهم عليه، فلا يردُّون على من يتصل بهم إلا لماماً؛ فلا بدَّ -إذاً- من العدل، والتماس العذر؛ فأعدل السير أن تعامل الناس بما تحب أن يعاملوك، ومن أراد الإنصاف فليتوهم نفسه مكان خصمه؛ فإنه يلوح له وجهُ تعسفه -كما يقول ابن حزم رحمه الله-.

وهناك من يسعى لحل مشكلات الآخرين، ويغفل عن مشكلاته الخاصة داخل بيته.

ولا يعني أن الذي يسعى لحل المشكلات، ورأب الصدع ـ أن يكون كاملاً مبرأً من كل عيب، أو أن يكون معافىً في بيته، أو عمله، أو كل ما يعنيه؛ فذلك متعذر مستحيل.

كما لا يليق بنا تجاه من كان مُنْبَرِياً للإصلاح أن نرميه بالتقصير إذا شاهدنا بعضَ أقاربه أو أهل بيته على جانب من الخلل؛ فالأنبياء ـعليهم السلامـ لم يسلموا من ذلك.

وإنما المقصود ألا يغفل الإنسان غفلةً تامةً عما يحيط به؛ فالأقربون أولى بالمعروف؛ فلا بد من الالتفات إليهم، وبذل الوسع معهم، ثم بعد ذلك لا يلام الإنسان؛ فإنك لن تستطيع أن تسع الناس جميعهم، وإنك لا تهدي من أحببت، ولكن الله يهدي من يشاء.

ومن الغفلة التي تعترينا الغفلة عما في أيدينا من النعم، ومن أعظمها نعمة العافية؛ فقد ترى بعض الناس يغبط مريضاً؛ لأنه أجريت له عملية فشفي من مرضه، أو أنه أصيب بمرض؛ فَسُعِي له، وأدخل في مستشفى راقٍ، وأن فلاناً من الناس أصيب بحادث سيارة، فَسَلِمَ.

ولو فكر ذلك الغابطُ لأدرك أنه أولى بأن يُغْبَط؛ حيث سلمه الله من المرض والحوادث، ولم يُحْوِجْه إلى شفاعات، أو دخول مستشفيات.

وقل مثل ذلك في غفلتنا عن نعمة الفراغ، ونعمة الأمن، ونعمة الأهل، ونعمة الماء، وسائر النعم؛ فهي تحتاج إلى استحضار، واستذكار، وشكر، ولا يلزم أن نفقدها حتى نتذكرها، ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ (إبراهيم:٧).

٢٢ـ العمر الثاني

كل إنسان أَوْمَضَت في نفسه بارقةُ عَقْلٍ يتمنى أن يُذْكَر بعد موته، وألا يكون نسياً منسياً، وغُفلاً يطويه مَرُّ الغداة، وكَرُّ العشي.

ولا غرو في ذلك؛ فالذكر للإنسان عمر ثان -كما يقول شوقي-.

وذكر الفتى عمره الثاني -كما يقول أبو الطَّيب المتنبي-.

والناس يتفاوتون في رغبتهم في ذلك الذكر؛ فمنهم من يرغب أن يذكر في أمور عالية، ومنهم من هو دون ذلك.

ولهذا جاءت الشريعة بإيضاح ذلك الشأن، ومن أجلى صوره ما جاء في قوله ﷺ : «**إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاثة ؛ من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له**» رواه مسلم.

وفي ذلك ذكرٌ له، وتجديدٌ للعهد به، وزيادة في حسناته.

ولقد كان من دعاء أبينا إبراهيم -عليه السلام-: ﴿ وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴾ (الشعراء:٨٤).

أي اجعل لي ثناءً حسناً، وذكراً جميلاً في الذين يأتون من بعدي إلى يوم القيامة.

وقد أجاب الله -عز وجل- دعاء خليله -عليه السلام- فما أكثر ما يذكر، وما أكثر ما يثنى عليه، بل إن ذلك عبادةٌ يُتَقَرَّبُ بها إلى الله في الصلاة، والحج، والذبح، ونحو ذلك.

ولهذا كثرت الوصايا في تخليد الذكر بعد الموت قديماً وحديثاً،

وأشعار العرب وأخبارهم في ذلك كثيرة جداً، ومنها ما جاء في قول لبيد رضي الله عنه قبل إسلامه:

تمنى ابنتايَ أن يعيش أبوهما وهل أنا إلا من ربيعة أو مضر
فإن حان يوماً أن يموت أبوكما فلا تخمشا وجهاً ولا تحلقا شعر
وقُولا هو المرء الذي لا خليلَه أضاع ولا خان الصديقَ ولا غدر
إلى الحولِ ثم اسمُ السلامِ عليكما ومن يبكِ حولاً كاملاً فقد اعتذر

ويقول طرفة:

إذا مت فانعيني بما أنا أهله وشُقّي عليَّ الجيبَ يا ابنة معبدِ

ويقول مالك بن الريب:

إذا مت فاعتادي القبور وسلمي على الرمس أسقيتِ السحابَ

وتلك الوصايا موجودة عند بعض المسلمين في بعض بلدانهم إلى يومنا هذا.

وقريبٌ من ذلك ما يوصى به في حفلات التأبين التي تقام في سرادقات، ويصرف عليها الأموال الطائلة، ويستأجر لها النائحات اللواتي يلطمن الخدود، ويشققن الجيوب.

وكذلك وصايا بعض العظماء بأن توضع لهم التماثيل والنُّصُبُ التذكارية في الميادين العامة.

وكل ذلك لا يجدي لهم نفعاً، ولا يُعلي ذكراً، بل إن ذلك سبب في زيادة سيئاتهم، إذا كان موصين بذلك.

وإنما ينفعهم، ويجدد ذكرهم، ويجعل الألسنة تلهج بالدعاء لهم- ما يكون لهم من نشر للعدل، والعلم، ورفعٍ للظلم، والجهل،

وإشادةٍ للمرافق التي يفيد منها الناس -كما قال الأول- :

هِمَـمُ الملـوك إذا ارادوا ذكرهـا ... مـن بعـدهم فبالـسن البنيـان

ومن أجمل ما مَرَّ بي في هذا المعنى مما يحضرني الآن أن الشيخ العلامة محمد الخضر حسين التونسي شيخ الجامع الأزهر ت١٣٧٧هـ كان يرقد في مستشفى فؤاد الأول بالقاهرة في ربيع الآخر سنة ١٣٦٨هـ، فسألته ابنته أو امرأة أخرى: هل سيرثيك أحد، ويذكرك بعد وفاتك؟

فأجابها بقصيدة عنوانها (الدعاء للميت خير من تأبينه) يقول فيها :

تـسائلني هـل في صـحابك شـاعرٌ ... إذا مـت قـال الـشعر وهـو حـزينُ
فقلـت لهـا: لا هـمَّ لـي بعـد مـوتتي ... سوى أن أرى أُخراي كيف تكون
وما الشعر بـالمغني فتيلاً عن امرئ ... يلاقـي جـزاءً والجـزاءُ مُهـين
وإن أحْظَ بالرُّحمى فمـاليَ من هوىً ... سـواها وأهـواءُ النفـوسِ شُجُونُ
فَخَـلٌ فعـولنْ فـاعلاتنْ تقـال في ... انـاس لهـم فـوق الـتراب شـؤون
وإن شـئت تـأبينيْ فـدعوةُ سـاجدٍ ... لهـا بـين احنـاء الـضلوع حـنينُ

ثم إن كثيراً من العلماء، والأكابر، وغيرهم ممن لهم أيادٍ بيضاء يُذكرون، ويُرْثَون، ويُثنى عليهم بعد موتهم.

وفي ذلك وفاء لهم، وتجديد لذكرهم، وحفز للدعاء لهم، والاقتداء بهم.

ويحصل كثيراً عند ذكر أولئك الأموات، والدعاء لهم، والإشادة بمآثرهم عبر الصحف والكتب أن يعترضَ معترضون على أولئك الذاكرين للموتى، فيقولوا: لماذا لا يذكر الأكابر إلا بعد موتهم؟

نحن أمة لا ننصف عظماءنا إلا بعد موتهم.

والحقيقة أن هذا الاعتراض ليس بسديد في الجملة؛ فكون العظماء، والأكابر، والمحسنون يذكرون ولو بعد موتهم خيرٌ من ألا يذكروا البتة، وإن كان الأَوْلى ألا يغفل عنهم في حياتهم على حد قول الأول:

لا الفينَّك بعد الموت تندبني وفي حياتيَ ما قدمت لي زادي

بل قد يكون ذكرهم بعد مماتهم أدعى للصدق، والإخلاص، وأدل على الوفاء، وحسن العهد.

٢٣ـ مسألة في العدل

العدل قِوامُ الحياة، وهو مما تواطأت على حسنهِ الشرائعُ الإلهيةُ، والعقولُ الحكيمةُ، وتمدَّح بادعاء القيام به عظماء الأمم، وسجلوا تَمَدُّحَهم على نقوش الهياكل من كلدانية، ومصرية، وهندية ـكما يقول ابن عاشور رحمه الله ـ.

وإن من أعظم نعم الله على المرء أن يَطْبعه على العدل وحبه، وعلى الحق وإيثاره.

وأما من طبع على الجور واستسهاله، وعلى الظلم واستخفافه فلييأس من أن يصلح نفسه، أو يقوِّم طباعه، وليعلمْ أنه لا يَصْلُح في دين، ولا خلق محمود ـكما يقول ابن حزم رحمه الله ـ.

والحديث عن العدل، وحسنه، والآثار الواردة في ذلك يطول.

وسيكون الكلام ههنا منحصراً في مسألة في العدل.

ألا وهي مراعاة عامل الزمان والمكان والحال عند الحكم على الناس.

فقد يكون لعالمٍ رأيٌ في قضيةٍ، أو مسألة، أو نازلة.

وقد يكون لعامل الزمان أو المكان أو الحال التي قال فيها ما قال ـ أثر في ذلك.

وقد تكون القضية، أو المسألة، أو النازلة خَفِيَّةً، أو مشتبهة في الوقت الذي عولجت فيه، أو تُكُلِّم فيه بذلك الشأن.

فإذا جاء زمان بعده، أو نَظَر إليها مَنْ كان في مكان آخر ـ ربما لا

يكون فيها خفاءٌ، ولا اشتباهٌ.

وبناءً على ذلك فإنه يحسن بمن اطلع على رأي يراه مخالفاً للصواب ألا يَفْصِلَه عن الزمان الذي قيل فيه، أو البيئة التي عاش فيها صاحب الرأي، أو الظروف التي كانت تحيط به.

فإذا راعى تلك الأمور كان حرياً بالعدل، والإنصاف بعيداً عن الظلم، والتزيُّد، والاعتساف.

والذي يُلحظ في كثير من الأحيان أن هناك تفريطاً في هذا الجانب؛ فكثيراً ما تقرأ أو تسمع أن فلاناً انتقد فلاناً، أو اشتد عليه؛ بحجة أنه قال: كذا وكذا، فرماه بعد ذلك بما ليس فيه، وجَرَّده من كل فضيلة، وألزمه بما لا يلزم.

ولو أنه راعى عامل الزمان، والمكان، والحال الذي قال فيه ذلك المُنْتَقَدُ ما قال ـ لربما تغير مسار الحديث.

أما إذا أُخذ كلامُه مجرداً من جميع الاعتبارات فإن ذلك مدعاة للظلم، والهضم.

واللائق في مثل هذه الأحوال أن يلزم الإنسان العدل، فلا يُحَمِّل القائل ما لا يحتمله، أو يلزمَه بما لا يلزم.

ولا مانع أن يُقْبَل الكاتبُ ويردَّ كلامه في مسألة معينة، ولا مانع ـأيضاًـ أن يُرَدَّ الكاتبُ ويقبلَ كلامه في أمر ما.

ولابد أن يراعى ـفي ذلكـ الحفاظ على أقدار الرجال، وأن يراعى ـأيضاًـ أَتْباع ذلك الرجل الذي انْتُقِد؛ فإذا كان الناقد بصيراً لطيفاً يوصل الحق، ويبين الخطأ بلطف، وحسن أسلوب ـ كان ذلك

أدعى لقبول قوله، وحصول الفائدةِ المرجوَّةِ من نقده.

وإلا كان كمن يَخبِطُ خَبْطَ عشواءَ، ويركب مَتْنَ عمياءَ.

وإن من السنن الحميدة في ذلك ما يُسْلك في الرسائل العلمية الجامعية التي تبحث في مسائل، أو أعلام؛ فإن تلك الرسائل تشتمل على دراسة للعوامل التاريخية، والجغرافية المحيطة بتلك الدراسة.

كما أنها تشتمل على الظروف التي انتشرت فيها تلك المقولة، وتحتوي على الأحوال والأطوار التي مرت بتلك الشخصية إن كانت الدراسة تبحث في علم من الأعلام.

ولا ريب أن ذلك أقرب إلى روح العلم، والعدل، وأبعد عن مسلك الجهل والظلم.

٢٤ـ وتَمَاسَكْتُ

لَعَلَّ أشهرَ قصائدِ البحتريِّ سِينِيَّتُهُ التي قالها في وَصْف إيوان كسرى، وهي من القصائد التي يحفظها الطلاب في كثير من مدارس العالم العربي، ويقول طالعها:

صِنْتُ نَفْسي عما يُدَنِّس نفسي ... وتَرَفَّعْتُ عن جَدَا كُلِّ جِبْسِ

ولقد عارضها أحمد شوقي بقصيدة لا تَقِلُّ عن شأنها، وهي التي بدأها بقوله:

اختلاف الليل والنهار ينسي ... اذكرا لي الصِّبا وأيامَ انسي

ومنها قوله:

وَعَظَ البحتريَّ إيوانُ كسرى ... وشَفَتْنِي القصورُ مِنْ عَبْدِ شَمْسِ

والحديث ههنا ليس عن القيمة الفنية لقصيدة البحتري، فلقد أفاض الأدباء والنقاد في ذلك.

وإنما هي وقفة عند كلمة في البيت الثاني من تلك القصيدة؛ حيث يقول البحتري فيه:

وتَماسَكْتُ حينَ زَعْزَعَنِيْ الدهـ ... ـرُ التماساً منه لِتَعْسِي ونَكْسي

والوقفة المرادة هنا تدور حول قوله: «وتماسكت».

ومعنى البيت واضح: وهو أن الشاعر يبين أنه تماسك، وثبت على نوائب الزمان التي اعترته، وحاوَلَتْ أن تفقده توازنه، وتنال نيلها منه؛ فينزل بعد ذلك من عليائه، ويلاقي خمولاً بعد نباهة، وبطالة بعد جد ونشاط.

وهذا البيت يرشد الناصحَ لنفسه أن يتماسك، وألا يتزعزع إذا اعتَرَتْهُ الخطوبُ، وجاءت الأمورُ على خلاف ما يريد؛ فَقَدْ تفجأه مفاجآتٌ لم تكن في حسبانه من نحو الإخفاق، أو المرض، أو المصائب، أو الجوائح، أو الكلمات الجارحة، أو المواقف المثبطة، أو النقد الظالم، أو التهم الملفقة، أو ما جرى مجرى ذلك.

فإذا استسلم الإنسان لذلك، فتَثَبَّطَ عن المضي نحو المعالي، أو تراجع عما هو بصدده من الأعمال الجليلة التي ترضي الله وتنفع الناس ـ خسر خسارة فادحة.

وإنْ هو تماسك، وثبت، وصبر، وتجرع تلك المرارات ـ كانت عوناً له على المشاق، وصارت من جنده وأنصاره، فيكون بعد ذلك مستعداً لكل وارد، متأهباً لكل قاطع، فيكون ما أصابه بمثابة الأمصال التي تكسبه مناعةً وقوةً على حد المثل الصيني القائل: الضربة التي لا تميتني تزيدني صلابة.

وعلى حد قول أبي الطيب:

رماني الدهرُ بالأرزاء حتى ... فؤاديْ في غِشَاءٍ مِنْ نبالِ

فصرت إذا أصابتني سهامٌ ... تَكَسَّرتِ النِّصالُ على النصالِ

وهان فما أبالي بالرزايا ... لأني ما انتفعتُ بأن أبالي

ومن صور التماسك التي يجب على الإنسان أن يَتَمَثَّلَها ثباتُه على إيمانه ودينه، وذلك إذا حصل ما يزعزعه من نحو الشبهات المُضِلَّة،

أو الشهوات المردية؛ فيجب عليه أن يتداركَ نفسه، ويَصْقُلَ قَلْبَه بالأوبة، والمبادرة إلى التوبة، وتجديد الإيمان، وتدارك ما فَرُطَ بالأعمال الصالحة؛ فإن الإيمان يَخْلَقُ في جوف أحدنا كما يَخْلَقُ الثوب ـ كما أخبر بذلك المصطفى ﷺ ـ.

فإذا تماسك الإنسان أمام عواصفِ الشبهات، وعوارمِ الشهوات التي يبذرها، ويزيِّنها شياطين الجن والإنس ـ صار من عباد الله المتقين الذين إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون.

ومن صور التماسك المحمود حِرْصُ الإنسان على تماسك علاقاته مع أصحابه وأقاربه؛ فإذا حصل جفوة، أو تفريط، أو قطيعة، أو سوء فهم ـ بادر إلى إصلاح ما فسد، وبَذَلَ مُسْتَطاعَه في تجديد العهد، وإعادة المياه إلى مجاريها.

ومن جميل صور التماسك تماسك الأسرة مما يفرقها، ويشتت شملها من نحو النزاعات التي تحصل بين أفرادها.

وذلك باحتواء تلك النزاعات، والسيطرة عليها؛ حتى لا تُوْدِيَ بِهم إلى الشقاق، والفرقة، وذهاب الريح، وشماتة الآخرين.

ومن أروع صور التماسك تماسك الدولة والأمة مما يشتت شَمْلَها، ويفرق وَحْدَتها، ويفسد نسيجها العام، ويغري بعضها ببعض من نحو الخلافات، والفرقة التي تفرح أعداءها، وتضعف شأنها، وتصدِّع كيانها؛ فالتماسك ـ ههنا ـ من أوجب الواجبات، وأهم المهمات.

وبالجملةِ فالقواطعُ، والمصائبُ، والمضايقُ كثيرةٌ جداً.

والتماسكُ، وانتظار الفرج، ورباطةُ الجأش، وتكلُّف ذلك

يُفْضِي إلى رَوْح، وطمأنينة، وسعادة.

وملاك ذلك: الصبرُ، وطهارةُ المقاصد، وتدبر العواقب، والإنابةُ إلى الله، والاستعانةُ به، والتوكلُ عليه، وصدق اللجأ إليه؛ فذلك سر الثبات الأعظم، وينبوعه الذي لا ينضب.

٢٥ـ الجفوة العارضة

اعتدال المزاج، وترك الاستسلام للعوارض النفسية ـ خصلة عظيمة لا يُحْكِمُها إلا الكُمَّل من الرجال.

وتقلُّب المزاج، وإرخاء العنان لِمَا يعرض للنفس من عوارض ـ من صفات ذوي النفوس الصغيرة، والآفاق الضيقة.

ولكن هناك منزلة بين هاتين المنزلتين؛ حيث إن كثيراً من الناس ليس من أهل الخصلة الثانية، كما أنه يصعب عليه أن يكون من أهل الخصلة الأولى؛ فتراه معتدلَ المزاج إلى حدٍ بعيد، وتراه لا يستسلم كثيراً لعوارضه النفسية من نحو الرضا، أو الغضب، أو الملل، أو الاستحسان، أو الاستهجان.

ولكنه لا يَسْلَمُ أحياناً من عوارضٍ تَعْرِضُ له، فتكدِّر مِزَاجَه، وتُورِثُه جَفْوَةً في التعامل، وكزازةً في الخُلُق.

وهذه الجفوة العارضة لا تنقص من قدره طالما أنه لا يسترسل معها، ولا يرضى عن نفسه إذا هي أَلـمَّت به.

والذي ينبغي الحذرُ منه هي تلك الجفوة التي يسترسل صاحبها معها، ولا يحاسب نفسه أو يوقفها إذا وقع في شراكها.

فهذه الجفوة ربما أحدثت شرخاً في العلاقات العامة من نحو القرابة، أو الصداقة بسبب تلك الجفوة العارضة.

والعاقل الذي يحرص على علاقاته، وصداقاته ـ يكون مِنْ طَبْعِهِ احتمالُ الجفوة والدّالةِ، ولا يستسلم لتلك الجفوة العارضة إذا صدرت من غيره في حقه.

وفيما يلي أمثلة من هذا القبيل توضح المراد.

كثيراً ما يحدث بين الأزواج خلاف بسبب أمور يسيرة جداً، وقد تتفاقم، وتصل إلى حد الجنوح إلى الفراق.

وكثيراً ما يكون ذلك بسبب جفوة عارضة لو قوبلت بشيء من سعة الصدر وتلمُّس العذر لما آلت إلى ما آلت إليه؛ فقد يحدث كثيراً أن يأتي الزوج إلى المنزل مكدود الخاطر، منهك القوى، فيبدُرُ منه تَبَرُّمٌ، أو شكوى من كثرة طلبات المنزل، فَيُقَابَلُ من الزوجة أو أحدِ أفراد المنزل بردٍّ ما قاله، وتَبيِيْنِ أن حالهم كحال غيرهم، ولكنك -أيها الزوج- لا تحتمل ما يحتمله غيرك.

ومن هنا قد تنشأ خصومة، وقد تقود إلى عواقب وخيمة.

ولو روعيت حالته، وجفوته العارضة لربما ثاب إلى رشده بعد أن تسكنَ ريحه، وتهدأَ نفسه، ويسكتَ غَضَبُه.

وكذلك الحال بالنسبة للزوجة، فقد يحصل معها جفوة بسبب طروء الحمل، أو نزول العادة، أو التعب من جراء الخدمة في المنزل، أو صخب العيال.

وربما حصل منها رفع للصوت، أو إظهار للملل من جراء ما تلقاه من نصب، ومشقة.

فإذا قَدَّر الزوجُ تلك الجفوة العارضة، وقابلها بهدوء، وتَلَمُّسٍ للعذر، أو أرجأ الرد إلى حين آخر، أو ذكّرها بأياديها البيضاء، والأجور المترتبة على ذلك- لربما زالت عنها تلك الجفوة، ورجعت

الزوجة إلى رشدها، وزادت من نشاطها وتَدَفُّعها.

وإذا كانت الأخرى كانت بوابة للمشكلات والأزمات.

وإذا وافقت تلك الحال من الزوجين؛ بحيث يكون كلٌّ واحدٍ منهما يعاني من الآخر دون أن يتعاذرا ـ ثارت الثوائر، وهنالك وافق الشَّنُّ الطَّبَقَ.

وهكذا الحال بالنسبة للطلاب، والمعلمين، والرؤساء، والمرؤوسين؛ فلو قَدَّر كلُّ طرفٍ ظَرْفَ صاحبِه؛ فالتمس له العذر، ودفع بالتي هي أحسن ـ لكانت العاقبة حميدة للطرفين.

وإذا كانت الأخرى كان الأمر كَمَنْ يُطْعِمُ النارَ جَزْلَ الحطبِ.

هذا وإن السيرة النبوية حافلة بما يعلي منار تلك الخصلة ـوهي احتمال الجفوة العارضةـ.

والأمثلة على ذلك كثيرة جداً، ولعل من أجلاها ما جاء في صحيح البخاري(٥٢٢٥) عن أنس رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ عند بعض نسائه، فأرسلت إحدى أمهات المؤمنين بصَحْفَة فيها طعام، فضربت التي النبي ﷺ في بيتها يَدَ الخادمِ، فسقطت الصَّحْفَة، فانفلقت، فجمع النبي ﷺ فِلَقَ الصحفة، ثم جعل يجمع فيها الطعام الذي كان في الصحفة، ويقول: «**غارت أمكم**».

ثم حبس الخادم حتى أتى بصحفة من عند التي هو في بيتها، فدفع الصحفة الصحيحة إلى التي كُسِرَتْ صحفتها، وأمسك المكسورة في بيت التي كَسَرَت.

ففي هذا الحديث راعى ـعليه الصلاة والسلامـ تلك الجفوة

العارضة الحاصلة بسبب الغيرة، ولم يقابلها بجفاء وغلظة، وإنما عالجها بهدوء وسكينة، ودَفْعٍ بالتي هي أحسن، ولم يزد على أن قال: «غارت أمكم».

ثم شرع بعد ذلك في إصلاح ما يمكن إصلاحه.

فهذا مثال من السيرة النبوية، ونظائره كثيرة جداً.

هذا وإن للجفوة العارضة أسباباً تهيجها، وتبعث عليها، ومن ذلك: الأرقُ، والملل، وكثرة الجدال، والزحامُ، وشدة الجوعِ، وشدة الحرِّ، وشدة المرضِ، وكثرة الأعباء، وتوالي المشكلات.

كما أن هناك أوقاتاً يحصل للإنسان فيها نوع من الجفاء، وتكدر المزاج.

ومن ذلك وقت القيام من النوم؛ فالإنسان يصيبه في ذلك الوقت انقباض، وتكدر، وضيقُ صدرٍ، وقليلٌ من الناس من يستطيع السيطرة على مزاجه في ذلك الوقت.

بل إن ذلك لَيُعَدُّ من جملة مناقب من يسيطر على مزاجه، وينهض بنفس مطمئنة حال القيام من النوم.

ثم إن الجفوة قد لا يكون لها سبب أحياناً، وإنما هي ذهول يعتري الإنسان؛ فيحصل معه جفوة في بعض الأحيان، فَيَلْقَى خاصةُ أصحابِهِ بسببها ما يلقون؛ لكن لا ينبغي أن يحملوا ذلك مَحْمَلَ القطيعةِ والهجران.

وأذكر في هذا السياق أن الأمير شكيب أرسلان رحمه الله قد مرت به تلك الحال مع صديقه الشاعر أحمد شوقي؛ فقد جاء في كتابه «شوقي أو صداقة أربعين سنة» ص٣٨ ما نصه:

(جفوة لا سبب لها)

وتحت هذا العنوان قال الأمير: «مضت عدة أسابيع على مقامي بمصر قبل أن ذهبت[1] إلى بُرْقَةَ ولم أشاهد شوقي.

وقد كنا أخوين، ونحن على البعد، وكنت «جلاداً لأعداء شوقي» وكنت أسترخص كل غال ـومن جملة هذا الغالي صداقة مثل اليازجي- في سبيل مرضاته، فما عدا مما بدا؟

الجواب أني لا أعرف سبب تلك الجفوة، ولا موجب تلك النَّبْوَةِ إلى هذه الساعة؛ أغصَّ شوقي بمكاني من الجناب الخديوي، وكثرة ما رأى من احتفال سيده بي؟ أم جاء مَنْ ألقى في أذنه أني سأزاحم في محله من القرب للجناب العالي؟ أم هو رجل له بَدَواتٌ وغَفَلاتٌ بينما هو حَفِيٌّ بِخِلاَّنه، وفيّ مع إخوانه إذا هو معرض عنهم، متهاون بحقوق المودة التي بينه وبينهم؟ أم هو شاعر لا يتقيد بشيء ولا يريد أن يكون خاضعاً لتكاليف الحياة حتى مع أعز أصحابه؟ أم هناك عذر آخر لا أعرفه ولا يهمني أن أعرفه؟

كنت نازلاً ضيفاً على صديقي المرحوم أحمد بك العريس من أعيان بيروت، ومن مأموري المعية الخديوية، وكان منزله في العباسية، فلما وصلت إلى القاهرة جاء إلى الأوتيل الذي نزلت به، وأبى أن يتركني فيه ليلة واحدة، وسار بي إلى منزله، وأبقيت الرفاق الذين كانوا معي في أحد الفنادق، وكنت أختلف كل يوم إلى إدارة المؤيد؛ فأكتب مقالة افتتاحية.

وهكذا كان دأبي مدة الأربعين يوماً التي سبقت سفري إلى برقة.

---

١ ـ هكذا وردت، ولعلها: قبل أن أذهب.

وقال لي أحمد بك العريس ذات يوم: إنني قابلت شوقي، وقلت له: أفلا تدري أن أخانا الأمير هو هنا؟ قال: نعم، قال العريس: فهل اجتمعت به؟ قال شوقي: كلا لم أشاهده حتى الآن، ومرادي أن أقوم له بحفلة تكريم في منزلي، ولما كان ناظر المعارف غائباً هذه الأيام فقد أرجأت هذه الحفلة إلى ما بعد رجوعه.

فقال له العريس: الرجل لا ينتظر منك حفلة تكريم، وليس ما بينكما من الإخاء مما يوجب هذه المراسيم، ولكن الأشبه بك والأليق بوفائك أن تذهب وتسلم عليه، فقال له شوقي: سأفعل، إلا أنه مضت مدة ولم يأت لزيارتي.

فأخذت القلم في أحد الأيام وكتبت إلى شوقي:

أحن إلى شوقي وأهوى لقاءه ... وأصبو ولكن ما إليه وصول

ويخبرني قلبي بأن فؤاده ... كما كان لكن يعتريه ذهول

ووالله ما يممت مصر وفوقها ... يدانيه عندي صاحب وخليل

فشوقي إلى شوقي بقدر محبتي ... وعندي حساب للعتاب طويل

فما أجاب شوقي على هذا الخطاب لا بشعر، ولا نثر، ولا بفعل.

ولكنه بقي يقول لأحمد العريس: إنه يريد أن يعمل لي حفلة تكريم.

وفي أحد الأيام زارني الأخ خليل بك المطران وهو من العقل، وكرم الأخلاق، ورعي الذمام بالمقام الذي يندر بين الإخوان، وكان يزيدني حباً له ما كان بيني وبين عمه حبيب باشا المطران من عيون

أعيان سورية، وبيني وبين أولاده، ولا سيما ندره بك المطران ـ مِن ذمام قديم، وود متين.

وكنت أعلم ما بين خليل وشوقي من المودة؛ فكاشفته بما في نفسي من أمر شوقي وقلت له: إنه لا شيء يمكنه أن يكدر صفو ما بيني وبين شوقي من المودة، ولكني أصبحت أستحي من الناس أن يعلموا بأني هنا من شهر، وأن شوقي لم يتكرم بزيارتي، والقادم يزار.

فقال لي الخليل: لا يكن في نفسك شيء من هذه النَّبْوَة؛ فشوقي له من هذا القبيل الشيء الكثير، ولكننا نحن لا ينبغي أن نحمل ذهوله هذا على محمل الهجران» اهـ.

ثم واصل الأمير شكيب أرسلان كلامه، وبين أنه حصل بينه وبين شوقي اجتماع بعد انقطاع، وعادت بعده الأمور إلى مجاريها.

وصفوة المقال أن تقلبَ المزاجِ، والاستسلامَ للعوارضِ النفسية الحاضرة ـ سبب لضيق النفس، وفتور العلاقات.

كما أن سعة الصدر، والتماس العذر، وتدبر العواقب، واحتمال الجفوة ـ تورث العزة، والكرامة، والمحبة في القلوب.

٢٦ـ لغة الاستفزاز

الذوق، وسلامة المنطق، وكمال الأدب ـ نعمة يهبها الله لمن يشاء من عباده.

وكثافة النفس، وبلادة الحس، ونبوٌّ العبارة بلية وأيٌّ بلية.

وإن من نعم الله على العبد أن يَجْبُلَهُ على سلامة الذوق، وأدب النفس؛ فذلك عنوان سعادته في العاجل والآجل.

وإن من أعظم الآفات أن يبتلى الإنسان بقلة الأدب، وسماجة الخلق.

وإن من البلايا التي يبتلى بها بعض الناس أن يكون ثقيلاً على جُلاسه، وطلابه، وقرائه، وسائر خلطائه.

وذلك من خلال استعماله لغَةَ التعالي، والاستفزاز، وتَعَمُّده الإثارةَ، فتراه لا يحسن إلا هذا الطرازَ من الكلام، والكتابة.

ولا يراد من ذلك ما يمارسه بعضهم من النقد الهادف، والتسديد المثمر، والإصلاح المنشود؛ فذلك مطلب ملح، وغاية مبتغاة، والقائم بذلك مشكور مأجور إن ابتغى ما عند الله.

وإنما المقصود ألا يُغْفِلَ مَنْ يمارس تلك الأعمالَ جانبَ الذوق، بحيث لا يبالي بمشاعر الآخرين، ولا يأنف من مواجهتهم بما يكرهون؛ بحجة أنه يروم الإصلاح.

ولا ريب أن مراعاة المشاعر مطلب اجتماعي، ومقصد شرعي؛ فالناس يحبون لِينِ الجانب، وبسط الوجهِ، والقلوب تُقْبل على من يتواضع لها، وتَنْفُر ممن يزدريها، ولا يُكَلِّمها إلا من عَلُ.

ولا يكفي في باب النقد أو الإصلاح أن يكون في يد القائم بذلك حجة يلقيها في أي صورة شاء.

بل اللائق في ذلك الشأن أن يصوغ كلامه بطريقة تكون أقرب إلى القلوب والقبول.

ومن الوسائل التي لها أثر في تَأَلُّف الناس، وتهيئتهم إلى قبول الإصلاح ـ بسط المعروف في وجوههم، والإحسان إليهم بأي نوع من أنواع الإحسان؛ فإن مواجهتهم بالجميل، ومصافحتهم براحة كريمة، والتحدث إليهم بلغة محببة ـ قد يعطّف قلوبهم نحو المتكلم أو الكاتب، ويمهد السبيل لقبول ما يَعْرِضُه من النصيحة، أو النقد.

والنفوس مطبوعةٌ علَى مصافاة من يُلبسها نِعْمَةً، ويُفيضُ عليها خيراً، ويحسن إليها ولو بالكلام اللين.

ولهذا يحسن بالكاتب، والخطيب، والداعية، والإنسان عموماً أن يكون ليِّن العريكة، وممن يَأْلَفُ ويُؤْلَفُ، وألا يكون جافي الطبع، قاسي القلب، متعالياً على الناس.

ويجدر به أن يترفع عن العبارات المشعرة بتعظيم النفس، كحال من يكثر من إدراج ضمير المتكلم (أنا) أو ما يقوم مقامه كأن يقول (في رأيي)، أو (حسب خبرتي)، أو (هذا ما توصلت إليه) ونحو ذلك.

وأَجْدَر بالبعد عن ذلك ما كان فيه تفخيم للنفس كالإتيان بضمير الجمع، كأن يقول: (هذا رأينا) و(هذا ترجيحنا)، أو (هذا ما توصلنا إليه).

ومن ذلك أن يكرر كلمة: (نَقُول) و(قلنا) ونحو ذلك من

العبارات الفجة التي تنم عن نقص وغرور، خصوصاً إذا صدرت ممن ليس له مكانة.

فهذا كله مجلبة لتباعد الأنفس، وتناكر الأرواح، وقلة التأثير.

وبدلاً من ذلك يحسن به أن يستعمل الصيغ التي توحي بالتواضع، وعزو العلم لأصحابه، كأن يقول: (ويبدو للمتأمل كذا وكذا)، أو يقول: (ولعل الصواب أن يقال: كذا وكذا)، أو يقول: (والأظهر، والأقرب)، ونحو ذلك من العبارات المشعرة بالتواضع، واهتضام النفس.

ولا بأس باستعمال العبارات المشعرة بالتعظيم إذا صدرت من ذي المكانة والقدر خصوصاً إذا تكلم باسم المؤسسة أو الجهة التي ينتمي إليها.

وكل ذلك راجع إلى ذوق الملقي أو الكاتب، وتَلَقِّي المخاطَبين أو القراء لذلك بالقبول.

قال ابن المقفع: «تحفظ في مجلسك وكلامك من التطاول على الأصحاب، وطبْ نفساً عن كثيرٍ مما يعرض لك فيه صواب القول والرأي؛ مداراةً؛ لئلا يظن أصحابك أن دأبك التطاول عليهم».

وقال الشيخ عبدالرحمن السعدي رحمه الله: «واحذر غاية الحذر من احتقار من تجالسه من جميع الطبقات، وازدرائه، أو الاستهزاء به قولاً، أو فعلاً، أو إشارةً، أو تصريحاً، أو تعريضاً؛ فإن فيه ثلاثة محاذير:

أحدها: التحريم والإثم على فاعله.

الثاني: دلالته على حمق صاحبه، وسفاهة عقله، وجهله.

الثالث: أنه باب من أبواب الشر، والضرر على نفسه».

ومن صور الاستفزاز المقيتة استعمالُ لغةِ التأليب، وإلصاقُ التهم بالأبرياء، وحشرُهم في زاوية ضيقة، فذلك عنوان الظلم، والجهل.

ومن صور الاستفزاز ما يمارسه بعض الناس ممن يفتح عليه في باب من الأبواب التي يرى أنها نافعة مجدية؛ فتراه بعد ذلك يكلف الناس شططاً؛ حيث يريد منهم أن يوافقوه، وأن يسيروا على قوله فيما ارتآه.

وما ذلك الصنيع بالمحمود في كل حال؛ فالناس مواهب ومشارب، وقد يفتح على هذا ما لا يفتح على غيره والعكس؛ فجدير بمن فتح عليه في باب ألا يكلف غيره ولُوْجَهُ خصوصاً إذا كان ذلك الباب مما تختلف فيه الأنظار.

ومن صور الاستفزاز التي يمارسها بعض الكتاب، أو المتكلمين ـ كثرة اللوم والعتاب، وتحميل الناس ما لا يحتملون، فذلك مما يزيدهم بعداً ونفوراً.

ولقد كان النبي ـعليه الصلاة والسلام ـ يراعي المشاعر، ويأخذ في التأديب والزجر عما لا ينبغي مأخذاً لطيفاً، حتى إنه لا يوجه الإنكار إلى الرجل الذي صدر منه الخطأ بعينه ما وجد في الموعظة العامة كفايةً من باب قوله: «ما بال أقوام».

جاء في الصحيحين عن عائشة ـرضي الله عنهاـ قالت: صنع النبيﷺ شيئاً فرخَّص فيه، فتنزه عنه قومٌ، فبلغ ذلك النبي ﷺ فخطب، فحمد الله، ثم قال: «ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه؟ فوالله إني لأعلمهم بالله، وأشدهم له خشية».

وقد بوب البخاري رحمه الله لهذا الحديث قائلاً: «باب من لم يواجه الناس في العتاب».

وشكى إليه رجلٌ رجلاً حين كان يطيل بهم صلاة الغداة، فاشتد غضبه ﷺ ولكنه احتفظ بعادته الجميلة؛ فلم يخاطب الذي كان يطيل على التعيين، بل عمم الموعظة، وقال: «أيها الناس إن منكم منفرين؛ فمن صلى بالناس فليخفف؛ فإن فيهم المريض، وذا الحاجة».

هذا هو الأصل في تعميم التوجيه، وصرف الإنكار إلى غير معين.

أما إذا احتيج إلى أن يكون الإنكار على وجه التعيين فلا بأس في ذلك، وإن كان ذلك لا يسوغ من كل أحد، ولا في حق كل أحد؛ إذ لا يسوغ إلا إذا اقتضت الحكمة ذلك، وكان ممن له منزلة، ومكانة، وكلمة مطاعة.

ولهذا خاطب النبي ﷺ معاذاً رضي الله عنه على وجه التعيين.

جاء في الصحيحين عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: «كان معاذ ابن جبل يصلي مع النبي ﷺ ثم يرجع فيؤم قومه، فصلى ليلة مع النبي ﷺ العشاء، ثم أتى قومه، فأمَّهم، فافتتح بسورة البقرة، فانحرف رجل، فسلَّم، ثم صلى وحده، وانصرف، فقالوا له: أنافقت يا فلان؟ قال: لا، والله لآتين رسول الله ﷺ فلأخبرنه، فأتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! إنَّا أصحاب نواضح نعمل بالنهار، وإن معاذاً صلى معك العشاء، ثم أتى فافتتح بسورة البقرة، فأقبل رسول الله ﷺ على معاذ، فقال: «يا معاذ! أفتان أنت! اقرأ بكذا، واقرأ بكذا»».

وفي رواية: «يا معاذ! أفتان أنت -ثلاثاً- اقرأ: «والشمس وضحاها» و«سبح اسم ربك الأعلى، ونحوهما».

وفي رواية: «فتان، فتان، فتان» ثلاث مرار أو قال: «فاتناً، فاتناً، فاتناً».

وبالجملة فإن النقد البنَّاء الهادف، والسعي إلى الإصلاح في أي شأن من الشؤون ـ من أعظم أسباب الارتقاء بالأمم؛ فهو أشبه ما يكون بالحماية للبناء الذي يُحتاج فيه إلى أن يُتعاور، ويُتَعاهد ما بين الفينة والأخرى، حتى يقوى، ويشتد.

ولا ريب أن البناء لا يكمل حُسْنُه بجودة بنائه، وتماسك أجزائه فحسب، بل لا بد له -مع ذلك- من الطلاء الجميل الذي يُظهر رونقه.

فالنقد الهادف بمثابة البناء والحماية للبناء، وحسن العرض وجماله بمنزلة الطلاء الذي يُحَسِّن صورته، ويُجَمِّلها في العيون.

٢٧ـ السرعة والعجلة

السرعة والعجلة لفظان عربيان فصيحان يردان في كلام العرب، وفي نصوص الشرع.

وكثيراً ما يحصل الخلط بين هذين اللفظين، ولعل سبب ذلك قرب كل واحد منهما من الآخر في المدلول العام.

ولكن المتأمل في أغلب ورود هذين اللفظين في كلام العرب ولسان الشرع ـ يجد أن لفظ السرعة يأتي في معرض المدح والأمر، وفي أقل أحواله أنه لا يرد في قبيل الذم.

أما لفظ العجلة فَيَردُ أغلب ما يرد في سياق الذم له، والنهي عنه، وقد يرد أحياناً في سياق الثناء.

ففي كلام العرب يَرِدُ مَدْحُ السرعة التي هي بمعنى عدم التباطؤ خصوصاً في المبادرات النافعة، والأعمال الصالحة، فيمدحون السريع في سيره، ويمدحون السريع إلى النجدة، وإسعاف المحتاج، ويذمون السرعة إذا كانت لغير الخير، كما قال أحدهم في ذم رجل:

سريع إلى ابن العم يلطم وجهه ... وليس إلى داعي الندى بسريع

وفي القرآن الكريم حث على المسارعة، وما يرادفها من ألفاظ، وفيها ثناء على مَنْ هم كذلك كما في قول الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ ﴾ وقوله: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ ﴾ وقوله: ﴿ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِ ﴾ وقوله: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ

فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ وقوله: ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾.

وفي السنة المطهرة يَردُ لفظ السرعة، أو ما يُرادِفُها مثل: «بادروا بالأعمال..».

ويَردُ أنه ﷺ خرج مسرعاً يجر رداءه.

أما العجلة فتَردُ ـكما مرـ في أغلب أحوالها في معرض الذم لها، والنهي عنها، فيرد في كلام العرب ذم العجول، ويقولون في أمثالهم: «الخطأ زاد العجول».

ويَردُ ذمُّ العجلة ويسمونها: «أم الندامات».

ويرد في القرآن ذم العجلة والنهي عن الاستعجال، كما في قوله ـتعالىـ: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ وقوله: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ﴾ وقوله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ وقوله: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ وقوله: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ وقوله: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ﴾.

وسمى الله الدنيا «عاجلة» قال ـعز وجلـ: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾.

وفي السنة: «**ولكنكم قوم تستعجلون**».

وقد ترد العجلة قليلاً في غير موضع الذم أو النهي، كما في قوله ـتعالىـ: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾.

وعلى كل حال فإن العجلة الحاملة على الطيش، وإرباكِ العمل، وقلةِ إتقان الصنعةِ، والجوابِ دون نظر في العواقب، وإبداءِ الرأي دون تروٍّ وتؤدة ـ كل ذلك داخل في قبيل المذموم والتفريط، والرذائل.

وأما السرعةُ بمعنى عدم التباطؤ في إنجاز العمل مع الضبط والإتقان، والسرعةُ في المشي سرعةً مقبولةً لا طيش فيها، والسرعةُ في إغاثة الملهوف،

وتنفيس كربة المكروب، والمبادرة إلى العمل الصالح في وقته - فكل ذلك وما جرى مجراه داخل في قبيل الحزم والفضائل.

ولهذا كان الناس يتفاضلون في المعاني السابقة من جهة السرعة إليها، والتباطؤ عنها.

ومن خلال ما مضى يتبين لنا خطأ من يصف بعض الناس بالحرارة، والعجلة، والسرعة بإطلاق دون تفصيل؛ إذ قد تكون حرارته حاملة على المبادرة، والحرص على إنجاز العمل دون إخلال أو تفريط.

وقد تكون حرارتُه حاملةً على الإحراق، والطيش، والإفساد؛ فالأولى داخلة في قبيل المحمود، والثانية داخلة في قبيل المذموم.

٢٨ـ تجربته مع الصوم

يحدث أحدهم عن نفسه، فيقول: إنني أرغب كثيراً في الصوم، وأعاني من جراء ذلك معاناة شديدة.

ولا أعني بذلك صيام رمضان، ولا الست من شوال، ولا صيام التاسع من ذي الحجة، ولا صيام عاشوراء، ويوماً قبله أو بعده؛ فذلك قد لا يشق علي كثيراً.

ولكني أعاني في غير ذلك؛ حيث أرغب ـولو بعض الأحيانـ في صيام الاثنين والخميس، أو صيام ثلاثة أيام من كل شهر، أو سرد بعض الأيام خصوصاً في فصل الشتاء، أو أيام الإجازات.

يقول: وكان من أكثر ما يمنعني من ذلك شعوري بأنني لن أكمل صيام ذلك اليوم الذي أريد صيامه بسبب خوفي من أن أصاب بالصداع، والإعياء.

فكنت أعالج ذلك من نفسي بأن أقول: ما المانع من أن أصوم، وإذا شعرت بصداع أو شدة إعياء أفطرت؛ فالأمر واسع ولله الحمد.

يقول: فأخذت بهذه الطريقة، وصرت أغلِبُ نفسي أحياناً، وتغلبني أحياناً، وأفطر أحياناً ولي مسوغ في شدة الإعياء أو الصداع.

وبعد فترة من هذا النزاع قلت لنفسي: ألستُ أصومُ رمضان مهما كانت الظروف، ومهما كان الصداع أو الإعياء؟

ألم أُوَطِّنْ نفسي على صيامه، وصيام بعض الأيام الفاضلة مهما كانت الأحوال؟

هل ضرني ذلك شيئاً؟ هل احتجت إلى الإفطار في يوم من أيام

رمضان إلا في قليل نادر جداً؟

ألم أكن أصوم حتى في السفر؟

ثم إن فئاماً من الناس يسردون الصوم؛ فبماذا يزيدون عني؟

فكان ذلك الحديث النفسي يبعثني على الاستمرار والمجاهدة.

ولكن بقيت عقدة الخوف من الصداع والإعياء.

فقلت في نفسي: وماذا يضير إذا شعرت بنوع من الإعياء أو الصداع؟ أليس ذلك يأتيني ولو لم أكن صائماً؟

وبعد أخذ ورد وجدت أن ما يعتريني، ويعتلج بخاطري إنما هو مجرد أوهام؛ فصرت بعد ذلك أبادر إلى الصيام، ولا أصاب بشيء من ذلك -في الغالب-.

وإذا أصبت بشيء منه خصوصاً قبل الظهيرة أو بعدها بقليل أصبر عليه قليلاً، ثم يزول، أو يخف، فإذا جاء وقت الإفطار فرحت فرحةً تُنسي كلَّ ألم.

وبعد ذلك أدركت أن الوهم الذي سيطر عليّ، وأن الخوف الذي صدني عن خير كثير يمكن تلافيه؛ حيث صار الصيام سهلاً عليَّ متى أردته.

ومن تجربتي مع الصوم أن كنت أحرص على السحور، وأستحضر بركته؛ فتناول السحور -ولو قل- يمنحني مزيداً من القوة، والنشاط.

وكذلك كنت أستحضر فرحة الإفطار التي تُنسيني كل تعب وألم؛ فصار ذلك يبعثني إلى الصوم.

وبعد فهذه التجربة من ذلك الرجل لها حظها من النظر؛ حيث يمكن طَرْدُها في كثير من الأمور التي لا يمنع من الإقدام عليها سوى الخوف الوهمي الذي يصد الإنسان عن خير كثير.

وإذا وفّق الإنسان للصوم وفّق لخير كثير، وأجور عظيمة؛ فالصوم مما تُرفع به الدرجات، وتُحط به السيئات، ويزيد الإيمان، ويُغاظ الشيطان، وليس هذا مجال التفصيل في ذلك(١) فاستحضار تلك المعاني من أعظم الدوافع للصوم.

ثم إن كثيراً من الناس يبحث عن الصحة والسعادة، وإن من الأسرار والفوائد التي ينطوي عليها الصوم حصول الصحة العامة؛ فإن للصوم فوائدَ لا تحصى على صحة الأبدان، خصوصاً إذا اتَّبع الصائمُ النهجَ السليمَ في صيامه، وذلك من ناحية الاعتدال في مطعمه ومشربه، فللصوم تأثيرٌ عجيبٌ في حفظ الجوارح الظاهرة، والقوى الباطنة، وحِمْيَتِها عن التخليط الجالبِ لها الموادَّ الفاسدة، التي إذا استولت عليها أفسدَتْها، واستفراغُ الموادِّ الرديئة المانعةِ لها من صحتها.

ولقد أطنب الأطباء في ذكر فوائد الصوم، ومما قالوه في هذا الصدد: أن الصوم ينفي الفضلاتِ المتعفّنةَ من المعدة والأمعاء، ويريحُ جهازَ الهضم بعض الوقت من عناء العمل؛ فليس لبعض الأمراض من علاج إلا الحِمْيَةُ، وهل الصوم إلا نوعٌ من الحمية؟ بل فوق

---

١ ـ وقد يسَّر الله لي تفصيل شيء من ذلك في كتابي: (رمضان: دروس وعبر، تربية وأسرار).

الحمية؛ فالمصاب بالتهاب الأمعاء المزمنة والتهاب القولون المزمن، يستفيد من الصوم كثيراً.

والمصاب بقصور كبدي، يستفيد من الصوم إذا اعتدل في إفطاره، وفي بعض حالات التحسس يستفيد المريض من الصيام، ويساعده تنظيم الأغذية والاعتدال فيها على ذهاب كثير من أعراض التحسس؛ إذ إن إراحة الجهاز الهضمي أمرٌ أساس، للخلاص من حالات «الحكّة» التي تنبع من بعض الأغذية.

ثم إن للصوم فائدة عظيمة على الجهاز العصبي.

يقول الدكتور محمد محمد أبو شوك في مقال له بعنوان «الصوم والجهاز العصبي»، يقول: «روحانيةُ الصومِ، وما تفيضُه من صفاءِ النفس، وتهذيب الروح، والصبرِ على احتمال المشاق، والعطفِ على الفقراء والمحتاجين، والبعدِ عن التردي في الشهوات وما تجرُّه على الفرد من ويلات، وتزكية النفس بالأخلاق الفاضلة من صدقٍ في المعاملة، وأمانةٍ في تأدية العمل، والبعد عن الغضب، والانتقام، ونقاءِ النفس من الحقد والحسد، والبغضِ للناس؛ كل هذا يُضْفي على النفس البشريةِ روحَ السلام، والمودةَ، والمحبة، والصفاء التي بدورها تؤثر على الجهاز العصبي للإنسان، والذي يهدأ الجسم لهدوئه، ويثور لثورته.

وبثورة الجهاز العصبي، تثور باقي الأجهزة، التي تحفظ للجسم كيانه.

فيا لها من حكمةٍ إلهيةٍ تجعل الصائم ـ حقاً ـ مَلِكاً في صورة

إنسان؛ ليسعد بحياته، ويسعد به الآخرون».

إلى أن يقول: «فإلى من يترددون على عيادات الأطباء؛ طلباً لدواء يذهب عنهم التوتر العصبي، والإنهاك العصبيَّ، والأرقَ، والكآبةَ، وغيرَها من الأمراض، التي تذهب بالعقول: هاكم رمضان، لو تمسكتم بروحانيته، وما يضفيه على نفوسكم من خير، لما احتجتم في يوم من الأيام، إلى ما لا نهاية له من علاج ودواء» أ.هـ.

وكثيراً ما تطالعنا الصحف، والمجلات، والدوريات بالمزيد من البحوث التي تكشف عن فوائد جديدةٍ للصوم على صحة الأبدان.

ومما يؤخذ من كلام الأطباء حول فوائد الصوم-زيادة على ما مضى-أن الصوم يفيد في أنواع من الأمراض، كالسمنة؛ فهو مفيد في تخفيف الوزن بأسرع وقت، وأيسر طريقة.

والصومُ مفيدٌ في ارتفاع الضغط الشرياني، وفي التهاب الكُلَى الحادِّ، والحصواتِ البولية، وفي أمراض الكبد، وحويصلة الصفراء من التهابات وحصوات.

وهو مفيدٌ في أمراض القلب المزمنة التي تصحب البدانة والضغط العالي.

ومفيدٌ في اضطراباتِ المعدةِ المصحوبةِ بتخمُّرِ المواد الزلالية والنشوية.

وهو مفيد في علاج الاضطرابات النفسية والعاطفية.

ومفيد في زيادة النشاط، وإبطاء السير نحو الشيخوخة.

ولقد ثبتت فوائد الصوم الصحية حتى عند غير المسلمين من الأوربيين والأمريكان وغيرهم؛ فألفوا في ذلك الكتب، وأنشأوا المصحات التي تعالج روادَها بالصيام، وظهرت لهم نتائجُ باهرةٌ تم فيها علاجُ أمراضٍ مستعصية بالصيام.

يقول بعضُ أطباءِ الإفرنجِ: إن صيامَ شهرٍ واحدٍ في السنة يذهب بالفضلات الميتة في البدن مدة سنة.

ومن أشهر المؤلفين في فوائد الصيام الصحية العالم الأمريكي «ماك فادن» زعيمُ الثقافةِ البدنية في أمريكا، وهو من علماء الصحة الكبار؛ حيث أسس مَصَحًّا كبيراً مشهوراً بالولايات المتحدة سماه باسمه، وألف كتاب «الصيام» بعد أن ظهرت له نتائجُ عظيمةٌ من أثر الصيام في القضاء على الأمراض المستعصية.

وقد قال ماك فادن وغيره: إن الصوم نافعٌ للجسم، يصفِّيه من رواسب السموم، التي تشتمل عليها الأغذية والأدوية.

أما الأمراض التي عالجها بالصيام فيقول: إنه عالج بالصيام أكثر الأمراض.

وذكر أن انتفاع المرضى بالصوم يتفاوت حسب أمراضهم، فأكثر الأمراض تأثراً بالصوم أمراض المعدة، قال: إن الصوم يسارع في شفائها، ويرى المعالِجَ به العجبَ العجابَ، وتليها أمراضُ الدم، ثم أمراضُ العروق كالروماتيزم.

وقد ذكر ماك فادن الأشخاصَ الذين عالجهم بالصوم، وذكر أسماءهم، وأمراضَهم، وتواريخَ علاجهم.

ويقول هذا المؤلف ـ أيضاً ـ: إن كل إنسان يحتاج إلى أن يصوم، وكذلك أي مريض؛ فإن الأغذية والأدوية تجتمع في الجسم، فتجعله كالمريض، بحيث تثقله، وتقلل نشاطه فإذا صام خفَّ وزنُه، وتحللت هذه السموم من جسمه بعد أن كانت مجتمعة، فتذهب عنه، حتى يصفو تماماً.

ولقد أطنب هذا الرجل في وصف الفوائد التي يجنيها الصائم من صومه، وأخبر عن نفسه أنه صام مراراً كثيرة؛ لتجديد قواه، ووجد لذلك فوائد ما كان ليجدها بدون الصيام، ولذلك ينصح الناس جميعاً بالصيام، وتؤثر عنه العبارة المشهورة: «الصوم سبب للشفاء من كل علة خابت في علاجها الوسائل الأخرى».

ومن أساطين الطب والتربية في العصر الحديث الذين استخدموا الصوم الدكتور (آلان كوت) حيث استخدم الصوم في علاج السكر، والنِّقْرس.

وكذلك الدكتور (كارلسون) حيث كانت وسيلته في تجديد الصحة، والدكتور (جيننجز) الذي كان يصفه في الحالات المرضية التي كانت تعرض له.

وكذلك الدكتور (روبرت بارتول) وهو طبيب أمريكي من أنصار العلاج الدوائي للزهري، حيث كتب يقول: «لا شك في أن الصوم من الوسائل الفعالة في التخلص من الميكروبات، ومن بينها ميكروب الزهري، لما يتضمنه من إتلاف الخلايا، ثم إعادة بنائها من جديد،

وتلك نظرية التجويع في علاج الزهري».

هذه بعض فوائد الصوم الصحية، وتلك بعض أقوال أهل الاختصاص في ذلك حتى من غير المسلمين، فسبحان الكبير المتعال؛ الذي تظهر آياته في كل حين وآن، ولا تنقضي عجائب دينه ما تعاقب الملوان ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾.

٢٩ـ برود المعاني

قبل سنوات زارني طبيب من إحدى البلاد العربية، وكان يعمل في أحد المستشفيات، وقد كان على النصرانية ودخل في الإسلام حديثاً، وكان عمره آنذاك يزيد على الأربعين سنة.

ولاحظت فيه فرحاً، ورقّةً، واستشعاراً لعظمة الإسلام، وقناعةً تامة بما جاء به الرسول ﷺ.

وكانت لديه مشكلة في علم والديه الكبيرين، وأصحابه الذين يعرفونه؛ فكان يخشى أن يتكدر والداه إذا علما بإسلامه؛ لذا صار متردداً في إخبارهم بذلك، فكان يخفي إسلامه.

وترتب عليه أن هُوِيَّته كانت نصرانية، وكان يرغب في أن تُعَدَّل إلى الإسلام.

كل ذلك من أجل أن يدخل مكة، ويؤدي الحج والعمرة.

وقد دار بيني وبينه حديث طويل حول هذا الشأن، فكان إذا جاء ذكر مكة، والكعبة فاضت عيناه بالدمع، وصار يُرَدِّد: هل يعقل أنني سأذهب إلى مكة؟ وهل أتصور أنني سأرى الكعبة وأطوف حولها؟ هل سيتم ذلك لي؟

حتى إن وجهه ليحمر من شدة ما يعتصره من حرقة، ويحدوه من أمل.

تعجبت من هذا الشعور، وكيف كانت معاني الإسلام، والمشاعر المقدسة حارَّة فوارة في حِسِّه في الوقت التي بردت فيه تلك المعاني عند كثير من المسلمين.

وبعدها بسنوات قابلت بعض المسلمين من فرنسا، وألمانيا، ورأيت عندهم ما يزيد على ما عند صاحبنا الأول من حرارة الأشواق، وصدق

المشاعر، وحضور معاني الإسلام، وقوة الاعتزاز به.

بل لقد قابلت قبل تلك المواقف بسنوات في شهر رمضان ١٤١١هـ في الحرم المكي رجلاً أمريكياً يقول: إنه يعمل في إحدى وكالات الأنباء العالمية، قابلته في صحن الحرم، وكان الوقت بعد العصر، ودار الحديث معه في جمع من الإخوة، وكان لا يركز كثيراً في الحديث، بل كان بصره مشدوداً إلى الكعبة لا يكاد يلتفت عنها يمنة أو يسرة.

فلما قال له أحد الحاضرين: ماذا تصنع؟ ما الذي يشدك إلى الكعبة؟

قال: لا أستطيع وصف هذا الشعور، ولو أن الأمريكان جاؤوا إلى هذا المكان، ورأوا الكعبة مباشرة، وما يكسوها من الجلال والروعة ـ لربما أسلموا دون دعوة.

والأمثلة على ما ذُكِرَ كثيرة جداً، وعند غيري خصوصاً ممن يمارسون دعوة غير المسلمين الشيءُ الكثير من ذلك القبيل.

والشاهد مما مضى حضور معاني القدسية، واستشعار عظمة الله، وحرارة العواطف تجاه الإسلام عند هؤلاء.

تلك المعاني والمشاعر، والعواطف التي بردت في حس أكثر المسلمين، وصارت أشبه بالأمور العادية جداً.

ولعل سبب ذلك أن كثرة الإمساس تقلل الإحساس.

لذا فإن الحاجة شديدة لاستحضار تلك المعاني، وتجديدها في القلوب.

ولعل من أعظم أسباب ذلك: التدبرَ في الآيات التي تدعو إلى تعظيم شعائر الله، واستدعاء الذكريات التي تبعث الأشواق، وتجدد معاني الإيمان؛ فإذا استشعر المسلم ـمثلاًـ فرضية الصلاة، وأنها

فرضت في السماء ليلة عرج بالنبي ﷺ وأنها صلة بين العبد وربه، وأن قَدْر الإسلام عنده كقدر الصلاة في قلبه، إلى غير ذلك من المعاني التي تدور في هذا الفلك ـ كان ذلك داعياً إلى إحيائها في قلبه وشعوره، وإعطائها حقها من التكميل والخشوع.

وقل مثل ذلك في الحج؛ بحيث يستشعر أن بطاح مكة كانت موطئ أقدام الأنبياء، وأنها أشرف الأماكن، وأحبها إلى الله، وأنه إذا سار فيها متعبداً لله صار امتداداً لتلك السلسلة المباركة، والركب الميمون من خاصة عباد الله من الأنبياء، والصديقين، والصالحين.

وقل مثل ذلك في شأن كثير من العبادات التي تنطوي على الحكم والأسرار.

وكذلك الحال بالنسبة لكثير من الأعمال التطوعية التي يبرد إحساس بعض القائمين بها من جراء طول العهد؛ فلا يكاد يستشعر عظم ما يقوم به، ولا الأجور المترتبة على ذلك.

فما أحوجنا إلى تجديد تلك المعاني، وتحريك تلك المشاعر، وألا يكون طول الأمد سبباً لبرود مشاعرنا، وتبلد إحساساتنا، وقسوة قلوبنا؛ لعلنا بذلك نبعث إلى زيادة الإيمان، وقوة الإقبال على الله ـعز وجلـ.

ولعل من أسرار تكرار بعض العبادات يومياً كالصلاة، أو أسبوعياً كالجمعة، أو سنوياً كصيام رمضان، أو عمرياً كالحج ـ أن يكون المؤمن على ذُكْرٍ من هذا المعنى، ألا وهو تجديد الإيمان، وإقامة ذكر الله، وإحياء تلك المعاني في النفوس؛ لتبقى فوارة حية؛ فإذا كان الأمر كذلك فإنه يعني حياة القلوب.

وإذا كانت الأخرى فإن ذلك يعني خمودَها أو موتَها.

٣٠- محاصرة الخطأ

الخطأ ملازم لبني آدم، والخطايا عموماً مُطَوَّقةٌ في رقابهم.

والله -عز وجل- يقول في الحديث القدسي: «**يا عبادي إنكم تخطؤون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعاً، فاستغفروني أغفر لكم**» رواه مسلم.

والرسول ﷺ يقول: «**كل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون**» رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجه، والحاكم.

والخطأ، والذنب مُقَدَّرٌ على العباد، ولازمٌ لهم، وذلك بمقتضى طبيعتهم البشرية، وبمقتضى قدر الله الكوني، وحكمته البالغة في تقدير الأشياء.

وليس الحديث ههنا عن الذنوبِ، والمعاصي، ولا عن حكمة تقديرها، ولا وجوبِ التوبة منها، ولا عن التحذير من مغبتها.

وإنما هو حديث عن التعامل مع الخطأ الذي يصدر من بعض الناس إما عن اجتهاد، أو هوىً، أو نحو ذلك.

وسواء كان الخطأ من نوع ظلم النفس القاصر، أو هو من العدوان المتعدي إلى الآخرين.

فالذي يلاحظ أن التعاملَ مع الخطأ والمخطئ يختلف باختلاف العقول؛ **فالعقول الصغيرة** تُكبِّر الخطأ، وتُعَمِّمُه، وتَزْهَدُ بصاحبه، وتُزهِّد به.

وربما أخطأ شخص من بلد، أو أسرة، أو قبيلة فصار ذلك سُبَّةً

لجميع مَنْ يتعلق بهم ذلك المخطئ.

وربما كان لذلك الخطأ أَلْفُ مسوغ ومسوغ، وقد يكون الذين يتعلقون بذلك المخطئ من قرابته، وأصدقائه أو أتباعه غيرَ مؤيدين له، بل قد يكونون معارضين له.

ومع ذلك فلا يقبل أيُّ عذر لأولئك من قبل بعض الناس؛ فهذا **صنيع العقول الصغيرة** التي تُعَمِّمُ، ولا تعذر.

أما **العقول الكبيرة** فإنها لا تعمم الخطأ، بل تَحْصُرُه بصاحبه، وتحاول إيجادَ المخارج له دون أن تَحْشُرَ غيرَ صاحبِ الخطأ في زمرة المخطئ سواء كانوا من أهله، أو من بلده، أو من هم على شاكلته؛ فذلك هو المسلك الأَمَمُ الراشد.

يقول -عز وجل-: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ ويقول: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ ويقول: ﴿ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا ﴾.

ثم إن **العقول كلما كَبُرَتْ**، وزادت علماً زادت رحمة وحلماً؛ فلا تكتفي بأن تحصر الخطأ في صاحبه، بل ترتقي إلى درجة أنها لا تحصر صاحب الخطأ في خطئه، بل تجعل ذلك الخطأ في دائرةٍ ضيقةٍ دون زهدٍ بصاحبه، أو جَحدٍ لفضله.

والذي يدير النظرَ في حياة الناس يجد خللاً في هذه الناحية؛ حيث يطغى الهوى أحياناً، فيغيب صوت العقل، والحكمة، والمنطق، فيقع الظلمُ، ويَسُودُ التعميمُ في الحكم.

لذلك كانت محاصرةُ الخطأ، ووَضْعُهُ في إطاره الصحيح دون وكس ولا شطط - أمارةَ عقلٍ، ودليلَ إنصاف.

وعكسُ ذلك علامةُ حُمْق، ودلالة ظلم.

والحقيقة -كما قيل- تضيعِ بين التهوين والتهويل.

وهذا مما يؤكد لنا أهميةَ العدلِ، وضرورةَ التعاملِ مع الخطأ بحكمة وعقل.

وإن من أعظم ما يُجلّي هذا المعنى غايةَ الجلاءِ ما جاء في السيرة النبوية الشريفة من آثار في هذا القبيل، ولعل أجلاها ما يكون في شأن الحدود التي أقيمت على بعضِ مَنْ صَدَرَ منهم ما يوجبها، **كما جاء في قصة ماعز بن مالك**ﷺ حيث جاء إلى النبيﷺ فقال: «يا رسول الله! طهرني، فقال: «**ويحك! ارجع فاستغفر الله، وتب إليه**».

قال: فرجع غير بعيد، ثم جاء فقال: يا رسول الله! طهرني، فقال رسول اللهﷺ: «**ويحك ارجع فاستغفر الله، وتب إليه**» قال: فرجع غير بعيد، ثم جاء فقال: يا رسول الله طهرني، فقال النبيﷺ مِثْلَ ذلك، حتى إذا كانت الرابعةُ، قال له رسول اللهﷺ: «**فيما أُطهِّرك؟**» فقال: من الزنى، فسأل رسول الله ﷺ «**أَبِهِ جنونٌ؟**» فَأُخْبِرَ أنه ليس بمجنون، فقال: «**أشَرِبَ خمراً؟**» فقام رجل فاستَنْكَهَهُ، فلم يجد منه رِيحَ خَمْرٍ، قال: فقال رسول اللهﷺ: «**أزنيت**» فقال: نعم، فَأَمَرَ به، فَرُجِمَ، فكان الناس فيه فرقتين، قائل يقول: لقد هلك لقد أحاطت به خطيئته، وقائل يقول: ما توبةٌ أفضلَ من توبة ماعز؛ إنه جاء إلى النبي ﷺ فوضع يده في يده، ثم قال: اقتلني بالحجارة، قال: فلبثوا بذلك يومين أو ثلاثة، ثم جاء رسولُ الله ﷺ وهم جلوسٌ، فسلم، ثم جلس، فقال: «**استغفروا لماعز بن مالك**» قال: فقالوا: غفر الله لماعز بن مالك،

قال: فقال رسول الله ﷺ: «**لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لوسعتهم**» رواه مسلم.

فانظر إلى ذلك العدل؛ حيث حصل التَّثَبُّتُ، وترديدُ ماعز، ولما ثبت عليه الحدُّ لم يكن ذلك ذريعة إلى الوقيعة فيه، أو تعييره وقومِه به، بل صار ذلك الاعترافُ، وتلك التوبةُ من جملةِ مناقبِ ماعزٍ رضي الله عنه.

٣١- السلامة من سلمى

سمعت أحدَهم يشتكي من حضوره أَحدَ المجالس التي يرتادها؛ بسبب ما يعانيه من تسلط أحد رواد ذلك المجلس، بحيث يكثر من التعليق عليه، والتندر والسخرية به.

وكان صاحبنا لا يدري أين يذهب إذا فارق مجلسه الآنف الذكر؛ فصار -كما يقول أبو فراس-:

وقال أصيحابي الفرار أو الردى فقلت هما أمران أحلاهما مُرُّ

وأصبح ذلك بالنسبة له بمثابة الطعام الذي لا يتلذذ به، ولا يستغني عنه، بل يتضرر من جرائه؛ إذ يصيبه فور انفضاض ذلك السامر ما يصيبه من الغم، والكدر بسبب ما يلقاه من سخرية وتندر.

وفي يوم من الأيام وقف صاحبنا مع نفسه، وقال: «ما الذي يُرَغّبني في ذلك المجلس؟ وما الذي يصبّرني على ما ألقاه من هوانٍ وخسفٍ؟ وما الذي يمنعني من مقاطعته؟ وهل ضاقت الدنيا علي؟ أليس في الناس أبدال، وفي الترك راحة؟».

وبعد أخذٍ وردٍّ قرر ترك مجلسه، وقال: «سأقاطعه ولو اضطررت إلى أن أبكي مدة جلوسهم حتى ينتهي وقت مجلسهم».

ثم ترك المجلس، واستأنف حياة جديدة، وأصحاباً آخرين، ووضع عن كاهله أعباءً كان ينوء بحملها.

يقال هذا لما يُرى من حال كثيرين ممن يتأذون من مصاحبة بعض

الناس أو مجالستهم، وهم لا يَلْقَونَ منهم إلا العنتَ، والضيق، والإهانة، والموافقة على الأخطاء، والرعونات.

ويقال -أيضاً- لما يُرى من بعض الناس الذين لا تسلم من شرهم، ولا رشق نبالهم، ولا إساءاتهم المتكررة، وإدخالِهمُ الهمَّ على قلبك.

فإذا كنت غير محتاج لصحبة هؤلاء، ولا معاشرتهم، فما الذي يحدوك إلى ذلك؟ وما الذي يمنعك من البعد عنهم؟

وهل أنت حَفِيٌّ بتعذيب نفسك وإرهاقها؟

فاللائق بك -في مثل تلك الأحوال- أن تنأى عن هؤلاء، وأن تستحضر قول الحكيم العربي:

إن السلامةَ مِنْ سلمى وجارتها ... ألاّ تمر على سلمى وواديها

وهكذا الحال بالنسبة للأماكن، والمنتديات التي تثار فيها الشهوات والشبهات، وتوصل إلى ظلمة القلب، وسوء المنقلب.

وكذلك الجدال العقيم الذي يورث العداوات، ويفرق القلوب؛ فإن السلامة من ذلك وما جرى مجراه **ألا تمر على سلمى وواديها**.

٣٢ـ نور الحقيقة وظلام الشائعة

للحق نور باهر، وجمال ساحر، ولليقين برد وسلام، وطمأنينة وراحة بال.

ولكن النفوس الناشئة في بيئة خاسرة، أو الغارقة في أهواء سافلة يقف أمامها الحق، فتخاله باطلاً، وتتعرض لها الفضيلة، فتحسبها شيئاً منكراً.

والعاقل الذي يحترم نفسه، ويسعى لراحة ضميره، وإبراء ذمته ـ لا يعدل بالحق شيئاً، ولا يبغي عنه حولاً.

ولا أريد ههنا الحديث عن مسائل الإيمان، ودلائل التوحيد التي تُسَكِّن النفوس، وتربط على القلوب، وتورثها الأنس، وحسن المآل.

وإنما أقصد من ذلك ما ينبغي أو يجب أن يكون عليه الإنسان من حرص على الوصول إلى الحقيقة في أي شأن من شؤونه، وألا يخوض في شيء، أو يبني أحكاماً على أحد دون أن يتحرى الصواب، ويتثبتَ مِنْ صحة ما يَرِدُ عليه؛ فكثيراً ما يُثَارُ جدلٌ حول شخص، أو قضية، فترى الآراء تتباين، وترى الأباطيل تنسج، وربما وقع في قلبك بغضٌ لفلان من الناس بسبب كلام سمعته عنه، أو رأيٍ نُسب إليه.

وربما ولغت في عرضه، أو جاريت من يقع فيه؛ فإذا بحثت عن الحقيقة، وكشفت عن جلية الأمر ـ وجدت أنه بخلاف ما بلغك تماماً؛ فحينئذ تندم على عدمِ التثبت، وأَخْذِكَ الأمورَ على غير حقيقتها.

بخلاف ما إذا تبينت، وتَثَبَّتَّ، وحرصت على الوصول إلى الحقيقة؛ فإن ذلك سيُفْضِي بك إلى راحة بال، وطمأنينة قلبٍ، وبَرْدِ يقينٍ.

وهذا ما يؤكد لنا ضرورة التعامل مع الحقائق؛ حتى تكون أحكامنا منضبطة، ولئلا نقع في الظلم والهضم.

ويتأكد هذا المعنى في حَقِّ مَنْ لكلامه وقلمه سيرورةٌ في الناس.

ومن كان هذا شأنه فإنه سيعيش في أمن نفسي، وسَيَقِلُّ خصومه، أو يتلاشون إلا من كان منهم معانداً أو مكابراً.

أما إذا سار الإنسان على غير دليل، وصار كحاطب ليل؛ بحيث يقبل كل ما يرد إليه، ويروي كلَّ ما يُحدَّث به ـ فليبشر بِتَشَتُّت باله، وكثرة ذنوبه، وقلة الثقة به.

وإنك لتعجب مما ترى بسبب التفريط بشأن الحرص على التثبت والوصول إلى الحقيقة؛ فكم من الناس من ألغى عقله، وصار كالإسفنجة يتشرب كل ما يقال له؛ بحيث تراه يبغض أمماً من الناس، ويرمي آخرين بكل نقيصة، وهم براء مما يلصق بهم.

والسبب أن ذلك الزاريَ الراميَ لم يُكَلِّفْ نفسه عناء البحث عن الحقيقة، ولم يجعل ما يقال له في حق فلان وفلان ـ مَحَلَّ نظر.

وإنما قَبِلَ الكلام على عواهنه، ولم يعد يبالي بعواقبه.

ولو أخذ التثبتُ والعدلُ حظه من النفوس ـ لطويت عداوات، وخصومات لا تُحصى، ولَحَلَّ محلَّها المودة، والرحمة، والراحة.

٣٣ـ وحلَّ بغير جارمه العذاب

إكرامُ المحسنِ، وعقابُ المسيء، أو علاجه، ومحاولةُ استصلاحه مطلبٌ شرعي، ومقصد اجتماعي من شأنه إصلاح الأحوال، والارتقاء بالأعمال؛ فإذا أُشْعِرَ المحسنُ بإحسانه، وكُوفئ على ذلك ولو بالكلمة الطيبة كان ذلك دافعاً له للإقبال على العمل، والمزيد من الجد والإبداع.

وكذلك المسيءُ أو المُقَصِّرُ إذا عوتب، أو عوقب ـ كان ذلك رادعاً له عن التمادي في التقصير؛ فيعان على نفسه، ويكون ذلك سبباً للرقي بأدائه.

ولكنَّ الذي يحصل أحياناً خلافُ ما ذُكِرَ؛ حيث لا يُكْرَم المحسنُ، ولا يُعاقب المسيءُ، بل قد يؤاخذ المحسنُ بجريرة المسيء، فتجد أن المُديرَ، أو المسؤولَ، أو المعلمَ، أو الوالد يَصُبُّ جامَ غَضَبِه على جَمْعٍ ممن هُمْ تحت يده، أو يعاقبهم عقاباً جماعياً، أو يحرمهم مِن امتيازٍ كانوا يتمتعون به بسبب خطأ واحد منهم أو أكثر؛ فيجني البقيةُ عاقبةَ ذلك الخطأ، ويُحْرَمُون مِنْ حَقٍّ كان لهم، مع أنهم لم يرتكبوا ما يوجب ذلك.

والأمثلة على ذلك كثيرة جداً، وإليك ذكراً لبعضها.

في كثير من الأحيان يرتكب طالبٌ من الطلاب خطأً، فيكون العقاب على الباقين، وربما أمطر المعلم وابلاً من التقريع عليهم،

وقد يكون الجاني غائباً لم يسمع شيئاً من ذلك.

وقد يقوم إمام مسجد بإلقاء كلمة عن التخلف عن الصلاة، ويكون الذين أَمَامَه من أشد الناس محافظة عليها، مع أن الذين دأبهم التخلف عن الصلاة لم يكونوا حاضرين، ولم يسمعوا شيئاً مما قيل.

وقد يكون هناك نظام في مؤسسة أو دائرة حكومية، ويشتمل ذلك النظام على شيء من التيسير؛ فيقوم بعض المنتسبين إلى ذلك القطاع بالمبالغة في استغلال التيسير؛ فيكون على حساب سير العمل؛ فتأتي العقوبة على البقية بإغلاق ذلك الباب.

وهكذا يعاقب المجموع بذنب الواحد.

بل قد يوجد في مؤسسةٍ أو دائرةٍ شخصٌ يقوم بأداء عمله أضعافاً مضاعفة، بل قد لا يستغني العمل عن ذلك الشخص، ولو غاب يوماً لربما أصيب العمل بالشلل.

وقد يوجد زميل له مقصرٌ في عمله، ولا يكاد يقوم بأدنى الواجبات التي أنيطت به.

والنتيجة أن الأول يُحَمَّل فوق طاقته، ويُستكثر منه أيُّ تقصير في أداء ما تجود به نفسه من التطوع، وتراه محروماً من الإجازات، والامتيازات؛ بحجة أن العمل لا يستغني عنه، وقد لا يلاقي أدنى شكر على ما يقوم به.

بينما زميله الكسول، المتواني، المقصر يتمتع بكل ما يمكنه من وسائل الراحة، ولا تراه يُكلَّف بأدنى عمل؛ رغبة في السلامة منه.

بل الأدهى والأَمَرُّ أنه إذا جاء التقييم الوظيفي قد يزاد في درجات

ذلك الكسول؛ حتى يغادر إلى مكان آخر يرغب فيه؛ ليُستراحَ منه.

وقد يُنْقَصُ من حق المبادر المجتهد؛ خشيةَ أن ينقل إلى مكان آخر يريده؛ فتحرم تلك الجهةُ من شهامته، وتطوعه، ورأيه.

وهكذا يُحْرَمُ مِنْ حَقٍّ له مع اجتهاده، ووجوب إكرامه بما يريد.

ولا ريب أن أداءَ العمل، والاستمتاعَ به، والحرصَ على إبراء الذمة، والتدفُّع لخدمة الزملاء، والقيامَ بالأعمال غير الواجبة ـ من شيم الكُمَّل من الرجال الذين تَشْرُفُ بهم الأعمال، وتزدان بهم الأوطان، ويأتيهم من راحة الضمير، والثناء الصادق ما هو مشاهد في العاجل.

ولهم ـبإذن الله إن احتسبوا ما يقومون بهـ الثوابُ الجزيلُ، والأجرُ غيرُ المجذوذِ في الآجل.

ولكن يبقى واجباً على من وَلِيَ ولايةً أياً كانت أن يَقْدُر الناسَ قَدْرَهم، وأن يُنْزِلَهم منازلَهم.

ويَتَوجَّب عليه ألا يُؤاخِذَ المحسنَ بذنب المسيء، وإلا كانت الحال كما قال أبو الطيب المتنبي:

وجرم جرَّه سفهاءُ قومٍ وحلَّ بغير جارِمه العذابُ

والمعنى: كَمْ جرمٍ، وربَّ جرمٍ ـوهو الذنب والخيانةـ جناه سفيهٌ، فنزل بغيره من الأبرياءِ العذابُ.

ولقد توارد على هذا المعنى الشعراء؛ فقد سبق أبا الطيبِ امرؤُ القيس إلى هذا المعنى بقوله:

وقاهم جدّهم ببني ابيهم وبالأشقين ما كان العقاب

وقال آخر:

رايت الحرب يجنيها رجال ... ويَصلَى حرَّها قومٌ بَراء

وقال آخر:

جنى ابن عمك ذنباً فابتليتَ به ... إن الفتى بابن عم السوء مأخوذ

وقال آخر:

نصد حياءً ان نراك بأعين ... جنى الذنبَ عاصيها فَلِيمَ مطيعها

وقال النابغة:

لكلفتني ذنبَ امرئٍ وتركتَه ... كذي العُرِّ يُكْوى غيرُه وهو راتعُ

وقال البحتري:

ولا عذرَ إلا أنَّ حِلْمَ حَليمِها ... يُسَفَّه مِنْ شَرٍّ جَنَاهُ خليعُها

٣٤ـ ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾

آية عظيمة تذكر بنعمة جسيمة يُستوجَب شُكْرُها، ويُستَنْكَرُ كُنُودُها. تلك هي نعمة الألفة، وتقارب القلوب، ومحبة الناس بعضهم بعضاً.

والعجيب أن كثيراً من النعم التي نَتَقَلَّبُ فيها صباحَ مساء لا نعرف قدرها إلا عند فقدها.

ومن تلك النِعم نعمةُ تآلف القلوب، وعَطْفِ بعضها على بعض، ومودة بعضها بعضا.

ولو وقفت مع نفسك، وسألتها ما الذي ألف بين قلبك وقلوبِ كثيرين ممن تعرفهم من أقارب لك، وأباعد منك ـ لأدركت أن ذلك محض فضل الله ـعز وجلـ.

ثم تأمل في السعادة التي تغمرك، والأجورِ والمصالح التي تجنيها من جَرَّاء تلك المحبة والألفة.

وإذا أردت أن تتصور عِظَمَ تلك النعمة، فاسأل نفسك: ما مصيرُك لو زالت تلك النعمةُ أو بعضُها؟

وما موقفك لو زالت تلك الألفة بينك وبين أصدقائك، أو أقربائك، من وَالِدَيْنِ، أو أولادٍ، أو إخوانٍ، أو سائر الأرحام؟

وماذا سيكون طعمَ الحياة إذا خَلَتْ من معاني الألفة؟

إنها ستكون كالملح الأجاج، وكالماء الزُّعَاق.

وإنك لترى في حياة الناس نماذج لذلك؛ حيث زالت المودة بين أناس أشد ما يكونون قرابة كالآباء مع بعض أبنائهم، وكالإخوة

والجيران والأصدقاء فيما بينهم.

وربما بُذِلَ في سبيل إعادة المياه إلى مجاريها جهودٌ، وأموالٌ، وشفاعات في غير طائل.

ومن هنا ندرك نعمة الألفة، وأنها محض فضل الله -عز وجل-.

وهذا بدوره يدعونا إلى أن نرعى تلك النعمة حق رعايتها، وذلك بالحرص على تحقيق التقوى، والبعد عن المعاصي؛ و:

إذا كنـــت في نعمـــة فارْعَهَـــا فـــإن المعاصـــي تزيـــلُ الـــنِّعم

ولهذا امتن الله -عز وجل- على نبيِّه بهذه النعمة الكبرى؛ فَقَرَنَها بِكَوْنِهِ -تبارك وتعالى- كافِيَه، ومؤيدَه بنصره، ونصرِ المؤمنين؛ فوجودُ المؤمنين تأييدٌ من الله لرسوله؛ إذ وفَّقهم لاتباعه؛ فَشَرَحَ صَدْرَهُ بمشاهدة تعاظُمِ دعوته، وتزايدِ أُمَّته، ولكون المؤمنين جيشاً ثابت الجنان؛ فجعل المؤمنين بذاتهم تأييداً.

قال الله -عز وجل-: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ (الأنفال:٦٢).

ثم قال الله -عز وجل-: ﴿وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ﴾(الأنفال:٦٣).

فاجتمعوا، وتآلفوا؛ فزادت قُوَّتُهم بسبب اجتماعهم.

ولم يكن ذلك بسعي أحد، ولا بقوةٍ غير قوة الله -عز وجل-.

والتأليف بين قلوب المؤمنين -كما يقول المفسرون- منةٌ أخرى على الرسولﷺ إذ جعل أتباعه متحابين؛ وذلك أعونُ له على سياستهم، وأرجى لاجتناء النفع بهم؛ بحيث يكونون على قلب رجل واحد.

وقد كان العرب يُفَضِّلون الجيشَ المؤلَّفَ من قبيلة واحدة؛ لأن

ذلك أبعد عن حصول التنازع بينهم.

وكما أن ذلك مِنَّةٌ من الله على رسول ﷺ فهو كذلك منة على المؤمنين؛ إذ نزع من قلوبهم الأحقاد والإحَنَ التي كانت دأبَ الناسِ في الجاهلية؛ فكانت سببَ التقاتل بين القبائل بعضها مع بعض، وبين بطون القبيلة الواحدة، وأقوالُهم في ذلك كثيرة جداً، ومنها قول أحدهم:

واحياناً على بكر اخينا ... إذا ما لم نجد إلا أخانا

وقول الفضل بن العباس اللهبي:

مهلاً بني عمِّنا مهلاً موالينا ... لا تنبشوا بيننا ما كان مدفونا

الله يعلم انا لا نحبكموا ... ولا نلومكموا الا تحبونا

فلما آمنوا بمحمد ﷺ انقلبت البغضاءُ بينهم مودةً، كما قال ـتعالى ـ: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ (آل عمران:١٠٣).

وما كان ذلك التآلف والتحاب ـكما يقول ابن عاشورـ إلا بتقدير الله ـتعالى ـ فإنه لم يحصل مِنْ قَبْلُ بوشائج الأنساب، ولا بِدَعوات ذوي الألباب.

ولذلك قال ـتعالى ـ: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (الأنفال:٦٣).

أي لو حاولت تأليفهم ببذل المال العظيم، ولو كان ذلك جميع ما

في الأرض من ذهب وفضة وغيرهما ـ ما استطعت إلى ذلك سبيلاً؛ بسبب ما بينهم من النُّفرة العظيمة، والفرقة الشديدة، وبسبب كفرهم، وقسوة قلوبهم، واختلاف آرائهم.

ولكن الله ألف بينهم بعزته وقدرته؛ فهو -عز وجل- قويُّ القُدرةِ؛ فلا يُعْجِزُه شيءٌ، مُحْكِمُ التكوين؛ فَيَجْعَلُ المتعذرَ كالأمر المسنون المألوف؛ فكان ذلك التأليفُ بينهم آيَةً من آيات هذا الدين.

فهذا سر من أسرار تلك الآية العظيمة يتبين من خلاله عِظَمُ شأن تآلف القلوب، وأثرُه في ترابط المسلمين وسعادتهم، وعِزَّتهم، وهيبتهم، وتقوية آصرتهم.

٣٥ـ دمعة على الشيخ بكر أبو زيد

كنت في مكة يومَ السابع والعشرين من شهر الله المحرم عام ١٤٢٩هـ.

وقبيل صلاة العصر من ذلك اليوم وصلتني رسالة جوالية من فضيلة الشيخ القاضي العالم سليمان بن عبدالله الماجد -حفظه الله- تفيد أن صاحب المعالي الشيخ العلامة الدكتور بكر أبو زيد قد توفي؛ فاتصلت على الشيخ سليمان؛ لأتأكد من الخبر، فأكده لي، ثم انهالت بعد ذلك الرسائل، والاتصالات تعزي بالشيخ.

حينها استرجعت، وترحمت على شيخنا المبارك، وطافت بي الذكريات التي ارتسمت في ذهني مما جرى بيني وبين الشيخ من اللقاءات الجميلة، والليالي السعيدة التي قُدِّر قضاؤها معه على الود، والصفاء، والعلم، والأدب، والنادرة اللطيفة، والفائدة البديعة، والمسامرة الماتعة؛ فلقد كان رحمه الله حلو المجالسة، حسن المحاضرة، سريع البديهة، حاضر النكتة، يَسْبِيكَ في حديثه، ويأخذ بمجامع قلبك.

ولا تكاد تفتح باباً من أبواب الحديث في العلم، أو الأدب، أو المروءات، أو الحياة العامة إلا ويتهدَّر كالبحر إذا اضطرب.

وقد يَسْتَغْرِبُ ذلك بعضُ من لا يعرف الشيخ عن قرب؛ لأنه رحمه الله قد لا ينطلق كثيراً مع من لا يعرفه.

ولكنه إذا عرف أحداً، ووثق بمودته، أو كان في مجلسِ مَنْ يأنس بهم ويأنسون به ـ رأيت إنساناً آخر قد لا يخطر بالبال؛ من حيث السهولة، والدماثة، والتواضع، والرقة، والسماحة، وصدق العاطفة،

وحسن الحديث والاستماع.

ولقد يسَّر الله لي التعرف على معاليه قبل سنوات من وفاته، وحصل من جَرَّاء ذلك لقاءات كثيرة من غير الاتصالات الهاتفية المستمرة، وتشرفت بزيارته في منزله في الرياض والطائف مراراً، وتكرم بزيارتي في منزلي في الزلفي مرتين، ووعدني بزيارات أخرى، ولما قلت له في آخر زيارة عام ١٤١٧هـ إن المشايخ وأهل العلم يعتبون علي؛ لعدم علمهم بزيارتك ـ وعدني بزيارة قادمة لهم، ولكن حال الجريض دون القريض؛ حيث أصيب بمرضه الذي عانى منه طويلاً؛ فأسلمه إلى المنية.

ومما أذكره ويحضرني الآن مما جرى في تلك اللقاءات أنه في يوم من الأيام أراد المجيء إلى الزلفي، وكنت في الرياض؛ فصحبته وكان في صحبته جاره الشيخ الدكتور عبدالوهاب الطريري ـحفظه اللهـ وكان ذلك على سيارة الشيخ بكر، فطلبت منه أن يسمح لي بقيادة السيارة، فأبى، فقلت له: لا يليق بي أن أكون راكباً، وأنت على جلالة قدرك تقودها؛ فأبى، وواصل السير حتى وصلنا الزلفي، وقد انقضى ذلك الطريق الذي يبلغ ٢٨٠كم دون أن نشعر بالمسافة.

وفي يوم الأربعاء ١٤١٧/٢/٦هـ تكرم فضيلته بزيارتي في منزلي، فألقيت بين يديه تحية فطيرة مرتجلة قلت فيها:

أقبل البِشْرُ والسرورُ أطلاّ ... كابتسام الصباح لما تجلى
شَعَّ في أرضنا ضياءٌ موشّى ... من عبير العلوم ورداً وفُلا
يا قدوماً مباركاً من عظيمٍ ... أرقص الكونَ فرحةً حين حَلا

ما راى الدهرُ مثلك اليوم حبراً في ذراع الزمان أصبحت نصلا
انت للناس روضة ونمير فإذا النفس اجدبت كنت وبلا
انت في ساحة البيان إمام فهنيئاً لمن وراءك صلَّى
فلكم في البَيَان درّ نضيد ولكم في العلوم قِدح مُعلَّى
يا ابا عبدالله في القلب ودٌّ كان كالشُّهْدِ فاغتدى منه أحلى
قد كتمنا الغرام دهراً فلما برّح الشوقُ لم نُطِقْ منه حمْلا
فاعذر الحرف حين يبدو رويّاً ناحل الجسم فالهوى منه أعلى
لم يخن عهده القصيد ولكن كنت أعلى من القصيد محلا
كلما طرّز اليراع حروفاً ردّدَ الطّرْسُ فيك أهلاً وسهلا

وكلما انتهيت من بيت ردد آخر كلمة منه، ولعله أراد أن يفرحني، وإن لم يكن لتلك الأبيات رونق البلاغة.

وفي يوم من الأيام زرته في الطائف مع بعض الإخوة في منزله، وكان مما دار من الحديث أن طلبنا منه إلقاء محاضرة في الزلفي، فاعتذر، وقال: «أنا لم يفتح علي في باب الدروس والمحاضرات، ومن فتح عليه ذلك فهو على خير عظيم، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء».

وفي منتصف ربيع الثاني من عام ١٤٢٠هـ كنت في الطائف، فاتصلت به، وقلت له: هل أنت في الطائف؟ قال: نعم، فقلت: أنا في الطائف وأريد أن أقبل الحجر الأسود قبل مغادرتي ـ وأعني بذلك رأسه ـ.

فضحك رحمه الله كثيراً، وقال: أين أنت؟ فقلت: بل أين أنت؟

فقال: لا، أنا سآتيك، أنا في المنزل وحدي، وسآخذ عشاءً، وآتيك، ونذهب إلى أحد الأماكن نجلس فيه، فجاء، وذهبنا إلى مكان واسع قرب مصلى العيد في الطائف، وجلسنا نتجاذب أطراف الحديث حتى منتصف الليل دون شعور بالوقت، حيث كان الحديث عفوياً ماتعاً؛ فانظر إلى هذا التواضع الجم.

وكان أغلب الحديث عن سماحة الشيخ الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله حيث كان الشيخ بكر رحمه الله يُجِلُّهُ كثيراً، ولا يَمَلُّ الحديثَ عنه.

وكان يقول: «إن من أسعد أيام عمري تلك الأيام التي قضيتها في المدينة قرب سماحة الشيخ عبدالعزيز عام ١٣٨٤هـ، حيث استفدت منه كثيراً».

وكان يقول: «سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز مفتي الدنيا، وشيخ الإسلام».

ويقول عنه: «إنه إذا كان الشيخ في مجلس هيئة كبار العلماء كنا نتكلم فيما بيننا والشيخ مطرقٌ رأسه؛ فإذا رفع رأسه أطرقنا رؤوسنا؛ هيبة له».

وقد قلت للشيخ بكر في يوم من الأيام بعد وفاة سماحة الشيخ عبدالعزيز: إنني سمعت أن بعض أهل العلم زاروك وأنت في الطائف، فألححت عليهم بالغداء أو العشاء، فاعتذروا فلم تقبل عذرهم، وقلت لهم: لما كان الشيخ عبدالعزيز بن باز حياً كنا نقبل الأعذار؛ لأن مكانه مكان الجميع، أما الآن فلا؛ فهل هذا الكلام صحيح؟ فقال الشيخ بكر: «نعم هذا صحيح».

وكان رحمه الله كثيراً ما يذكر حبه للمدينة، ويذكر أول مرة ذهب

إليها، وأنه كان ـعلى ما أظن ـ عام ١٣٧٨هـ، ويذكر كيف رجع إليها مرة أخرى، وكيف كان يتردد إليها مراراً.

وكان كثيراً ما يذكر شيخه العلامة محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله ويترحم عليه، ويذكر أخباره.

وذكر لي مرة أنه لما كان في المدينة كان هناك عالم أظنه قال اسمه: فلان الطرابلسي، ويذكر أنه كان بحراً في علوم شتى، وأنه يجيد أربعة عشر فناً من فنون العلم بالتخصص، ومن بينها علم الموسيقى.

يقول الشيخ بكر: «وقد كانت نَفْسُ ذلك العالم لا تُصاد بسهولة؛ لكبر سنه، ولظروف مرت به؛ فكنت أتحيَّن دخوله الحرم من أحد الأبواب، فإذا جلس جلست إليه، فإذا انطلق معي بدأت أسأله، وأفيد منه، وإذا رأيت مزاجه متكدراً مضيت عنه».

وكان ـ الشيخ بكر ـ كثيراً ما يذكر بالخير والإجلال المشايخ الثلاثة: العلامة التونسي محمد الخضر حسين ١٣٧٧هـ، والعلامة التونسي محمد الطاهر ابن عاشور ١٣٩٤هـ، والعلامة الجزائري محمد البشير الإبراهيمي ١٣٨٥هـ ـرحمهم الله ـ.

وكان يقول: «ما أفدت من أحد في البيان كفائدتي من هؤلاء».

ومما كان يجري بيني وبينه: الحديث عن الكتب والمؤلفات؛ فكان يهدي إلي مؤلفاته، وأرسل إليه ما أكتب، وأستشيره في ذلك.

وأذكر أنني أهديته كتاب (أخطاء في أدب المحادثة والمجالسة) فقال لي: «لقد قرأته، وأعجبني، وتطبيقه يحتاج إلى إيمان».

وقال لي: «كنت أريد أن أكتب في هذا الشأن، وأزيد عليه الأخطاء في باب الزيارة، ولكني عدلت عن ذلك لما رأيت كتابك؛ فلعلك تضيف الزيارة».

فقلت: هي على بالي، وهممت بالكتابة في ذلك، ولكن خشيت ألا يزورني بعدها أحد؛ فابتسم الشيخ رحمه الله.

وأذكر أنني كتبت كتاباً عن المعلمين، فاحترت في تسميته، واستشرته، وبعد أيام قال لي: سَمِّه (مع المعلمين) فسميته بذلك، وقلت له مداعباً: هذا على وزن البرنامج الإذاعي القديم (مع الفدائيين).

وكذلك كتاب (التوبة وظيفة العمر) ارتضى هذه التسمية وأعجبته، وكان يتمنى أن يُؤَلَّف عن التوبة بالتدريج، وما يدخل تحت ذلك من أفراد كثيرة.

وبعد: فهذه لُمَعٌ يسيرة من أخبار الشيخ بكر، وهناك الكثير مما لم يذكر، ولعل الله ييسر لذلك فرصة أوسع؛ لأن قامةً عاليةً، وقمة سامقة كالشيخ بكر لا يفي بحقها الحديثُ المقتضب؛ فهو عالم جليل، وأمير من أمراء البيان في هذا العصر الذي قَلَّت فيه الكتابات الرصينة؛ فلقد كان رحمه الله كاتباً متمكناً، موسوعياً يستجمع قواه العلمية عند الكتابة، فترى الشمول، والقوة، والجزالة في كتاباته.

وفي نهاية هذه الكلمة العجلى أشير إلى أن هناك من يرى أن انقباض الشيخ عن الناس، وبعده عن الأضواء هو المنهج الرشيد، والمسلك السديد.

كما أن هناك من يرى أن الشيخ لو تصدى للناس، وأقبل عليهم

لكان ذلك أدعى لعموم نفعه، وأكثر شحذاً لقريحته؛ إذ الناس بحاجة إلى أمثاله من ذوي العلم والبصيرة.

والحقيقة أن الجمع بين الأقوال هو الأولى؛ فالشيخ لم يكن غائباً عن الأمة، وما تحتاج إليه، بل كان حاضراً بكتاباته التي تعالج كثيراً من القضايا العامة المهمة.

أما قلة مخالطته للناس، وإيثاره البعدَ عن الأضواء فلأنه يرى أن ذلك أنسب لحاله، وقد يكون ذلك هو السببَ في كثرة إنتاجه؛ إذ لو تصدى للناس لربما قل نصيبه من التأليف.

ومع ذلك فإن الشيخ لا يُثَرِّب على من تصدى للناس، بل يرى أن ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء -كما مر-.

بل إنه من أشد المحبين، والمعجبين بسماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز.

ولا يخفى أن الشيخ ابن باز كان أكثر علماء عصره تصدياً للناس، وقياماً بالشؤون العامة والخاصة.

وختاماً أسأل الله بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يغفر للشيخ بكر، وأن يجزيه خير الجزاء على ما قدم لأمته، وأن يخلف علينا خيراً إنه سميع قريب.

٣٦- في الزوايا خبايا

في أوائل عام ١٤٢٢هـ كنت في زيارة لمحافظة حقل لإلقاء محاضرة هناك، ومحافظةُ حَقْلٍ تقع في آخر الشمال الغربي للمملكة العربية السعودية في الحدود المتاخمة لفلسطين، والأردن، ومصر.

وبعد انتهاء المحاضرة كانت جلسة عشاء على البحر؛ حيث اجتمع هناك لفيف من أهل العلم، والفضل، والتعليم.

ودارت الأحاديث المتنوعة في شؤون شتى.

وفي تلك الأثناء قالوا: إن بيننا شاعراً في هذه الجلسة؛ فسألت عنه، فقالوا: هذا الذي أمامك.

وإذا به شاب في مقتبل عمره، فسألته ما اسمك: قال: محمود ابن عودة العمراني، فسألته عن عُمُرِه؟ فقال: سبع عشرة سنة، فقلت: وأين تدرس؟ فقال: في السنة الثانية الثانوية.

ثم قلت له: هل أنت شاعر؟ فأطرق ملياً ولم يجب، فقلت: أسمعنا شيئاً من شعرك، فاستحيا، وإنما قلت له ذلك من باب المجاملة؛ إذ لم أكن أتوقع أنني أمام شاعر واعد.

وبعد إلحاح شديد أسمعني شيئاً من شعره المتنوع: الجاد منه، والهازل، والخاص، والعام، وما جرى مجرى ذلك.

والحقيقة أنني قبل أن يلقي قصائده رحمته، وقلت في نفسي: ماذا عساه أن يقول في مثل هذا المجمع وهو في حداثة سنه.

وبعد أن ألقى مجموعة من قصائده تملكني شعورٌ كبير من الإعجاب به، وبجودة شعره؛ فصار حالي كحال جرير مع عدي بن الرِّقاع؛ وذلك

لما قدم عدي إلى عبدالملك بن مروان وكان في ذلك المجلسِ الشاعران: جرير والفرزدق.

يقول جرير: لقد رحمت عدياً قبل أن يقول قصيدته، وقلت للفرزدق: ما عسى هذا القروي أن يقول في حضرة أمير المؤمنين؟

فلما بَلغ قوله في وصف قرن البقر الوحشي في بداية طلوعه:

يزجي اغنٌ كأن إبرة روقه

قال جرير: الآن وقع؛ فلما قال:

قَلَمٌ أصاب من الدواة مدادها

قال جرير: انقلبت -بعد ذلك- رحمتي له حسداً.

وأنا لما سمعت من ذلك الشاعر الصغير أعجبت بشعره، **وعلمت أن في الزوايا خبايا**، وإن لم تصل إليها عدسات الإعلام، أو أقلامه؛ فجمال الشيء فيه لا فيما يقال عنه، وليست الشهرة هي المعيار على كل حال.

ومما أَسْمَعَناه شاعرُنا في تلك الليلة قصائد تحيط في جوه الدراسي، وقصائد أخرى في أحوال الأمة العامة، فمما قال:

١ - قصيدة عنوانها: **(مذكرات تلميذ كسول(١))**

يقول فيها:

أأنجح أم أكون من الرواسبْ   لقد ضاقت بي اليوم المذاهبْ

وشَتَّتَ شمليَ التقريرُ حتى   كأني في فراش من عقاربْ

أكفكف دمعتي فَتَسِيْحُ عيني بتوكافٍ كما المزن السواكبْ
لحاك الله من تقرير شرٌ فقد كنت المسبب للمصائبْ
وقفت أخاطب الأفلاك وحدي واشكو ما لقيت وما أغالبْ
وأُخرِجُ ما بصدري من هموم فإني موجبٌ... والهمّ سالبْ!
لعمرك ما لقيت النوم كلا أقَضَّ الهَمُّ مني كلَّ جانبْ
تقول الأم: هل احببت بنتاً بنيّ أجب.. ولا تخش العواقبْ
أجبني بالحقيقة يا حبيبي سأخطبها، سأسبق كل خاطبْ
وما علمت بأني في شجونٍ من التقرير جاء بكل غائبْ
أأرسب فيك يا فيزياء عاماً فعامي ذا جدير بالتجاربْ
أأبقى ادرس الأحياء دهراً فلا والله لن أحيا كراسب
وكمياء تعاد على شفعاً سأوترها وأفحم كل كاذبْ
ولكني ضعيف في دروسي بل الدرس المقرر لا يناسبْ
فأستاذ من التدريس يشكو وتلميذ من الأستاذ هاربْ
كما قال الحكيم لنا قديماً مقولة صادق في الخير راغبْ
"لقد أسمعت لو ناديت حياً ولكن لا حياة لمن تخاطبْ"
سأحلق شاربي وأقص شعري إذا الأستاذ أمسى لا يعاقبْ
عقاب كالصواعق يصطلينا على الكفين كي ننسى الملاعبْ

طفولتنـــا.. براءتنـــا تلاشـــت   مـــن الـضرب المعـذِّبِ للجوانـبْ
لقد أصبحت أخشى من شماغي   واشـفق أن يكـون علـيَّ غاضـبْ
وأصبح كـل مـن يغـدو عريفـاً   يـسجل قـائلاً: إنـي مـشاغبْ
ولـست مـن الـشجاعة في مكـان   لكـي أقـوى علـى فعـل المقالـبْ
وداعـــاً يـــا مدارســـنا وداعـــاً   فـإني عـن حمـاك اليـوم ذاهـبْ
سأشـقى إن بقيـت فـسامحوني   وعـــذراً للمـــودع... والمعاتـــبْ

٢ـ وقال في قصيدة أخرى عنوانها: (مذكرات تلميذ كسول(٢))
يقول فيها:

إن الرســـوب مـــصيبة تتكـــررُ   في كـل عـام كـسرها لا يُجـبرُ
في كـل عـام راسـب يـا حـسرتي   إن الرياضـــياتِ هـــمٌ أكـــبرُ
والإنجليـــزي المعقّـــد إنـــه   للطالـب المـسكين مـوت أحمـرُ
مـــالي وللإفـــرنج أدرس كتـــبهم   وهـم الـذين بكتبنـا.. مـا فكّـروا
لأقطعـــن كتـــابهم وبـــشدة   إن كنـت في هـذا الـشقاء أُسـيَّرُ
يـــا أيهـــا المتفوقـــون تمهلـــوا   إنـي سأسـألكم فـلا تتـضجروا
كيف السبيل إلى النجاح بـربكم   إنـي أناشـدكم فـلا تتـستروا

إلى أن قال:

والطالـب المسكين يـدرس لا يعـي   أن الدراســة أصــبحت لا تثمــرُ

يـا أيهـا الطـلاب، عفـواً إنـني سأقول شيئاً فاسمعوا واستحضروا
إن الدراسـة أصبحت في عـصرنا عـصر التقـدم موضـة تتـأخرُ

٣ـ ومما قاله قصائد ساخرة كثيرة منها ما أسماه (**التفاتة مدرسية**) وكتب بعد هذا العنوان مقدمة يشكو فيها ـعلى عادة الطلاب ـ كثرة المواد، والرغبة في التفوق، يقول: «عجيب أمرهم والله.. كل مدرس منهم يريد منك أن تكون متفوقاً ومبرزاً في مادته، وتراه يعطيك من الواجبات والتمرينات ما لو رآه أحد لقطع أن مادته هي الوحيدة في عالم دراستك!

إنجليزي ـ حاسب ـ بلاغة ـ نحو ـ علم اجتماع ـ تاريخ ـ دراسات في العالم..

كل هذه مواد يجب أن تتفوق في كل واحدة منها.

ويا ليت شعري.. من أين آتي بعقل يفي بها إذا توافر لي وقت؟!

تعال بنا نمضي إلى الحاسب الآلي لِنَحْطِمَـهُ كـي لا يُحَطِّم آمـالي
كتـاب بـه غـثُّ الكـلام كأنـه إذا مـا قرأنـاه جرائـد بقـالِ

....

فضول العلم ليس لها دواعي وبعـض العلـم يـأتي بالـصداعِ
وبعـض العلـم يجـترُّ المآسـي وذلـك مثـل علـم الإجتمـاعِ

....

أيهـا الأسـتاذ إنـي لـست أدري مـا تقـولُ
أيهـا الأسـتاذ قـل لـي هـل أنـا حقـاً كسولُ

غـــصٌ بـــالآلام قلـــبي واعـــترى عقلـــي الـــذهولُ
كلمـــا حاولـــت فهمـــاً سُـــدَّ في وجهـــي الـــسبيلُ
إنمـــا الحاســـوب سفـــــاح وأحلامـــي القتيـــلُ

٤ـ وقال قصيدة في مادة الإنجليزي عنوانها: (ولم أكتب البرشام يوماً على كُمِّي).

مــساكين أهــل الإنــجليزيِّ إنــهم يــبيتون كــالملدوغ مِــن عِـظَم الهــمِّ
تــراهم سـكارى مَــعْ تــمام عقــولهم فــيا عــجبي مــن سـكرة الحـزن والغـمِّ
فــيا مــن رأى مــثلي أصــيب فــؤادُه بــسهمٍ إنــجليزيٍّ أصــاب ولــم يُــدْمِ
ولكـــنه أصـــمى فـــؤادي وغـــاله فــلم يــبق فــيه لِــلْمُلِمات مــن عــزمِ
تــصبرت حــتى لاتَ حــين تــصبرٍ وفـتَّ الأسـى والحـزن في اللحـم والعظمِ
فيـــا أيـــها الأســـتاذ إنـــي لــصادق فلن أُصْطَفَى يوماً سفيراً إلى العُجْمِ
لمـــاذا يـــكون الإنـــجليزي حـــائلاً لــنا عــن نــجاح تــستطير بــه أمِّــي
لماذا أكون اليوم ـ ويحك ـ مجبراً عــلى حــفظه أو فــهمه غــاية الفهــمِ
غـداً سـوف أمـشي لاختبـاريَ خائفـاً كــأني بــأرض مــهْدوها عــلى لُغْــمِ
أفــكر، لــو أنــي رسـبت فــما الــذي سـيجري وكـيف الحـال بالرجـل الشَّهْمِ
البكـــي؟ ولكـــنَّ الـــبكاءَ عـــلامة على الـضعف واستـسلام قلـبي إلى الـشؤمِ
الضـــحك مـــن حـــالي؟ ولـــكنني إذا ضـحكت سيرميني بـنقص الحِجـا قـومي

إذاً سـوف ارقـى فـوق شـرفة دارنـا   وأقـفز مـنها .. مـنهياً قـصةَ العلـمِ

ولـست ارى غـير الـممات فـهكذا   سأرضي ضميري هارباً من لظى الظلمِ

سـتقرا يـا هـذا مـع النـاس قـصتي   فـلا تَنْسبنّي يـا صـديقي إلى اللـؤمِ

انـا لـم يـكن بـالغش قـطُ تعـاملي   ولـم أكـتب البرشام يومـاً علـى كُمّي

ولـم أَرْشِ اسـتاذاً بـمال ولـم اكـن   مـن الـطالبين الـفوز بـالخال والعـمّ

لـهذا رسـبت الـيوم لـكنني عـلى   رسـوبي مـعتزٌّ وان كـنتُ فـي هـمّ

٥ ـ وقال قصيدة عنوانها : (إلى الشاعر الصغير)

ايهـا الـشاعر الـصغير تقـدم   فـالطريق الـذي سـلكت طويـلُ

إنمـا فيـه كـل خـير وهـدي   ويقـود الجمـوع فيـه الرسـولُ

لا تقل كيف أنصر الدين بالشـ   ـعر فهـذا تـساؤل مـشلولُ

إن بيتـاً تقولـه قـد يـوازي   ألـف نبـل يخـاف منـه الفحـولُ

وقـل الحـق لا تخـف مـن أنـاسٍ   همهـم في الحيـاة قـالٌ وقيـلُ!

واخـيراً خـذ مـن فـؤادي وداعـاً   سـدد الله يـا اخـي مـا تقـولُ

٦ ـ وقال ـأيضاً ـ قصيدة عنوانها : (أطفال واطفال)

يقول فيها :

اصـيب طـفل لـنا يومـاً بمـسمار   فـراعنا وتـنادى الـقوم في الـدار

واستصرخوا يطلبون العون في وجل   وأقـبل الـناس مـن اهـل ومـن جـار

هـذا يُـضَمِّد جُـرْحَ الطفـل منهمكـاً   فـي ربـطه جالـساً في ثـوب جـزار

والأم تبكي واحياناً تُقَبِّلُه تقول: لا باس كفكف دمعك الجاري

وذاك يسأل هل في الجرح من ألم والكل ما بين مهموم ومحتار

سألت نفسي وقد طاف الخيال بها عنهم بعيداً وجالت بعض أفكاري

اليس في القدس اطفالٌ يهاجمهم اعداؤهم فيردُّوهم باحجار

من يذرف الدمع يا قومي إذا جرحوا ومن يخاف عليهم لسعة النارِ

ومن يضمِّد يا قومي جراحهم او يظهر الحزن حتى لو بمقدارِ

اليس فينا قلوب كي نحس بها هذا لَعَمْرُ إلهي وصمةُ العارِ

وهكذا استمر في إلقاء تلك القصائد حتى انفض ذلك المجلس ورجعت إلى بلدي.

وبعد ذلك طلبت منه قصائده، فصار يزودني بها بين الفينة والأخرى حتى اجتمع لي منها سواد كثير يزيد على المائة قصيدة في مختلف الأغراض؛ فهو يجيد الشعر الذي يحكي جراحات الأمة، ويجيد الشعر الساخر، ويحسن التهكم ويصوغه بأسلوبٍ سلس أخاذ.

وللرثاء، والوداع، والذكرى، والشوق إلى الأحبة، والحنين إليهم، وغيرها من الأغراض ـ نصيب غير منقوص في شعره.

كما أن له تأملات، ونظراتٍ، وحكماً تَعْجَبُ من جريانها على لسانه رغم حداثة سنه.

كما أن له باعاً في شعر التفعيلة، وما يسمى بالشعر الحر.

ولقد استمرت العلاقة مع أخينا محمود، وزادت وثاقة بعد أن

انتهى من دراسته الثانوية في حقل، ثم التحق بكلية الشريعة في جامعة القصيم، وصارت بيننا اللقاءات في الجامعة في قاعات الدرس وغيرها، وفي أثناء زياراته المتكررة إلى محافظة الزلفي، أو عبر اللقاءات والمسامرات العلمية والأدبية مع الطلاب عموماً.

وما زال يقول الشعر في كل فرصة تسنح له، مع أن ذلك لم يكن ليشغله، أو يقطعه عن طَلَبِهِ العلمَ سواء في الكلية أو عبر الدروس والدورات العلمية، حتى أنهى دراسته الجامعية بتفوق، وواصل دراسته في المعهد العالي للقضاء في الرياض، ثم أنهى مرحلة الماجستير وعُيِّن ملازماً قضائياً وبدأ مرحلة الدكتوراه؛ فهو لم يتمحض للشعر، ولكنه يحمض فيه إحماضاً من وقت لآخر.

ولقد أرهفت الغربةُ شعوره، فأمدته بالكثير من المعاني، والتجارب، كما أن تَرَقِّيْهِ في العلم زادَ من ثقافته؛ فصار له من جراء ذلك قصائد كثيرة في أغراض شتى.

وإليكم شيئاً يسيراً من تلك القصائد التي تمتاز بالجزالة، والسلاسة، والعمق، والحكمة، والتجربة.

بل إنك تلحظ في بعض قصائده حكمة المتنبي، وسلاسة البحتري، وغربة أبي القاسم الشابي وحنينه.

١ ـ هذه قصيدة قالها شاعرنا لما ودع مدينة حقل متجهاً إلى الدراسة الجامعية في جامعة القصيم، وركب الطائرة، فهاجت ذكرياته، وأخذ بطاقة الصعود، وخلال نصف ساعة كتب قصيدة في تلك البطاقة، ضمنها أشواقه إلى بلده، وزفراته في غربته؛ حيث يقول:

ولقد ذكرتك في السماء معلقاً ... يـا درّتـي والقلب في خفقـانِ
فـي مـتن طـائرة كـأن جناحها ... سـيفٌ يـشقُّ الـجوَّ دون تـوانِ
والـناس مـن حـولي فإمـا نـائمٌ ... فَـدِمٌ وإمـا نـاعس الأجـفان
اما انا فقـد اسـتطار الشوقُ في ... قـلبي فـاصبح فـيه كالبركان
لم استطع كِتمانَ شوقيَ لحظةً ... هـل يقـدر المضنى على الكتمـانِ
فـارقت أحـبابي وكنت أشدُّهم ... حـزناً بـوقع مـرارة الـفقدانِ
الأنَّ فـي جـنبيّ قـلباً شـاعراً ... القـى العناء مضاعف الألوانِ؟!
واحـس بـالآلام وهـي صـغيرة ... فـكأنها تقـضي عـلى وجـداني
واذوقهـا حـيناً إذا ودّعـتُهم ... ويـذوقـها قـلبي بكـأسٍ ثـاني
ما للقريض إذا ابتسمتُ يطيعني ... وإذا بـكيتُ يـلوذ بالعـصيانِ؟!
وكـأنه لا يـلتقي والـحزن في ... نفـس امـرئٍ إلا ويـفترقانِ
يا حقل .. إني قد تركتك مرغماً ... ومـدامِع الـعينين فـي جريـانِ
ما كنت احسب ان حبك في دمي ... حتـى تـركتكِ والـفؤادُ يـعاني
حـقاً، لـقد ادركت ان مشاعري ... تَـمْتَصُّ مـنكِ حـلاوةَ الأوطـانِ
يـا حـقل فيـك مـآرِبٌ قـضّيتُها ... نـفحات ذكـراها تـهز كيـاني
يـا حـقل فـيك احـبة مـرآهمُ ... يجلو الهموم عن الفؤاد العاني
يا حقل فيك الأهل لو حاولت ان ... اصـف اشـتياقي لم يـوّف بيـاني

يا حقل فيك وفيك كل مشاعرٍ ضمّنتها حبي وبوح جناني
هذا ولمّا يمض لي من رحلتي إلا القليل فيا لطول زماني
ماذا عساي اقول للقلب الذي ما زلت اشعره بقرب مكاني
حتى أطلّ فإذ به في قفرةٍ فرداً من الأحباب والخلانِ
هذا هو البين الذي يحكون عن أفعاله بأشاوس الشجعانِ
صبراً فؤادي إنما هي مدة تمضي بلا عدٍّ ولا حسبانِ
وتعود للأحباب في حقل فكن يا قلب جلداً ثابت الأركانِ
بعد النوى يحلو اللقاء وتنقضي غصصُ العناء وتنتهي احزاني

٢- وفي يوم من الأيام وفي أول سنة دراسية له في الجامعة قابلته في الفسحة وكأنه وضع يده في جيبه، فقلت له: هل لديك قصيدة؟ فقال: لا، ولما كانت المحاضرة الأخيرة طرق علي باب القاعة، وناولني قصيدة كتبها بعد لقائي به، وهي قصيدة عنوانها: (لا شيء يجعلك عظيماً إلا ألم عظيم) يقول فيها:

قد ينفع الإنسانَ ما يكرَهْ ويفيض عذب الماء من صخرهْ
لولا المآسي والجراحُ لما اهدى إلينا شاعرٌ شِعْرَهْ
ولما افدنا في سلامتنا درساً من الأحداثِ او عبرَةْ
ولما أنسنا للحبيب إذا كان الوصال ولم نَذُقْ هجرَهْ
اوَ من يُنشَّؤ في النعيم كمن يقضي على جمر الغضا عمْرَهْ
شتان بين مجربٍ فطنٍ صَقلَتْ حوادثُ دهرِه فكرَهْ

وفــتىً يــعيش حــياتَهُ ثــمِلاً ... تــأتــي بــه وتــردُه نــظرَهْ
يــا مــن أقــضَ الــهمُّ مــضجعَهُ ... يــرعى النجــومَ ويــسكبُ العــبرَهْ
ويــظلّ فــي شــكواهُ منطرِحــاً ... ويحــسُّ أن بــقلبه جــمرةْ
إن الــذي تــشكوه مــن ألــمٍ ... وتحــسُّهُ في القلــبِ مــن حــسرَةْ
لــو كــنت تــدري مــا تــضمّنه ... مــن نعمــةٍ لعــشقت مــا تكــرَهْ
فابــسم إذا نابــتك نــائبةٌ ... واصــبر عــلى أيــامِكَ المــرَّهْ

٣ـ وقال قصيدة عنوانها: (اصقل فؤادك)

يــا غــارقاً في الهــم حتــى القُبَّعــهْ ... آلــمت قــلبك بــالهموم الموجعــهْ
مــا ضــر لــو أعفيتــه منهــا ولم ... تــثقل عــليه بمــا يــنغص مــضجعهْ
إن الــحياة قــصيرةٌ يــا صــاحبي ... لا تــجعلنْها بــالمآسي مُــترعهْ
مــا بين إغماض الجفون وفتحها ... إلا كــمــا يــعلو ابــن آدم شــرجعهْ
أيــصحُّ أن تــحيا بــحزن قــاتم ... والــكونُ حــولك وردةٌ مُتَــضَوِّعهْ
فإذا ضجرت من الحياة وضيقها ... وسئمت من كرِّ الفصول الأربعهْ
فاصقل فؤادك بالعبادة والتقى ... تجدِ السعادة نحو قلبك مُهْطِعهْ

٤ـ وهذه قصيدة قالها في حفل تخريج حفظة الصحيحين بجامع الشيخ ابن عثيمين في محافظة الزلفي ١٤٢٥/٨/٢هـ، حيث دعاه بعض أصحابه لحضور الحفل، وبينما هو في الطريق طلبوا منه قصيدة، فشرع في كتابتها، ولم يكملها إلا قبيل إلقائها بدقائق.

مــا عــلا شــعريْ ولم أزددْ بيانــا ... بــل تبــوَّأتُ مــن الحــبِّ مكانــا

لا تعـاتبني علـى شـوقيَ بـل — خذ لقلبي من شذا الزلفي أمانا
نقـشتْ في خـافقي أحرفهـا — فتغنيـتُ بـذِكراها زمانـا
بلـدةٌ طيِّبـةٌ تحكـي لنـا — قـصصَ المجـدِ وأسـرارَ عُلانـا
مـن يزرْهـا ثـم لا يكلـفْ بهـا — فاسألوا وارجـو لـه المولى جَنانـا
قلـت للبـدر وقـد راقـبني: — إنـني منـدهشٌ، قـال: كلانـا
نـضَّرَ اللهُ وجـوهَ القـومِ مَـن — حفظـوا الـوحيَ وصـانوه فـصانا
أيُّ نـورٍ شـعَّ مـن أضـلعِكم — فعرفنـا فيـه أسـبابَ هـدانا
أيُّ عـزمٍ حـلَّ في أنفـسكم — فـربحتم في ذرى المجـد الرِّهانـا
همَّـةٌ لم يـسمع الـدهرُ بهـا — وربـاطٌ صـابرٌ لا يتـوانى
حلَّقـتْ بـين الـصحيحين المُنـى — ورأتْ مـنكم بلُقياهـا افتتانـا
فـرويتم مـن معـينٍ صـادقٍ — وأخـذتم منـه للقلـبِ أمانـا
سـنَّةُ المُختـارِ أصـفى منهـلٍ — مـا اجتواهـا مجتـوٍ إلا وهانـا
أمـتي نـادتْ بنـا ذات أسـى — فـأجبتم صـوتها لمَّـا دعانـا
قلـتمُ لبيـكِ هـا نحـن هنـا — نرفـع الـدين وفيـه نتفـانى
كانبثاقِ الـصبحِ في وجـه الـدجى — يمـلأ الـدنيا ضـياءً وحنانـا
أيهـا الحفـل سـلامٌ عـاطرٌ — يمـلأ الأحنـاءَ في يـوم لقانـا
لم أكـن يـا قـوم إلا شـاعراً — شـارك الأحبـابَ قلبـاً ولـسانا

٦ـ وهذه قصيدة قالها شاعرنا في صديق يسرق من شعره، وينشره باسمه، قال:

وصـديق عاقـل يـسرق شـعري — لم أعاتبـه ولم يـشعرْ بـأمري

أســـتحي منـــه ولا يخجلـــه أنـــه يرتـــع في حُرْمـــةِ فكـــري
يتمطّـــى في ثيـــابي رافـــلاً ويُحَيِّي الناسَ من شُرفة قصري

٧ـ وهذه قصيدة قالها في نعمة الكتابة التي يبوح فيها الكاتب بمكنونه، ويفضي إليها الشاعر بشقوره[1]، يقول:

سبحان من جعل الكتابة بلسماً لجراحنـــا وأمـــدَّنا بـــالأحرف
مُتَنَفَّساً من كل ضيق مرهقٍ وسلامةً من كل هم متلفِ
تحنـو فنودعهـا ذواتَ صـدورنا وتَـــرِقُّ في أدبٍ وحـــسن تلطُّـــفِ
فإذا تَنَكَّر بالصدود أخو هوى أو خـــان حِـــبٌّ في مودتـــه تفـــي
كم ليلة عَطَفت علي ببوحها قد ذقت كأس الموت لو لم تَعْطفِ
ورشَفْتُ من سُبحاتها وجمالها يا حسن مغناها وعذب المرشفِ
لا شـــيء يفتـــنني كمنظـــرِ بيضاءَ تلمع مثلَ قاعٍ صفصفِ
مـا جئتهـا إلا وحيَّـت طلعتي هـذا مـدادُ الروحِ دونك فاغرفِ
واكتب فما لك غير شعرك هو حافظ الأسرار والخل الوفي
في ليلة ما كاد يطلع صبحها تمتـد في قلبي كحـد المرهـف
وهوىً يذيب الراسيات كتمته عن سمع كل موافق ومُعَنِّفِ

٨ـ وهذه قصيدة قالها في غدر صديق:

---

١ ـ هذا مثل عربي يقال: أفضيت إليه بِشُقوري: بضم الشين وفتحها، أي: بثي وهمي، وهو مثل يضرب في الاطلاع على مكنونات السرائر. انظر المستقصى في أمثال العرب للزمخشري ١/ ٢٧٣

إنـي ظننتـك تـستحق صـداقتي ... فوهبتك الحب العميق الصادقا
مـا كنـتَ أولَ صـاحب يغتـالني ... كلا ولا كنـتَ اللئـيمَ السـابقا
فاذهب كما ذهب الذين نسيتُهم ... مـا كنـتُ مكترثـاً بكـم او ضـائقا
لم يبـق في جـنبيَّ موضـعُ طعنـةٍ ... لكـنّ غـدرك كـان غـدراً فائقـاً

٩ـ وهذه قصيدة عنوانها: (من هموم الجامعة) وقد قالها في كشف تحضير الطلاب:

يـا لائـمي فـي كـثرة الـتفكير ... ومـعنّفي فـي أنّـتي وزفـيري
اَقْصِرْ أُخَـيَّ عـن الملام وكفَّ عن ... قـلبي بـأغلال الـهموم اسـيرِ
لـو كنت تعلم مـا يكدر خـاطري ... أو كنت تدري ما يجن ضميري
أو كنت تدرك ما يزيد لـواعجي ... لعـذرتني وجهـدت في تـصبيري
انـا طالـبٌ ومـشاكلي محـصورةٌ ... فـي دفـتر للكـشف والتحـضير
اسـهو فيحـسبني المـدرس غائبـاً ... فـضلاً عـن الإبـطاء والتـاخيرِ
فـاقول: هـا انـا ذا أمامـك جـالس ... مـا غبـت عنـك ولا أنـا بـضميرِ
فـإذا شـكوت إلـيه ذلـك ردّنـي ... فـقنعت مـنه بـخاطر مكـسورِ
حـتى إذا جـاوزت مـا وضـعوه مـن ... عـدد حرمـت وكـان ذاك مـصير
يـا أيـها الحرمـان مالـك ترتـضي ... حزنـي وتقتـل فـرحتي وسـروري
حتى لقد اصبحت فيك موسوساً ... أخشى الكرى وأزيد في التبكيرِ
واخـاف ان ينـسى المـدرس مـرةً ... إسـمي فارصـده بكـل شـعوري
واظـل ارقـب مـا يقـول بخـافقٍ ... وجـلٍ كـأن المـوت فـوق سـريري

وإذا أتـيت إلـى الـدوام رأيـتني أجـري كـفعل الخـائف المذعورِ
أنـا لـست مـجنوناً ولكـن علـتي كـمنت بـذاك الـدفتر الـشريرِ
وستـستمر وساوسـي ومـخاوفي حـتـى أَزُجَّ بـه إلـى الـتنور

١٠ ـ وهذه مقطوعة قالها في أحد أساتذته:

القلـوب الـتي تحبـك عطـشى فاسـقِها أو اعـدْ قـبراً ونعـشا
أثقلتهـا الهمـوم والـصدّ قـد طـا ل وداء الحـنين فيهـا تفـشّى
والـدواء الـذي تريـد وصـالٌ يـنقش الحـب في الجـوانح نقـشا

١١ ـ وهذه أبيات عنوانها (الحب علمني الأدب):

لا الـذكريات ولا الكتـبْ الحـب علمـني الأدبْ
هـذي القـوافي المـشرقا تُ مـن الفـؤاد الملتهـبْ
وإذا أحـب الـشاعر الـ ـملتاع جـاءك بالعجـبْ

١٢ ـ وهذه قصيدة يعارض بها أحمد شوقي في قصيدته:

رمـضان ولّـى هاتهـا يـا سـاقي مـشتاقة تـسعى إلى مـشتاقِ

فعارضه صاحبنا بقوله:

رمـضان ولّـى والـدموع بـواقي مـلء الجفـون تـسيل بالأحـداقِ
مـا إن سـعدنا باللقـاء هُنيهَـةً حتـى انقـضى وكأننـا بـسباقِ
رمـضان يـا شـهر الـصيام أحاطنـا أمـر عظـيم ينتهـي بفـراقِ
مـن للقلـوب إذا تقـادم عهـدها بالـذكر والآيـات والإشـراقِ؟!

١٣ـ وهذه مرثية في الشيخ العلامة محمد بن عثيمين رحمه الله وكان عمر الشاعر حين قالها سبع عشرة سنة.

اجعل دموعك للإسلام تنعاهُ ... ولا تقل لي بأنا قد فقدناهُ!

فاضت مشاعرنا بالحزن والتهبت ... أحشاؤنا لمصاب هل سننساهُ

مات الإمام وكم في موته عِبَرٌ ... مات الذي أصغت الدنيا لفتواهُ

إنا فقدنا وكم في الأرض من شجنٍ ... شيخاً جليلاً ركام الترب واراهُ

كم من اناس بجوف الأرض مسكنهم ... لا يذكرون وفي النسيان قد تاهوا

لكنها الشمس إن غابت فمغربها ... أمر يَهُمُّ جميعَ الخلق فحواهُ

قد مات مِنْ قبله مَنْ فقده ألم ... جرحان في القلب أواه وأواهُ

يا شيخ يا شيخ! ماذا قد دهاك الا ... ترد؟! ما هكذا يوماً عهدناهُ

يا شيخ إنا سألنا لا يجيب على ... سؤالنا غير رجع الصوت والآهُ

هلا رأيت جموع الناس تحمله ... كل يمد لنعش الشيخ يمناه

يا حامل الفقه والقرآن في زمن ... تعز فيه على الإنسان تقواهُ

لمن تركت بقايا أمةٍ لعبت ... بها الذئاب أيا شيخاً خسرناهُ

رحلت عنا ونحن اليوم في فتنٍ ... تموج كالبحر في أعتى مزاياهُ

كم موقفٍ لك في قمع الضلال وفي ... علم نشرت وكم فضل دفناهُ

ما زلت ابحث عن شك الوذ به ... إشاعة، كذب، زور، رَددْنَاهُ

حتى عجزت عن التكذيب منتحباً ... حتى تجاهل دمع العين مجراهُ

لم أعهد العين قبل اليوم باكيةً ... والدمع كان حياء القلب ينهاهُ

والآن صرت أحس الدمع في كبدي ... أيطفئ الدمع ما تذكيه ذكراهُ

١٤ ـ وهذه أبيات قصيرة مختلفة عنوانها (مدخل):

سلكت سبيل الشعر لا عن هوايةٍ ولكنني الفيتهُ مُتَنَفَّسا
أضمنه ما يستفيض بخاطري وأودعه ما في فؤادي من الأسى

....

قال قوم: أنت محظوظ بأن تكتب شعرا
ليت أنَّا مثلك اليوم نقول الشعر جهرا
قلت: ما الشعر سوى همٍّ يحيل القلب جمرا
وبقايا دمعةٍ تجري على الخدين حرّى
لو أصابتكم مآسٍ تورث الأحلام قبرا
لعرفتم كيف يملي الشعر قلبٌ مات قهرا

....

أخرجت ما في القلب من همٍّ فقالوا: أنت شاعِرْ!!

١٥ ـ وهذه قصيدة أرسلها إلى أحد أساتذته عنوانها (هذا الهزبر) قال فيها:

هذا الهزبر رأيت في نظراته معنى السموِّ وغبت في لحظاته
سمح يهاب الحاضرون خطابه وهو الذي يرديك في بسماته
الجود بعض خصاله والفضل بعـ ـض خلاله والأنس بعض صفاته
لفتاته للروح أعذبُ بلسمٍ واحر قلباه على لفتاته

أحببتـه قبـل اللقـاء فلـم أجـد بعـد اللقـاء سـوى تـلألأ ذاتـه

فردَّ عليه أستاذه بقوله:

جـاء البريـد يُبـيْنُ في طياتـه معنـى الوفـا والـودُّ في همساته
مستسمناً ورماً يخال الشحم في أعطافـه فأفـاض مـن خيراتـه
أحسنت ظنك يا كريم وهكذا طبـع الكـريم يـراك في مرآتـه

١٦ـ وهذه قصيدة قالها في وداع أحد أحبته، وكان يعاني من مرض شديد مخوف، فأنشأ أبياتاً قال في مقدمتها: «في المطار كنت أتجرع غصص الوداع، وأنا أنظر إلى الروح التي نعمت بصحبتها ليومين، كانا أجمل يومين يمران على العاصمة الرياض، أظنها شعرت بذلك.

كنت أنظر إلى روحه عبر عينيه، وعندما هممت بوداعه، دلف قبلي إلى صالة المسافرين، فمنعني رجل المطار من اللحاق به.

أردت أن أفهمه ماذا يعني لي فراقه، ولكن ملامحه قالت لي: لا تفعل، لا فائدة!

فاكتفينا بعناق الأعين من بعيد.

حتى الوداع حُرِمتُ منه فليتني اطفأت بعض الشوق في توديعه
وقطفت مـن عينيـه آخـرَ وردةٍ لتكـون ملـهمتي ليـوم رجوعـه
وضـممته ورحلـت في أعماقـه وغرقـت فيـه بدفئـه وصـقيعه
يـا ليـتني لكنهـا أُمْنِيَّـةٌ ماتت على كفي لدى تشييعه
وطفقت انظر والدموع غشاوة واراه ينظـر مـن وراء دموعـه

وأشـار لـي عنـد الرحيـل بكفـه بـل قـد أشـار مودعـاً بجميعـه

فكأنـه يمـشي علـى قيثـارة مبحوحـة والعـزف مـن توقيعـه

ليـت الـذي قـد حـال دون وداعنـا يُكـوى بلوعـة خـافق وولوعـه

لو كان يدري ما التفرق لم يَحُلْ لكنـه مـا ذاق نـزع ضـلوعه

١٧ ـ وهذه أبيات يقولها إذا زار بعض أصدقائه في الزلفي :

تركـت فـؤادي عنـدكم في ربـى وعُدْت بأشواق تَجِلُّ عن الوصف

وقال :

قلبي يحن إلى الزلفي وساكنها وما حنيني إلى الأحباب ملك يدي

مالي أُكَتِّم حباً فالقاً كبدي ولا أسطره في ....

١٨ ـ وله مساجلات يصلح أن تسمى (أدب الجوال) وهي مما جرى بينه وبين بعض أصحابه ، قال :

أيهـا الطالـب لا تلعـب وذاكـر قبل أن تستشرف الروح الحناجر

فرد الصاحب :

لا تـسافر في الأمـاني لا تـسافر لـيس في العلـم سمـادير لـشاعر

فقال :

غـارق مـا بـين كُتْبي والـدفاتر لم أسـافر في سـواها لم أسـافر

فرد الصاحب :

بـل إلى حقـل تناجيـك الخـواطر ذكريـات وصـحاب ومنـاظر

فقال :

ريمـــا كـــان بأيـــام غـــوابر غير اني اليوم في الشوق اصابر

وأرسل إلى أحد أساتذته في الجامعة ، وقد زاره في مكتبه ، فلما جن الليل ، أرسل إليه رسالة عبر الجوال ، قال فيها :

يا صاحب القلب الكبير جعلتني اهـوى لأجلـك دمعـتي وسـهادي

فأجاب الأستاذ :

يا ذا الذي طرق العشاء مسامراً أسـعدت قلـبي أيمـا إسـعاد

فقال :

ما كان هذا غير بعض مشاعري ولـو اجتهـدت لما بلغـت مـرادي

فأجاب الأستاذ :

مـاذا رأيـت سـوى التـشاغل عـنكم قـل لـي بربـك يـا فتـى الأمجـاد

فقال :

سـر المحبـة فـوق كـل مـشاغل متـسـتر عـن أعـين الحـساد

يبقـى وإن كـان اللقـاء مكـدراً بـشوائب الأشـغال والإجهـاد

وأرسل في يوم من الأيام عبر الجوال أبياتاً لأحد أساتذته يعتذر عن طول انقطاعه :

أَتظـن انـك غائـب عـن بـالي او أنَّ غـيرك طـاف لـي بخيـالي

او ان وجهـاً غـير وجهـك سـرني يومـاً وايقـظ راقـد الآمـالي

او ان سـهماً مـن سـواك أصـابني بالحـبِّ بعـد غرامـك القتَّـالِ

كلا وربي لم تزل متربعاً وسط الفؤاد برونق وجلال

فرد عليه الأستاذ بقوله :

هبَّ النسيم من الشمال الغالي فأطاف جيش الذكريات ببالي
قد كنت انعم بالسلوّ فهاجني ذِكْرُ العقيق فعاد لي بلبالي

وبعد أن فرغت من الكتابة عن صاحبنا الشاعر الشيخ محمود وأخبرته بذلك، وسألته عن جديده ـ وافاني بمجموعة من القصائد؛ فاخترت منها ما يلي :

١ ـ قصيدة عنوانها : **(بحر المكرمات)** وقد قالها في رسول الله ﷺ إبان الحملة الشرسة الظالمة من قبل بعض الصحف الدانماركية وغيرها، يقول فيها :

انزف فمن حق الهوى ان تنزفا وتصوغ بالآهات شعراً مرهفا
من منبع الحب الأصيل مدادهُ وكفى بهذا الحب برهاناً كفى
إن لم تكن يا شعر صوت هداية تحدو بنا نحو السبيل المقتفى
فاغرب فلا جمعت فؤادي ليلة بك لا ولا وافيتني متزخرفا
ياللقصائد كيف يشرق وجهها وتهش في مدح النبي المصطفى
تتسابق الأبيات نحو صفاته لتزور بحر المكرمات وتغرفا
من انقذ الإنسان من اغلاله وأضاء من نور الهداية ما انطفا
من اخرج الإنسان من ظلماته وأقام معنى العز فيه وشرَّفا

في بطـن مكـة والجبـاهُ سـواجدٌ … لـلات والعـزى تـراهم عُكـَفا
اوحـى إليـه الله مـن آيـاتـه … انـذر وذكـر مُطْمِعَـاً ومخـوِّفا
فاقـام يـدعو والظـلام مخـيمٌ … والكون بالدين القويم قد احتفى
فـزع الطغـاة المشـركون واجلبـوا … ليعكـروا نبعـاً نمـيراً قـد صـفا
انـى لهـم والله بـالغُ امـرِه … حتى ولو حشد الضلال و أرجفا
وخرجت يـا خـير الخليقـة كلـها … مـن أرض بكـة كارهـاً متأسـفا
تبكـي علـى دار الطفولـة والـصبا … وتحـن للبيـت الحـرام ولـلصفا
ونزلـت ضـيفَ الغـار ايَّ سعـادة … غمرتـه حـين دخلتـه متلطـفا
وتوقـف التـاريخ يرقـب سـاعة … أحـداث هجرتـه ويـصغي مرهـفا
وتكـاد طـيبة أن تـسير إليـه مـن … شـوقٍ ويـسأل نخلـها متلهـفا
اليـوم يبـدأ بالهـدى ميلادُهـا … وتضيء شمس حضارة لن تكسفا
اليـوم تبـدأ في الحيـاة مـسيرة … لـن تنتهـي يومـاً ولـن تتوقفـا
واقـام في أرض المـدينة دولـة … كانـت مثـالاً للطهـارة والـصفا
ويـوم بـدر والملائـك حـوله … والمؤمنـون الـصادقون أولـو الوفـا
ويفـتح مكـة خاشـعاً متواضـعاً … ماجاءهـا بطـراً ولا متعجـرفا
يا صاحب الخلق العظيم منحتهم … أعنـاقهم وعفـوت عمـن قـد هـفا
ويقـول نـذل كـافر متهالـك … كان النبي المصطفى (متطرفا!)

اخسأ عدو الله إنك لم تزل عن ركب أصحاب الهدى متخلفا

كل البيان وما شفيت تلهفي ولو اتخذت البحر حِبْراً ما شفى

ولو اصطفيت من العروق قصيدتي ونسجتها بالروح لم أك منصفا

لو كنت أملك أن أجود بأضلعي لجعلتها رسماً وعفت الأحرفا

٢ـ وهذه قصيدة عنوانها : (صاحب لا يستحي) يقول فيها :

إني بليت بصاحب لا يستحي أَمَحْتُ في التأنيب أم لم ألمح[1]

متبلد الإحساس لم أَرَ مثلَه في غفلة وصفاقة وتبجح

صبري عليه يَهُدُّني وذهوله يغتالني ويصيبني في مذبح

فإذا سكت طغى وإن عاتبته وافى بقارعة وفعل أقبح

٣ـ وهذه قصيدة عنوانها : (خاطرات) يقول فيها :

ما لقلبي كلما ضمدته جاءني يحمل لي جرحاً جديدا

يا فؤادي دع أباطيل الهوى وارتحل في زورق العمر وحيدا

٤ـ وهذه قصيدة عنوانها : (رماد القلب) يقول فيها :

ألم تك يا قلب عاهدتني وكفي بكفك أن لا تحب

فمالي أراك تناجي الهوى كأنك عن ناره لم تتب

أتذكر أيامك السالفات وتلك الليالي وتلك الكرب

فمالك تنساق خلف الردى وتمشي برجليك نحو العطب

---

١ ـ ألمح : من الإلماح

نهيتك عن عالم موحش ... وإن كان أوله كاللعب
مدائنه من رماد القلوب ... وأنسامه نفثات اللهب
محضتك بالنصح يا خافقي ... فأحبب إذا شئت أو لا تحب

٣/ ١٤٢٩/٣هـ

٥ـ وهذه قصيدة عنوانها: (زمزم) يقول فيها:

ورحيقٍ ذُقْتُه من زمزم ... مَسَّ روحي وارتوى منه دمي
ودعوت الله في أثنائه ... دعوةً من خافق مضطرم
رجفَ الحرفُ على آثامه ... وعَصَتْه همهمات الكلم
سُبُحَات من نعيم ورؤى ... تتجلى في صفاء ملهم
ونسيمٌ هزَّ أعطافَ الهوى ... مَرَّ بيْ يحمل نَفْحَ الحرم
فأفاق القلبُ من غفلته ... وانجلى عنه ركامُ الألم

٦ـ وقد بعث إليه أحد أصدقائه ـعلى سبيل المزاح والعتابـ قصيدة منها قوله:

ويهدّني نزفُ الجراح ونظمُها ... وتفيضُ عيني بالشجون وتدمعُ
فيموت قلبي من جفائك بعدما ... كانت لبابتهُ بساحكَ ترتعُ
وهجرتني ونسيتَ عهدَ مودتي ... وغدا فؤادي من ودادك يقنَعُ
جرّعتني مرَّ الفراق وخنتني ... أصبحتَ من حبل الوصال تقطِعُ
محمودُ كم عانيت من قصص وكم ... قطع الصحابُ وصالهم وتمنعوا

لـو كـان قلـبي صـخرةً لتـصدّعت ... وتحطمـت ممـا حوتـه الأضـلعُ
اوّاهُ يـا (محمـود) يـا لتعاسـتي ... مـا للـصحاب اليهجـرون تجمعـوا
مـا ابـصرَتْ عـينيْ سـهاماً كـالتي ... يرمـي الجفـاءَ بهـا الـصحابُ وادفـعُ

ـ فرد عليه محمود بقصيدة يقول فيها :

لـك نـاظراي ومـا حوتـه الأضـلعُ ... ولأجلـك الغُـصَصُ الـتي أتجـرّعُ
ابقـى الزمـانُ مـن الفـؤاد بقيـةً ... فتنازعاهـا: لـوعتي والأدمـعُ
مـا مـرَّ يـوم فـوق صـفحةِ خـافقي ... إلا وذكْرَنِيْـهُ نقـشٌ مُوجِـعُ
فـإذا تعـافى موضـعٌ لم التفـت ... إلا وقـد ورث الـشكايةَ موضـعُ
أمـا العتـاب فإنـه بـاب إلى ... سبل التهـاجر والقطيعـة مُشرعُ
يا صـاحبي ولأنـت أكـرمُ صـاحبٍ ... وشـذا صـفاتك عـابقٌ متـضوعُ
أنَّـى لقلـبي أن يغيِّـر في الهـوى ... وهـواك مثـل الطـود لا يتزعـزعُ
ما اهتز عرشك في فؤادي أو عفى ... مُـذ كنـتَ في أفيائـه تتربـعُ
احبـابُ قلـبي في الفـؤاد قـصيدةٌ ... عـصماءُ أنـت ختامُهـا والمطلـعُ
إن كـان سـرك أو شـفاك تـوجعي ... فأنـا لمـا يهـوى فـؤادك طيِّـعُ
قـالوا هجـاك وقـال: إنـك خُنتَـه ... فـاجبتهم: إنـي امـرؤٌ لا أسمـعُ
إنـي لكـل أخ علـى علاتـه ... سمـحٌ فـسيح الـصدر لا اتنطـعُ
وإذا الـصديق أتـى بـذنب واحـدٍ ... فلديـه الـفُ يـدٍ امامـك تـشفعُ
يـا صـاحبي والهجـرُ شـرُّ بليـةٍ ... مـا دام في قـوس المحبـة منـزَعُ

وانا كما انا والمودة لم تزلْ في القلب يرعاها المحل الأرفعُ
لكنني أنكرت منك خليقةً ولأنت عندي في سواها الأروعُ

الرياض ١٤٢٩/١٢/٢٣هـ.

٧ـ وهذه قصيدة عنوانها: (إحباط) يقول فيها:

لم تفاجئني بتحطيم المنى فأنا أعرف حظي ونصيبي
منذ أن أدركت نفسي وأنا ضائع بين ملايين الدروب
لم أحقق في حياتي حلماً غير شعري وبقايا من حبيب
وطموحي ما طموحي إنه كذبةٌ كبرى لإنسان كذوب
أيها الموجع قلبي قد مضى زمن الدمع وأيام النحيب
لم تفاجئني فما كنت سوى واحد من بين آلاف الندوب
قطرة في بحر حزني نزلت ثم غابت بين أهوال الخطوب

٨ـ وهذه قصيدة يقول فيها:

أطلقيه إن قلبَه ليس في كفيك لعبه
سامه الحب عذاباً وأطار الشوق لبه
شاعر كان إذا غنى أضاع الطير سربه
وإذا رجَّع كاد الصب أن يقضي نحبه
شادَ من أبياته ممـ ـلكة للروح رحْبَةْ
وهُوَ اليومَ أسيرٌ في غيابات المحبةْ
آه ما أقسى الهوى حقـ ـاً وما أصعب دربه

يكـــشف القلـــب فتؤذيـــــه مـــن الأنـــسام هبـــةْ
حلـــوة تلـــك البـــدايا ت مـــع الحـــب وعذبـــة
فـــإذا المـــرء تمـــادى ومـــضى يتبـــع قلبـــه
أدرك المـــسكين مـــن بعـــدُ بـــأن الحـــبَّ نكبـــة

١٤٢٩/٥/١هـ

هذه بعض الارتسامات والذكريات التي أوحتها زيارة حقل، وما كان بعد ذلك من أثر تلك الزيارة.

وإن لشاعرنا أضعافَ أضعافِ ما ذكر، ولعل الفرصةَ تسنح له أو لغيره؛ ليخرج ديوانه الشعري الذي ضاع أكثره بين أصحابه، أو عبر شرائح الجوال المحترقة أو الملغاة.

وقبل أن أضع يدي عن شَبَاةِ القلم لمراجعة ما كتبته عن أخينا الشيخ محمود العمراني جاءتني رسالة منه تفيد أنه عُيِّنَ قاضياً، فهنَّأته، ودعوت له، وأمَّلْتُ أن يعيد لنا سيرة القضاة الأدباء العلماء كابن نصر المالكي، وابن حجر، والشوكاني.

٣٧ـ حمَّالة الورد

اطلعت على كتاب بعنوان: «الرسائل المتبادلة بين جمال الدين القاسمي ومحمود شكري الألوسي» جمع وتحقيق أخينا المحقق الكبير الشيخ محمد بن ناصر العجمي ـحفظه الله ـ.

وهذه الرسائل تحتوي على فوائد، وغرر، وتتضمن أموراً أشار إليها جامعها ومحققها في مقدمته، ومنها:

١ ـ التواصي بالحق والدعوة إليه، ونصرة دين الله ـعز وجل ـ والتشاور في مسائل العلم.

٢ ـ اشتمال ديباجةِ كلٍّ رسالة من رسائلهما على معرفة قدر كل واحد منهما للآخر، ومدحه والثناء عليه بما هو أهله، مع كمال الأدب والاحترام، وذلك في أسلوب جزل، وبيان حسن، مطرز بالسجع والمحسنات البديعية، وهي تصور ما كانوا عليه من صفاء الود، واتحاد الآراء، ولو نأت الديار.

٣ـ السؤال بإلحاح عن كتب ورسائل شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية رحمه الله وتتبع مخطوطاتها، والسعي الحثيث في محاولة نشرها ونسخها والاعتناء بها.

بل إن بداية المراسلات بينهما كانت مبنية على ذلك.

وقد كشفت هذه الرسائل أن القاسمي والألوسي كان لهما دور كبير في نشر عدد ليس بالقليلِ من كتب شيخ الإسلام، يقول القاسمي في إحدى رسائله مخاطباً الألوسي: «ولا أحد ينسى لمولانا ـحرسه الله ـ من المقام المحمود في هذا المجال ـيعني نشر كتب ابن

تيمية- وسعيه الليل والنهار محتسباً وجه المتعال، وسيخلد له التاريخ لسان صدق يرتاح له أنصار الفضل، ورجال الحق».

ويقول -أيضاً- في إحدى رسائله: «لا أقدر أن أعبر عن السرور الذي داخلني من اهتمامكم بنشر آثار شيخ الإسلام، فجزاكم الله عن هذا السعي خير الجزاء».

ويقول -أيضاً- في رسالة أخرى له: «وإنما المهم نسخ آثار شيخ الإسلام التي في الخزانة، وتتبع المهم منها....».

٤- المذاكرة في الكتب عموماً، ونوادرها، وما نشر منها، وما لم ينشر، والحث على طباعة الكتب التي تنفع الأمة، وتنور أفكارها، وتنبهها إلى طريق الحق والصراط المستقيم، وأنه من الواجب الإصلاح العلمي إذا كان قد فات الإصلاح السياسي.

٥- كشفت هذه المراسلات عن صفحة مشرقة لمن يقوم بتمويل وطباعة هذه الكتب والإنفاق عليها من محبي كتب السلف، كالشيخ الوجيه محمد نصيف من جدَّة ثغر مكة المحروسة، والوجيه فخر التُّجار مقبل بن عبدالرحمن الذكير النجدي، والشيخ قاسم آل ثاني أحد أمراء قطر، وغيرهم من كرام أهل الفضل والشهامة.

وكشفت -أيضاً- أن طباعة هذه الكتب كانت غالباً في مصر والشام والهند.

٦- ذِكْرُ ما لقي كلٌّ واحدٍ منهما من أعداء الإصلاح والوشاة، وسؤال كل منهما عن الآخر، والاطمئنان على صحته وأحواله،

ومواساته فيما أصابه من حوادث الزمان، مما يدل على حسن الصلة الأخوية والرابطة العقدية، يقول القاسمي في إحدى رسائله معزياً الألوسي في أحد أعمامه: «كدَّرنا -وأيم الحق- نبأ انتقال سيادة العم المعظم، فعوضه الله الجنة، وسلم آله وأنجاله، وسلَّم سيادة مولانا لهم ولنا وللمحبين».

ويقول الألوسي ردّاً على تعزية القاسمي: «تلقيت اليوم كتابكم الكريم، وقد اشتمل على ما جُبِلْتُم عليه من المودة الحقيقية، ولا شك أن المودة في الله بين الإخوان تشاركهم في المسرات والأحزان، وتساهمهم في حالتي الرجاء واللأواء».

٧- السؤال عن الإخوان والأصحاب كالشيخ محمد رشيد رضا، والشيخ عبدالرزاق البيطار، والشيخ علي بن نعمان الألوسي، وغيرهم من تلك الصحبة الناصرة للإصلاح والدين.

٨- التوجع لأحوال المسلمين وبلادهم، وتقهقرهم، وانتصار الأعداء عليهم، يقول الألوسي في إحدى رسائله إلى القاسمي: «هذا، والمُخْلِصُ مضطرب البال، ضيق الصدر جداً جداً مما حل ببلاد المسلمين من البلاء، واستيلاء الكفار عليها؛ فما ندري ماذا نعمل وقد أحاط الكفر بجميع بلاد المسلمين؟ وأصبحت على خطر عظيم».

ويقول القاسمي مجيباً بمثل كلام صاحبه الألوسي: «همومنا لِما نزل بالمسلمين أجمدَ -والله- منا الأفكار والأقلام، وأراني في تفرقٍ وتلاشٍ، وحالة لا توصف، فرَّج المولى عنا بفضله وكرمه».

٩- ثناء الألوسي على مؤلفات القاسمي التي تصله منه كقوله عن

كتابه «الفتوى في الإسلام» : «رأيته مشحوناً بالفوائد، مملوءاً من غُرر العوائد، كأنه سبيكة عَسْجَدٍ، أو درٌّ مُنَضَّدٌ».

وثناء القاسمي على جهود الألوسي كقوله عن كتابه «غاية الأماني» : «فالحمد لله على نعمة هذا الكتاب، وجزى الله سيدنا عنه خير ما جزى أولياءه وأحباءه؛ إنه الكريم الوهاب، ولا زالت مآثره تتلى وتنشر».

١٠ ـ الحرص الأكيد على ردِّ الجواب من كل منهما مع الاحتفاء بهذه الرسائل والعناية بها؛ فإن رسائل الألوسي التي كانت تصل إلى القاسمي يطلع عليها أصحابه وتلاميذه.

يقول الأديب الكبير عز الدين التنوخي عضو المجمع العلمي بدمشق، وأمين سره، وأحد تلامذة القاسمي النُّبغاء: «كان الشيخ محمود شكري الألوسي صديق شيخنا الجمال القاسمي الحميم، وكان شيخنا الإمام ـ يعني القاسمي ـ يقرأ لنا الرسائل الألوسية؛ لنستفيد من أسلوب كتابتها، ومما تشتمل عليه من طرائف العلم والأدب، فعلقت محبة الألوسي بقلوبنا...».

ومما يدل على حرص القاسمي على رسائل صاحبه الألوسي أنه كان قد قسمها إلى مجموعتين، كل مجموعة أفردها بالتجليد في مجلد صغير يحمل عنوان رسائل الألوسي.

أما اهتمام الألوسي برسائل القاسمي فإنه لا يقل عن اهتمام القاسمي برسائله؛ فقد ألَّف الألوسي كتاباً بعنوان: «رياض النَّاظرين

في مراسلات المعاصرين» ذكر فيه من راسله من علماء وأدباء عصره، وقد أودع فيه جميع رسائل القاسمي إليه، ولولا هذا الصنيع لما وقفنا على رسائل القاسمي هذه؛ فما أجمل ما عمل كل منهما، ولو أن كل عالم كان يصنع مثل هذا الصنيع لما فاتنا كثير من هذه الفوائد الغالية.

هذه إلماعة سريعة، وعجالة لطيفة حول محتوى هذه الرسائل، وما فيها من طرائف علمية.

وليس المقصودُ ههنا إعطاءَ القارئ صورة لهذا الكتاب، وما يتضمن من فوائد، وإنما هو ما نحن بصدده من عنوان هذه الكلمة.

فأنت حين تقرأ هذه المكاتبات، وترى ما فيها من الحفاوة البالغة، والتواصل المستمر، والود الذي هو أحلى من الفرات، وأصفى من بَرَدَى يصفَّق بالرحيق السلسل ـ تظن أن القاسمي والألوسي رضيعا لبان، وأنهما دوماً يلتقيان ولا يفترقان؛ فإذا بك تفاجأ بأنهما فارقا الدنيا، ولم يحصل بينهما لقاء، وإنما هي مراسلات، ومحبة في الغيب فحسب!

ولك أن تسأل: كيف نشأت تلك المحبة الخالصة؟ وكيف حصل ذلك التعاون بين اثنين لم ير أحدهما صاحبه؟ وما الذي جعل تلك العلاقة تزداد مع الأيام قوة ووثاقة؟

والجواب: أن السبب في ذلك حَمَّالةُ وردٍ، ورسول ودٍّ، وواسطةُ عِقْدٍ حرص كل الحرص على ربط ذلك العلامة بِتِرْبِه وأخيه في العلم.

ذلكم هو تلميذ لهما اسمه الشيخ عبدالعزيز السناني النجدي من أهالي عنيزة في منطقة القصيم.

وقد كان الشيخ عبدالعزيز السناني مقيماً في تلك الفترة ببغداد؛ فكان يجالس الآلوسي، ويفيد من علمه، وكان يراسل العلامة القاسمي، ويخبره عن قرينه في العلم والأدب العلامة الألوسي، ويبلغه تحياته، وأشواقه، وأخباره العلمية؛ حتى عَلِقَ كلٌّ واحدٍ منهما صاحبه بسبب ذلك التلميذ البار النجيب ذي النفس الكريمة، والأفق الواسع.

ولما توفي التلميذ السناني سنة ١٣٢٦هـ بدأت المكاتبات بين القاسمي والألوسي مباشرة بعد أن كان ذلك التلميذ هو الواسطة.

يقول القاسمي رحمه الله في أول رسالة: «أما وقد مضى الشيخ -يعني السناني- إلى رحمة الله فلم يبق إلا التواصل مع السيد أطال المولى بقاءه».

وقد كانت هذه الرسالة في السابع عشر من شوال سنة ١٣٢٦هـ مع هدية من القاسمي وهي كتابه «دلائل التوحيد».

وقد أجابه الألوسي عن رسالته في السنة نفسها في غرة ذي الحجة، فأثنى عليه، وعلى كتابه (دلائل التوحيد) ثناءً عاطراً، مما كان له أطيب الأثر في نفس القاسمي الذي كتب في مذكراته الخاصة لسنة ١٣٢٦هـ في ٢٧ ذي الحجة ما يلي: «اليوم ورد من بغداد كتاب من العلامة شكري أفندي الألوسي أَشَفَّ عن فضل، وكمال، وصدق محبة، وروحانية، وقد أسهب في تقريظ كتاب دلائل التوحيد، فجزاه المولى خير الجزاء».

فهذه بداية المراسلة بينهما، وقد استمرت إلى أن فارق القاسمي الحياة سنة ١٣٣٢هـ ولم يبلغ الخمسين من عمره حيث ولد عام ١٢٨٣هـ.

أما الألوسي فقد توفي في الرابع من شوال عام ١٣٤٢هـ.

ثم استمرت تلك العلاقة بين تلامذتهما إلى يومنا هذا.

ولعل أبرز تلك العلاقات ما كان بين العلامتين: الشيخ محمد بهجة البيطار تلميذ القاسمي، والشيخ محمد بهجة الأثري تلميذ الألوسي -رحمهم الله جميعاً-.

والشاهد من هذا كله بيان بركة ذلك الطالب النجيب الشيخ عبدالعزيز السناني الذي جمع الله به قلبي الألوسي والقاسمي، فكان من ثمرة ذلك خيرٌ عظيم ساقه الله للعلامتين، وللأمة.

فما أحوجنا إلى ذلك الطراز من طلبة العلم ممن يجمعون القلوب، ويؤلفون بين الناس، ويقربون العلماء إلى بعض، وينفون عن قلوبهم ما قد يشوبها من الوحشة والقطيعة، وينقلون إليهم ومنهم الأخبارَ الطيبةَ التي تجمع وتؤلف، ويحملون منهم وإليهم السلام، والكلمات التي تَحْمِل ثناءَ بعضهم على بعض، ويغضون الطَّرْفَ عن الكلمات أو الآراء التي قَدْ تُحْدِثُ نُفْرَةً أو شرخاً في المودة.

وإنك إذا تأملتَ في حال الأمة، وما يكون من القطيعة بين بعض أهل العلم - وجَدْتَ أنه يرجع إلى أسباب كثيرة، وقد يكون من أبرزها التفريط بهذا الأصل، وقلة المبالاة بتلك المبادرات التي نحسبها يسيرة، وهي عظيمة الوقع، عميمة النفع.

فأجدر بطلاب العلم، أن يتحلوا بهذا الوصف، وأن يبذلوا قصارى جهدهم للتمثل به، حتى يؤدوا ثمرة العلم، **ويكونوا حمالة ورد لا حمالة حطب.**

وأخلق بهم أن ينأوا عن كل ما يسبب الفتنة والفرقة، وإيغار الصدور، وتأليب بعض الناس على بعض.

فإذا هدأت النفوس، وانطوت القلوب على المحبة والوئام - كان من آثار ذلك زيادة العلم والإيمان، والارتقاء بالأخلاق والأعمال.

وهكذا يكون طلابُ العلم مصابيحَ دجىً، وأعلامَ هدىً تؤتي علومُهم، وأخلاقُهم أُكُلَها أضعافاً مضاعفة.

٣٨ـ أبو هزَّاع سيد الطرفة

التاريخ حافل بالظرفاء، وذوي الروح المرحة، والنكتة الحاضرة، والطرفة المنعشة.

ومجالس الناس -أكابرهم ومن دونهم- لا تخلو من أمثال أولئك الذين يُضْفُون على المجالَس جوّاً من المَرَح، ويرسمون البهجة والسرور على الشفاه، ويطفئون لفح الحياة وهَجِيْرَها، خصوصاً إذا لم يكن في كلامهم ما يثلم الدين والمروءة.

وما برحت العصور تلد من أولئك النفر الذين يَخْلُف بعضهم بعضاً، وما زالت كتب التواريخ والسير تحفل بأخبار أولئك، وتُفْرِدُ لهم المصنفات أو تجعلها ضمناً في كتب تحمل أخبارهم، وأخبار غيرهم.

وما أخبار نعيمان، وأبي الشمقمق، وأشعب، وبهلول، وأبي العيناء، وأبي الديك، وسعدون المجنون وغيرهم ـ عنا ببعيد.

أما جحا فحدث عنه ولا حرج، حيث ذُكِرت عنه الأخبار، ونسجت حوله الأساطير، حتى إن الإمام الذهبي رحمه الله ترجم له في سير أعلام النبلاء ٨/١٧٢.

ولقد ألف ابن حبيب ت ٤٠٦هـ كتاباً سماه عقلاء المجانين، وأورد فيه كثيراً من تلك الأخبار، وما يدور في ذلك الفلك.

وأفرد ابن الجوزي كتباً في هذا الباب ككتاب: الأذكياء، وأخبار الحمقى والمغفلين، وكتاب أخبار الظراف والمتماجنين.

ويوجد في تضاعيف أكثر كتب الأدب والتواريخ والسير أخبارٌ من هذا القبيل، كعيون الأخبار لابن قتيبة، والبخلاء، والبيان والتبيين

للجاحظ، والبصائر والذخائر لأبي حيان التوحيدي، وغيرها كثير جداً؛ فهؤلاء الظُّراف جزء لا يتجزأ من المجتمع، وثقافته، وتاريخه.

ومن أخبار هؤلاء ما أورده ابن حبيب بسنده في كتاب عقلاء المجانين ص٦٩ عن سعيد بن علي بن عطاف الطاحي بالبصرة يقول: كان عندنا رجل عاقل أديب فَهِمٌ شاعرٌ يقال له عامر، وكان مع أدبه محروماً مُحارَفاً[1].

فقال لي رجل من أصحابي: إن صديقك قد جنّ، فجعلت أطلبه حتى ظفرتُ به في بعض القرى ـ والصبيان حوله يضحكون ـ فقلت له: يا عامر منذ كم صرت بهذه الحالة؟ فأنشأ يقول:

جَنَّنتُ نفسي لكي أنال غنى فالعقل في ذا الزمانِ حرمانُ
يا عاذلي لا تَلُمْ أخا حُمُقٍ يُضحَكُ منه فالحمقُ الوانُ

وقال ابن حبيب ص٧٠: «وهذا علي بن صلاة القصيري كان ممن يجيد الشعر، وكان إذ ذاك محروماً لا يُؤْبَه له، ومن جيد شعره:

لسان الهوى من مقلتي لك ناطق يخَبِّر عني انني لك وامق

ثم تحامق، وأخذ في الهزل، فحسنت حالته، وراج أمره حتى إن الملوك والأشراف أولعوا به».

وأورد ابن حبيب بسنده ص٧١ عن محمد بن زكريا بن دينار الغلابي يقول: مرّ بعض الأدباء بمجنون يتكلم، فتأمل كلامه فإذا هو رصين

---

١ ـ المحارف: منقوص الحظ.

يدور على الأصول، فقال له: ما حملك على التحامق؟ فقال:

لما رايت الحظَّ حظَّ الجاهل ... ولم أر المغبون غير العاقل

رحَلْت عيساً من كرام بابل ... فصرت من عقلي على مراحل

وذكر بسنده ص١١٤ عن راشد بن علقمة البصري الأزدي قال: قال لي عطاء السلمي: احتبس علينا القطر بالبصرة فخرجنا نستسقي فإذا بسعدون المجنون، فلما أبصرني قال: يا عطاء إلى أين؟ قلت خرجنا نستسقي، قال: بقلوب سماوية أم بقلوب خاوية؟ قلت: بقلوب سماوية، قال: لا تُبَهْرِج فإن الناقد بصير!

قلت: ما هو إلا ما حكيت لك، فاستسق لنا، فرفع رأسه إلى السماء، وقال: أقسمت عليك إلا سقيتنا الغيث، ثم أنشأ يقول:

ايا مَنْ كلما نُوديْ اجابا ... ومن بجلاله ينشي السحابا

ويا من كلّم الصديق موسى ... كلاماً ثم الهمه الجوابا

ويا من ردّ يوسفَ بعد ضُر ... على من كان ينتحب انتحابا

ويا من خصَّ احمدَ باصطفاءٍ ... واعطاه الرسالة والكتابا

اسقنا، قال: فارتجت السماء شآبيب كأفواه القرب.

قلت: زدني، قال: ليس ذا الكيلُ من ذاك البيدر، ثم أنشأ يقول:

سبحان من لم تزل له حجج ... قامت على خلقه بمعرفتِهْ

قد علموا انه مليكهُمُ ... يعجز وصف الأنام عن صفتهِ

فهذه بعض أخبار أولئك الظراف في أزمان غابرة.

هذا وإن بلدنا الزلفي لم تعرف في العصور المتأخرة رجلاً أظرف، ولا أطرف من صاحبنا الذي سيدور حوله الحديث هنا.

فصاحبنا هو أحمد بن عبدالمحسن بن محمد الحمد، وهو قريب لي من جهة أمه؛ فهي عمتي، شقيقة والدي -رحمهما الله-.

ووالده ابن عم والدي، وهو الشيخ المقرئ عبدالمحسن بن محمد الحمد -رحمهم الله-.

والشيخ عبدالمحسن من حفظة القرآن المتقنين المجودين، وقد أمَّ الناس في مسجد المعتق في الزلفي مدة ستين سنة، وكان يختم بالمصلين في رمضان مرتين أو ثلاثاً، وكان من أكابر معلمي القرآن في البلد، وقد أفاد منه خلق كثير.

وله إلمام ببعض علوم الشريعة، واللغة، وكان رئيس هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في وقته إلى أن تقاعد، وقد اشتهر بالحلم، والأناة، والكرم، وقد توفي رحمه الله عام ١٤١١هـ عن عمر يزيد على خمس وتسعين سنة.

وصاحبنا أحمد يُعرف ويشتهر بأبي هزاع، وليس له ولد بهذا الاسم، وإنما ولده الأكبر هو الأستاذ سليمان، فكنيته الحقيقية أبو سليمان، ولكنه اشتهر عند الناس بأبي هزاع.

هذا الرجل فارق الدنيا يوم الجمعة ١٤٢٢/٤/٢٩هـ عن ست وثمانين سنة، ولكن ذكراه، وصدى أحاديثه، ومواقفه لا تزال تتردد إلى يومنا هذا بصفة مستمرة؛ فالناس عندنا مولعون بتروي أخباره، وتذكرِ مواقفه، والسؤالَ عَمَّن له صلة به؛ ليسمعوا ما لم يسمعوه من قصصه.

هذا الرجل لديه صبر عجيب، وتحمل لشظف العيش، وجلد

على مكابدة الصعاب؛ فلقد سافر مراراً على رجليه، ورعى الغنم، وتَحَمَّلَ الوَحْدة الطويلة.

والذي بهر الناس به، وحببه إليهم - سرعة بديهته، وحضور جوابه، ودقة وصفه، وجريان النكتة على لسانه بدون أدنى تكلف أو قصد إلى ذلك؛ ففي الوقت الذي يبهر فيه الحضور، ويضحكهم، وينتزع إعجابهم لا تجده يضحك من ذلك، ولا يشعر بأنه قال شيئاً يستحق أن يوقف عنده، بل ينطلق في ذلك على سجيته تماماً.

يقول عنه الشاعر الكبير أحمد الناصر الشايع: «لو أن أبا هزاع شاعر لما وقف أحد في وجهه من شعراء المحاورة؛ لسرعة بديهته، وكثرة مخارجه».

وقَلَّ أن تجد أحداً في بلدنا ممن رآه، أو حضر مجالسه، أو سمع عنه - إلا ويحفظ له عشرات القصص والمواقف.

ولا يقتصر ذلك على عامة الناس، بل إن ذلك ليشمل طبقة العلماء، وطلبة العلم، والمثقفين، والأطباء، وغيرهم؛ فهم يطربون لسماع أخبار أبي هزاع، ولا يملون كثرتها، أو تردادها.

وأحفظ له عشرات القصص، والمواقف، ولكن أكثرها يصلح أن يروى شفاهاً أكثر من أن يذكر كتابةً؛ لأن ذكرها بلهجة أبي هزاع يضفي عليها جواً من الهالة والبريق، وذِكْرُها مكتوبةً بمعناها قد يطفئ شيئاً من بهجتها، ويُفْقِدُها عنصراً من عناصر روعتها.

ثم إن إيراد بعضها قد يحتاج إلى شرح؛ لكي يصل إلى شريحة عامة القراء.

أما لو كان الأمر مقتصراً على البلد الذي عاش فيه صاحبنا لما احتيج إلى ذلك.

إضافة إلى ما سبق فإنه رحمه الله كان يستشهد بقصص، ويضرب المثل بشخصيات يعرفها، وينزل تلك الأمثال على سياقات من كلامه؛ فلو ذُكِرَتْ تلك الأسماء لكانت الحاجة تمس إلى التعريف بهم؛ كي يصل القارئ إلى الغرض والفكرة المنشودة.

وهذا يحتاج إلى سِفْرٍ كبير، والمقصود ههنا الإشارة فحسب.

ولقد كان رحمه الله يمتهن البيع والشراء في بضاعة كان ينشرها في السوق، وينتقل بها من بلد إلى بلد، فتارة يكون في الرياض، وآونة في رفحاء، وأحياناً في تبوك، وكثيراً ما يكون في حفر الباطن، وأغلب وقته في بلده الزلفي.

وقد ينتقل من ذلك إلى تربية الأغنام، وقد يجمع بين هاتين المهنتين، وقد يمل إحداهما، ويميل إلى أخرى والعكس.

وكان غالباً ما ينشر بضاعته يوم الجمعة في السوق؛ فإذا رآه الناس تقاطروا عليه، وصاروا يستمعون إلى محادثته مع المشترين خصوصاً إذا كانوا غرباء، فيكون ذلك المكان مليئاً بالناس الذين ينتظرون منه أي كلمة، أو تعليق، أو مدح للبضاعة؛ فيسمعون كلاماً غريباً، وطُرَفاً لم يسمعوا بها من قبل، فيشيع في ذلك المكان جَوٌّ من الفرح، والسرور.

وكان يطيل باله على المشتري إلى حدٍّ ما؛ فإذا ملَّ من كثرة كلام المشتري وأسئلته، أو شعر بأنه لا يريد الشراء - انصرف عن محاولة

بيعه، ورد عليه بكلمات تَرُدُّه، وتسكته، وتَصْرِفه؛ فتكون تلك الكلمات مثارَ حديث الناس.

وفي يوم من الأيام دخل المستشفى لإجراء عملية جراحية وقبيل إجرائها كان الطبيب يسأله هل أنت صائم هذا اليوم؟ هل أكلت شيئاً؟ فيجيبه نعم تناولت التمر والقهوة، فيؤجل الطبيب العملية إلى الغد، ويحذره من تناول شيء قبل العملية؛ فإذا جاء الغد سأله السؤال نفسه، فيجيب بأنني لم أتناول إلا التمر والقهوة، فاستمرت تلك الحال عدة أيام، فنهره الطبيب، وقال: إذا لم تَصُمْ فسنضطر إلى إخراجك من المستشفى.

وبعد ذلك تم إجراء العملية، وبعد إجرائها، قرر الطبيب -كالعادة- أن يمكث أياماً في المستشفى؛ لإكمال علاجه، فمكث؛ فإذا قرب وقت الزيارة تدافع الناس إلى زيارته، وربما مكثوا إلى نهايتها، وربما صاروا صفوفاً بعضهم خلف بعض يستمعون أحاديثه، وانتقاداته واقتراحاته؛ فتشعر أنك في مسرح لا في مستشفى؛ حتى إنك لتخشى على بعض الحاضرين أن يغمى عليه من كثرة الضحك، كل ذلك وصاحبنا منطلق على سجيته غير متكلف لما يقول، فتارة تراه ينتقد خدمات المستشفى، وتارة يرشح فلاناً من الناس لإدارة المستشفى، وتارة يرشح آخر للإشراف على المطبخ، وهكذا...

وكثيراً ما يستضيفه الناس في مجالسهم؛ لسماع أخباره، ومواقفه.

وأذكر أنه قبل سنوات من وفاته استضافه أحد الوجهاء، وكان في المجلس رجلٌ ليس من أهل البلد، وإنما هو معروف بالقصص،

والرواية، والطرفة، وإمتاع الحاضرين، بل إذا حضر مجلساً صار الحديث له، والناس من حوله منصتون.

فلما حضر صاحبنا أبو هزاع توجهت الأنظار إليه، وتركوا صاحبهم، فصار الحال على حد قول الأول:

طلع الصباح فاطفِئوا القنديلا

بل إن صاحبهم الأول توجَّه معهم، وصار يتعجب من القدرة الفائقة لأبي هزاع في حَبْك القصة، وسرعة البديهة، وطرافة الأحاديث؛ فتذكرتُ قول الأول:

إنما يعرف ذا الفضل من الناس ذووه

ولهذا قال بعض خاصة أبي هزاع قبيل وفاته: استنسخوا أبا هزاع، وإلا سوف تندمون.

قال ذلك أول ظهور الكلام على الاستنساخ.

وقبل الدخول في ذكر مَزِيْدٍ من قصص أبي هزاع ومواقفه أشير إلى أنه رحمه الله كان شديد المحافظَة على صلاة الجماعة، وعلى التبكير إلى المسجد، حتى بعد أن كَبِرَتْ سِنُّه، وثقلت خطاه، كما كان حسن التلاوة للقرآن الكريم، كثير القراءة له سواء في المسجد، أو المنزل، يَعْرف ذلك كلُّ مَنْ خالطه.

وكان كريماً على قلة ذات يده، بل لعل ذلك من أسباب فقره.

ومن مظاهر كرمه أنه يستضيف من يسلم عليه، مع أنه يعيش وحده في منزله، ويطبخ لنفسه، خصوصاً في أواخر عمره.

ومن قصص كرمه ما ذكره لي ابنه الأستاذ سليمان ـحفظه اللهـ يقول: «إن والدي رحمه الله ينتقل من بلد إلى بلد لنشر بضاعته من الملابس ونحوها، وقبل وفاته بما يزيد على عشرين سنة كان في منطقة تبوك، وفي يوم من الأيام نشر بضاعته في السوق، وكان الجوُّ بارداً جداً، فمرَّت به أسرةٌ مُكَوَّنَةٌ من عدد من الأفراد صغاراً وكباراً، رجالاً ونساءً، ويظهر من حالهم أنهم على سفر، وأنهم ليسوا من أهل البلد؛ فلما وقفوا عند والدي ـكما يخبرنيـ لمس منهم الحاجة، ولاحظ أنهم فقراء، وأنهم يتضورون من شدة البرد، فناداهم، وعرض عليهم جميع ما عنده، وقال: كل واحد منكم يأخذ ما يحتاج إليه من اللباس، ففرحوا بذلك، وأخذ كل واحد منهم ما يحتاج إليه، فلبسوها في الحال؛ فَسُرَّ والدي بذلك.

وبعدها جاء رجل، وقال: أنت مجنون؟ هكذا تفرط بمالك؟

فرد عليه الوالد قائلاً: وهل أنت شريك لي في مالي حتى تقول ذلك؟ اذهب فليس لك أي كلام في هذا.

يقول الأستاذ سليمان: إن والدي يقول: لقد اشْتُرِى مني بعد ذلك الموقف بيوم شراءً كثيراً، وربحت منه ربحاً لم أربحه من قبل» ا.هـ

ولقد توفي صاحبنا يوم جمعة، وصلى عليه جمع كبير، وترحم الناس عليه كثيراً، ولا زالوا إلى يومنا هذا يترحمون عليه كلما ذُكر عندهم.

وبعد وفاته بأيام رأيته في المنام على هيئة حسنة، فقلت له: ما شاء الله، ما هذا يا أبا سليمان؟

فقال: لقد وجدت خيراً مما عندكم.

وإليك أيها القارئ بعض المواقف الطريفة التي أذكرها عن صاحبنا، والتي يناسب ذكرها ههنا لوضوحها، وقلة احتياجها إلى شرح، مع ملاحظة أنها ليست من أعالي أخباره، وإبداعاته في هذا المجال.

١ ـ في يوم من الأيام كنا عند أحد الأصحاب بعد صلاة الجمعة، وكان أبوهزاع من ضمن الحاضرين، فجاء إلى ذلك المجلس رجل، وقال: لقد أتيت من السوق، ووجدت أناساً يبيعون الجراد؛ فالحمد لله أن الناس بخير، وأن الذي يبيع الجراد سيغتني بفضل الله، ثم بسبب بيع الجراد.

فلما سمع أبو هزاع هذا الكلام ـوكان لا يحبذ ذلك المتكلم، وأراد تفنيد قولهـ قال: ما علمنا أن أحداً أصابه الغنى بسبب الجراد، ولا الحطب.

فقال له ذلك الرجل: هداك الله يا أبا سليمان ـهذه كنية أبي هزاع الحقيقيةـ: كيف تقول ذلك؟ أما علمت قصة ذلك الرجل الذي جاء إلى الرسولﷺ وسأله مالاً، فوجده شاباً جلداً، فاشترى له فأساً، وقال له: خذ هذا الفأس، واحتطب؛ فذلك خير من سؤال الناس، ثم دعا له الرسول ﷺ فانصرف الرجل، وفعل ما أمره به الرسول ﷺ وجاء بعد مدة وقد اكتفى؛ فكيف تقول ما قُلتَ هداك الله؟

فأطرق أبو هزاع قليلاً ثم أصدر صوتاً من حلقه يعرفه من يجالسه، وكان يصدره إذا تعجب من شيء، أو تهيَّأ للجواب وقال: مسكين أنت، كيف لا يغتني ذلك الرجل، والرسولﷺ هو الذي اشترى له

الفاروع[1] وكيف لا يغتني والرسول ﷺ قد دعا له؟

نحن لا نريد من الناس أن يشتروا لنا فاروعاً، ولا نريد منهم دعاءً، نحن نريد أن يكفوا عنا أَعْينهم -يعني إصابتهم لنا بالعين-.

فتعالت أصوات الجالسين بالضحك والإعجاب، وحاول ذلك الرجل أن يجيب، فلم يُحِرْ جواباً، فسكت.

٢- وفي يوم من الأيام زار المستشفى -وكان إذا زار المستشفى أكثر من انتقاده، وإبداء الملحوظات عليه، وبيان ما يحتاج إليه في تلك الفترة، وليس بالضرورة أن تكون تلك الانتقادات والملحوظات في محلها، ومسؤولو المستشفى يسمعون منه هذا الكلام، ولا يؤاخذونه بذلك، بل يُسَرُّون بتعليقاته، وانتقاداته-.

ولما زار المستشفى مر بإحدى الغرف، فوجد رجلاً من كبار السن في تلك الغرفة، وهذا الرجل مصاب بمرض قديم، فأتى به أبناؤه إلى المستشفى، فقرر له الطبيبُ عمليةً جراحية، فرفض، فحاول أبناؤه أن يقنعوه، فاقتنع أخيراً، ودخل المستشفى، فلما زاره أبو هزاع، قال له: ما الذي أتى بك إلى هنا؟

فقال الرجل: الأولاد -أصلحهم الله- يقولون: إنني أحتاج إلى العملية، وأقنعوني بذلك.

فقال له أبو هزاع: تريد نصيحتي؟ قال الرجل: نعم.

قال: ما أرى أولادك إلا يريدون استعجال وفاتك، والظفر بميراثك، وإلا كيف تعمل العملية بهذا المستشفى؟

---

١ ـ الفاروع: كلمة عامية، وهو الفأس، ولكن أبا هزاع يتكلم بما يعرف.

أما علمت أنهم ينسون المَقَصَّات، وأدوات الجراحة في البطون؟

أما رأيت مكان عمليتي التي أجروها لي وكأنها حِبْس[1]، وأخذ يقطع عليه الطريق؛ فما كان من ذلك الرجل إلا أن قال: جزاك الله خيراً على هذه النصيحة، ثم لبس نعليه، وخرج من المستشفى، وصار يشير بيده إلى السيارات التي تمر به، ثم أوقف أحدهم، وقال: أوصلني إلى بيتي.

ولما جاء الأولاد إلى المستشفى، وذهبوا إلى غرفة والدهم لم يجدوه، ففرحوا، وقالوا: لعله في غرفة العمليات، فلما تباطؤوه، سألوا عنه الموظف المختص في المستشفى، وقالوا له: أين والدنا؟ هل هو في غرفة العمليات؟ فقال الموظف: لا، نحن بحثنا عنه فلم نجده، فاتصل أَحَدُ الأولاد بمنزلهم، وسألهم عن والده، فقيل له: إنه في المنزل؛ فجاؤوا إليه، وقالوا: مالَك يا والدنا؟

ما الذي ثناك عن إجراء العملية؟ قال: الحمد لله الذي أنقذني من تلك العملية، لقد قيض الله لي أحد الناصحين، فحذرني من ذلك.

فقالوا له: ومن ذلك الناصح؟ فقال: أبو هزاع، فضرب الأولاد أكفهم، وقالوا: ماذا نقول؟ إذا كان أبو هزاع هو الناصح، فليس في اليد حيلة.

وما أدري هل أُقْنع الأب مرة أخرى بإجراء العملية أو لم يقنع.

٣ـ وفي عام ١٤١٨هـ مكثتُ في المستشفى عدة أيام بسبب عملية

---

١ ـ الحبس: المرتفع من الأرض.

يسيرة أجريتها.

فعلم بذلك أبو هزاع فجاء إلى المستشفى؛ لزيارتي، فسمعت صوت عصاه على بلاط المستشفى.

فلما وصل إليَّ سلم: وبدلاً من أن يقول لي: الحمد لله على السلامة قال: ما ظننتك تعمل العملية في هذا المستشفى، قلت له، ولماذا؟

فقال: أما ترى المقبرة مليئة بالناس، قلت: بلى.

قال: أتدري ممن؟ قلت: آجالهم؟ قال: ولكنهم ضحايا من هذا المستشفى الذي أردتَ أن تُهلك نفسك عندهم.

ثم خرج من عندي إلى بعض المرضى الذين أجروا عملياتٍ جراحيةً، وبدأ يتكلم معهم، وهم يكادون يسقطون من الضحك، حتى خشوا على أنفسهم إعادة إجراء العمليات مرة أخرى بسبب ذلك.

ومِنْ ضِمْنِ ما قاله في تلك الزيارة الميمونة أنه قال لأحد المرضى- وقد كان في غيبوبة وأبو هزاع لم يعلم بذلك- قال له: «يا فلان: ما أوصلك إلى تلك الحال إلا الطعام الذي يقدم لك في المستشفى، اخرج، وسأصنع لك قبابيط[1] على حِلْبَة لا يستطيع عمله نساء آل فلان».

ويعني بهم أهل بيت من أسرة من الأسر الكريمة في بلدنا.

فلما قال ذلك كاد المرضى أن يغمى عليهم من الضحك.

---

١ ـ هذه أكلة شعبية تُصنع من دقيق البر، وهي ـ كما في اللسان ٣٧٣/٧ ـ من القَبْط وهو جمع الشيء في اليد، فهذه الأكلة تعجن ثم تقطّع، وتجمع في اليد، وتوضع في القدر الذي يفور بالماء وتحته النار، فيكون أكلة معروفة في نجد، وهي القبابيط.

٤ـ وكان إذا استشهد على قضية، أو أراد وصف شيء ما ـ ذكر شخصية من الشخصيات المعروفة بذلك الأمر الذي استشهد به، فمن ذلك على سبيل المثال أنه في يوم من الأيام آلت إليه أرض بالإرث، فسأله أحد جُلاّسه، هل وقَّعْتَ على استلامها؟ قال: نعم، وقَّعت توقيعاً لا يستطيع أن يوقع مثله الطبيشي رحمه الله.

والذي سأله لا يعرف الطبيشي، وبعد سؤال وتحرٍّ عَلِمَ أنه عبدالرحمن الطبيشي وزير الشؤون الخاصة للملك عبدالعزيز رحمه الله.

وكان إذا أعجبه طعام عند أحد، وكان في حالة رضى، قال هذا الطبخ لا تستطيع صنعه نورة الهملان.

ولما سئل عنها وُجد أنها امرأة تجيد الطبخ، وكانت منازل أهلها في طريق الكويت قديماً.

هذه بعض مواقف أبي هزاع التي سمحت بها الذاكرة، وناسب ذكرها، وإلا فمواقفه وأخباره لا تكاد تحصى كثرة، رحمه الله، وعفا عنه، وأسكنه فسيح جنَّاته.

٣٩ـ عفة اللسان والقلم

في يوم من الأيام زارني أحد الأحبة من أهل العلم المتخصصين البارعين في أحد فروع العلم الشرعي، وكان مُبرزاً في ذلك الفن، ومرجعاً فيه، وله أيادٍ طولى في تحرير كثير من مسائله، وتقريبها للناس.

وبينما نحن نتجول في مكتبتي وصلنا إلى مكان يحتوي على بعض الكتب الخاصة التي أراجعها بصورة مستمرة؛ فوقعت عيني على أحد مؤلفات صاحبنا، فأخذته؛ لأريه أن ذلك الكتاب مما أحتاج إليه بين الفينة والأخرى.

وقد أهداني ذلك الكتاب قبل ما يقرب من سبع سنوات، وكان كتاباً رائعاً، حَرَّر فيه كثيراً من المسائل المهمة في ذلك الفن.

ولما أخذت الكتاب من مكانه شرعت في تقليب صفحاته أمام صاحبنا، فوقع بَصَرُه على بعض علامات الاستفهام التي وضعتها لما قرأتُ الكتاب فَوْرَ وصولِه إليّ؛ فسألني صاحبي عن هذه العلامات، وماذا تعني؟

فقلت له: لقد طال بي العهد ونسيت، ولكن ربما كانت بسبب وجود شيء من العبارات أو المناقشات التي تحتاج إلى بعض التلطيف.

فهز صاحبي رأسه، وقال ـ بكل نزاهة وصدق ـ: بل هذا هو الصحيح، ولو استقبلت من أمري ما استدبرت للطَّفْتُ العبارة، وإذا أعدت طبع الكتاب مرة أخرى، فسأفعل ذلك.

ثم قال: «لا يندم صاحب المَنْطِق العَفِّ».

ثم تجاذبنا أطراف الحديث في ذلك الشأن، وأنه لا يلزم من بيان الحق،

أو المخالفة في الرأي أن يتعصب الإنسان لرأيه، أو أن يستعدي مخالفيه بكل حال، أو أن يستسلم لعوارضه النفسيّة وقت الكتابة أو المناقشة؛ فالإنسان كلما زاد علمه، وتقدم سِنُّه اتسعت رحمته وحلمه.

ولقد أفدت من حديث ذلك الصاحب النزيه أيما فائدة، وذلك بأن ينظر الإنسان في عواقب أمره، وأن يستحضر أن الرفق لا يكون في شيءٍ إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه، وأن عِفَّةَ اللسانِ والقلمِ نعمةٌ يهبها الله لمن يشاء من عباده، والراحمون يرحمهم الرحمن.

٤٠ ـ القياس الفاسد

لعل من أعظم أسباب الضلال الذي وقعت فيه الأمم في شتى أمورها ـ القياسَ الفاسد.

والقياسُ الفاسدُ ـكما يقول ابن تيميةـ هو تشبيه للشيء في بعض الأمور بما لا يشبهه فيه؛ فمن عَرَفَ الفَصْلَ بين الشيئين اهتدى للفرق الذي يزول به الاشتباهُ والقياسُ الفاسدُ.

ويقرر رحمه الله أنه ما من شيئين إلا ويجتمعان في شيء، ويفترقان في شيء؛ فبينهما اشتباه واشتراك من وجه، وافتراق من وجه؛ فهذا التشابه إنما يكون لقدر مشترك بين الشيئين مع وجود الفاصل بينهما.

وأن ضَلالَ بني آدم من قبل التشابهِ، والقياسُ الفاسدُ لا ينضبط.

ويقول الإمام أحمد رحمه الله: «أكثر ما يخطئ الناس من جهة التأويل والقياس».

وإليك صوراً متفرقة مما يقع فيه الخطأ والضلال بسبب القياس الفاسد.

١ ـ **قياس الخالق بالمخلوق**، وهذا باب يطول الحديث عنه، وكتب العقائد مليئة بتفنيد ذلك وإبطاله.

وقد قاد ذلك القياسُ فريقين من الناس إلى الضلال: فريقاً مَثَّل الخالق بالمخلوق، فَمَثَّل صفاتِ الخالق الكامل ـجل وعلاـ بالمخلوق الناقص.

وفريقاً عطَّل صفات الخالق، ونفاها؛ فراراً من التمثيل بزعمه.

والحق وسط بين هاتين الضلالتين؛ فهو إثبات بلا تمثيل، وتنزيه بلا تعطيل.

٢ـ قياس دين الكنيسة المحرف على دين الإسلام السالم من النقص والتحريف؛ فكم من الناس في العصور الحديثة من ضل بسبب هذا القياس، فتراهم يقررون أن أوربا إنما تطورت، وبلغت أوج مجدها وحضارتها بسبب أخذها بالعلمانية، وتركها للدين الذي هو رمز التخلف، والخرافة.

وبناءً على ذلك فإن أمة الإسلام إذا أرادت الخروج من تيهها، والنهوض من كبوتها وتخلفها ـ فما عليها إلا أن تُنَحِّيَ الدينَ جانباً، وتأخذَ بما أخذت به أوربا.

ولا شك أن هذا قياس من أبطل أنواع القياس؛ لأن أوربا تركت دينها المحرف الذي يقوم على الطغيان الكنسي، ومحاربة العلم، والتسلط على الناس؛ فلا غرو ـإذاًـ أن تتطور أوربا إذا تخلت عنه، وأخذت بأسباب العلم المادي التجريبي.

أما أمةُ الإسلامِ فَدِينُها يأمرها بالعلم، والجد، والأخذ بالأسباب، وكانت تقود العالم لما كانت آخذةً به.

فلما قلَّ أَخْذُهَا بالدين دبَّ إليها الضعف، والخمول، والصغار.

وإذا أرادت النهوض فلترجع إلى دينها؛ ليعود لها سالف مجدها وعزها.

فانظر إلى هذا القياس كم جر من ويلات، وأفسد من عقولٍ؛ خاصةً وأنه تزامن مع ضعف الخلافة الإسلامية، وقوة الحضارة الغربية.

٣ـ القياس في معاملة الرب على معاملة الخلق؛ فكم من الناس من إذا أذنب ثم تاب، ثم تكرر ذلك منه أيس من التوبة، وظن أنه

ممن كتبت عليه الشقاوة؛ إذ كيف يتوب ثم يعود مراراً؟

وهل يرضى أحدٌ من الناس أن نخطئ في حقه ثم نعتذر إليه، ثم نرجع إلى الخطأ مراراً، ثم نعود فنعتذر؟

لن يقبل مثلَ ذلك أحدٌ من الناس مهما بلغ من الحلم، والصبر.

فكيف نعامل الرب بهذا المقتضى نتوب، ثم نعود إلى الذنوب مع أنه -عز وجل- يفيض علينا نعمه الظاهرة والباطنة التي لا تُحصى؟

هكذا يتصور بعضُ الناس تلك القضية، فتراه بعد ذلك إذا أسرف على نفسه، ثم تاب، ثم عاد مرة أخرى - أَيِسَ من التوبة، والمغفرة بتلك الحجة السابقة.

ولا ريب أن ذلك قياس فاسد؛ إذ كيف يقاس العبد المخلوق الضعيف الناقص بالخالق المعبود الكامل الحليم الذي وسعت رحمته كل شيء، والذي يبسط يده بالليل؛ ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار؛ ليتوب مسيء الليل، والقائل: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ (الزمر:٥٣).

والقائل: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (النساء:١١٠).

والقائل: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ (الأعراف:١٥٦).

والقائل في الحديث القدسي: «**يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعاً، فاستغفروني أغفر لكم**».

والنصوص في هذا السياق لا تكاد تحصى؛ فكيف يقاس هذا بهذا؟!

٤ـ القياس في معاملة الناس، فترى في الناس من يخطئ في معاملة بني جنسه سواء كانوا أبناءه، أو أقاربه، أو أصدقاءه؛ فتراه يريد أن يكونوا جميعاً على سُنَّةٍ واحدة في الصبر، والتحمل، والوفاء، والسماحة، والبر، وما جرى مجرى ذلك.

وقد غاب عنه اختلاف الطبائع، والأذواق؛ فتراه ينزعج إذا رأى من فلان قلة صبرٍ، أو وفاءٍ، أو سماحةٍ، أو شكرٍ؛ بحجة أنه تعامل مع شخص آخر من الناس فلم يجده ذا جزعٍ، ولا كنودٍ، ولا شدة، ولا جحودٍ.

وهذا خلل سببه القياس الفاسد؛ لأن الناس يختلفون ـكما مرـ ولا ينضبط قياس بعضهم ببعض من كل وجه؛ فلو حاكمهم إلى ما أَوْدَعَ اللهُ فيهم من خصائص، وطبائع، وميزات لكان ذلك خيراً وأحسن تأويلاً، ولأراح نفسه من كثرة لومهم، وتحميلهم ما لا يطيقون.

٥ـ القياس في شأن الخِطْبة: فيحصل كثيراً أن يستشير أحدٌ من الناس في مسألة خِطْبَةِ مُوْلِيَّتِه؛ فَيَسْأَل بَعْضَ مَنْ يَثِقُ بعلمهم، ودينهم، وأمانتهم عن ذلك الخاطب؛ فيسألَ عن دينه، وخلقه، ونحو ذلك من المعايير التي تُرَغِّب في الخاطب؛ فإذا أجاب المستشار عن ذلك قال له المستشير: لو خطب ذلك الخاطبُ ابنَتَك هل تعطيه؟!

فهذا السؤال قد لا يكون مقبولاً، وقد يكون من القياس الفاسد؛ لأنَ كون الخاطب يناسب فلانة من الناس لا يعني أنه يناسب غيرها؛ لأن الأمور لا تنضبط على كل حال؛ لاختلاف السن، والملائمة،

والخاطب، والمخطوبة، والأسرة، ونحو ذلك.

فلو أن السائل اكتفى بما يورده من أسئلة، ونَظَرَ في حال موليته، ومدى ملاءمتها لذلك الخاطب لكان أولى.

والأعجب من ذلك أن يسألك شَخْصٌ لا تعرفه عن شخص آخر لا تعرفه إلا بالوصف، فتشير إشارة عامة بأنه ملائم مثلاً، فيقول: ولو خطب ابنتك هل توافق عليه؟

فهذه أمثلة يتبين من خلالها أن القياس الفاسد من أعظم أسباب الضلال في البشر.

٤١ـ القول السديد

قال الله ـتعالى ـ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾ (الأحزاب).

والحديث ههنا سيكون في مجمله حول هداية قوله ـتعالى ـ: ﴿ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ ففي سورة الأحزاب بعد أن نهى الله المسلمين عما يؤذي النبي ﷺ ورَبأ بهم أن يكونوا مِثْلَ الذين آذوا رسولهم ـ وجَّه إليهم بعد ذلك نداءً يأمرهم فيه بتقواه في جميع أحوالهم، وندبهم إلى القول السديد.

وابتداء الكلام بنداء الذين آمنوا للاهتمام به، واستجلاب الإصغاء إليه.

ونداؤهم بالذين آمنوا لما فيه من الإيماء إلى أن الإيمانَ يقتضي أنهم سيمتثلون ما سيؤمرون به؛ ففيه تعريضٌ بأن الذين صدر منهم ما يؤذي النبي ﷺ قصداً ليسوا من المؤمنين في باطن الأمر، ولكنهم منافقون، وتقديمُ الأمر بالتقوى مشعرٌ بأن ما سيؤمرون به مِنْ سديد القول ـ هو مِنْ شُعَبِ التقوى كما هو مِنْ شعب الإيمان.

فما القول السديد الذي يترتب عليه إصلاح الأعمال، ومغفرة الذنوب، وما سبب كونه داخلاً في طاعة الله ورسوله، تلك الطاعة التي يترتب عليها ذلك الفوز العظيم؟

والجواب أن القول: هو الكلام الذي يصدر من فم الإنسان يعبر به عما في نفسه.

والسديد: هو الذي يوافق السدادَ، والسدادُ هو الصواب، والحق، ومنه تسديد السهم نحو الرَّمِيَّة، أي عدم العدول عن سَمْتِها بحيث إذا اندفع أصابها.

فيدخل في القول السديد ما لا يُسْتَطَاع حَصْرُه من شعب الإيمان القولية، وما يندرج تحتها من الأقوال الواجبة، والأقوال الصالحة.

وأعلى ذلك كلمة التوحيد؛ فهي القول السديد، والكلمة الطيبة، وكلمة السواء، والطيب من القول إلى غير ذلك من أسمائها الكثيرة العظيمة.

ويدخل في القول السديد: قراءة القرآن، وإقراؤه، ورواية حديث الرسولﷺ وذِكْرُ الله من تحميد، وتمجيد، وتسبيح، وتكبير، واستغفار، وحوقلة، وبسملة، وصلاة على النبيﷺ.

ويدخل في القول السديد تعلمُ العلم، وتعليمه، والدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإصلاح ذات البين، وبذل النصح للمسلمين، وإفشاءُ السلام، وقولك للمؤمن إني أحبك.

ومن القول السديد نشرُ أقوال الصحابة، والعلماء، والحكماء، وأئمة الفقه.

ومن القول السديد الأذانُ، والإقامة، والدعاء، ولينُ الكلام، ولطفه في مخاطبة الأنام ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ (البقرة:٨٣).

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ (الإسراء: ٥٣).

ومن القول السديد كَرَمُ القول للوالدين، وخفض الجناح أثناء الحديث معهما ﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾ (الإسراء).

ومن القول السديد ملاطفةُ أولي القربى، واليتامى، والمساكين إذا حضروا قسمة الميراث، قال الله ـتعالى ـ: ﴿ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾ ﴾ (النساء).

ثم قال ـتعالى ـ مبيناً أن مصيرَ ذريةِ الأغنياء من بعدهم ربما يكون كمصير أولئك اليتامى والمساكين: ﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَـٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ ﴾.

ومن القول السديدِ استعمالُ العبارات المأنوسة اللائقة البعيدة عن هُجْرِ القول ومرذوله.

ومن القول السديدِ صدقُ اللهجة، وتعديلُ المخاطبات، وإلباسُ المعاني أثواباً حسنة من الألفاظ.

وهكذا يتبين لنا أن القول السديد شامل لأفراد كثيرة، وأنه سبب لصلاح الأعمال، ومغفرة الذنوب، وكسب القلوب، ووأد العداوات.

كما أن الإخلالَ به سببٌ لفسادِ الأعمال، وعدمِ قبولها، وعدمِ ترتبِ الآثار الطيبة عليها.

فهذا شيء مما يوحي به قوله ـتعالى ـ: ﴿ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴾.

٤٢ـ وليتك تسلم

جاء في كتاب عين الأدب والسياسة وزين الحسب والرياسة لعلي ابن عبدالرحمن بن هذيل ص١٥٥ـ١٥٦ ما نصه: «لما قدم حاتم الأصم إلى أحمد بن حنبل قال له أحمد بعد بشاشته به: أخبرني كيف التخلص إلى السلامة؟

فقال له حاتم: بثلاثة أشياء.

فقال أحمد: ما هي؟

قال: تعطيهم مالَك ولا تأخذ مالَهم، وتقضي حقوقهم ولا تطالِبُهم بقضاء حقوقك، وتصبرُ على أذاهم، ولا تؤذيهم.

فقال أحمد: إنها لصعبة!

قال حاتم: وليتك تسلم».

ففي هذا الأثر درس عظيم لمريد السلامة، وعزاءٌ كبير لمن يَلْقَى ما يَلْقَى من جفاء الناس، وكنودهم خصوصاً من كان رأساً مطاعاً، أو كبيراً في قومه، أو مقدماً لدى طائفته، أو مقصداً لمن ينتجع نائله، ويؤمل سَيْبَهُ، أو شفاعته، أو إصلاحه.

فالإمام أحمد رحمه الله إمام الدنيا في عصره، ومحلُّ الثقة والقبول لدى الخاصة والعامة، ومضربُ المثل في الزهد، والعلم، والورع، وهو الذي يُرجى خيرُه ونَفْعُه، ويُؤْمَنُ جانِبُهُ، ولا يخشى شرُّه أو ضررُه.

ومع ذلك كله فهو يسعى إلى السلامة، ويستنصح حاتمَ الأصمَّ في ذلك؛ لعلمه أن السلامة لا يعدلها شيء، ولكونه يلاقي ما يلاقي

من أذية الناس.

وفي ذلك درس عظيم ألا وهو أن يحرص الإنسان على ألا يَكْبُرَ في نفسه أذيةُ الناس له، أو فهمُهم الخاطئ لمواقفه، أو جحودهم لشيء من فضله وهم يرونه رأيَ العين، وأن يستحضر أن السلامة بعيدة المنال خصوصاً لمن كان متصدراً لجلائل الأعمال.

ليس يخلو المرء من ضد ولو حاول العزلة في راس جبل

بل اللائق به أن يصبر، ويصابر، ويحتسب الأجر، ويستحضر أن ذلك الأذى سببٌ لرفعِ درجاته، وحطٌ سيئاته، وصلابةِ عوده، وقوة جنانه.

وليدرك أن الأذى يصيب الرأس غالباً، وأن ذلك لا يُنْزِلُ من قدره، بل يزيده رفعة وعلواً كما قال أبو الطيب:

لا يسلمُ الشرفُ الرفيعُ من الأذى حتى يراقَ على جوانبه الدمُ

وقال:

إن السيادة والرياسة والعُلى أعباؤهنَّ كما علمت ثِقالُ

وقال حبيب الأعلم الهذلي:

وإن سيادة الأقوام فاعلم لها صُعُداء مطلعها طويل

والعرب في الجاهلية يسمون كبيرَ القومِ ورئيسَهم السيدَ المُعَمَّم؛ لأن كلَّ جناية من جنايات القبيلة معصوبة بعمامته وبرأسه، فالسيد حقاً هو الذي يفوق قومه في الخير، وهو الذي يفزعون إليه في النوائب والشدائد، فيقوم بأمورهم، ويحمل مكارههم، ويدفعها عنهم

وإذا نظرنا إلى سيرة خير البشر محمد ﷺ وجدنا أنه قد بلي بأنواع شتى من الأذى، والبلاء، سواء في بدنه، أو عرضه، أو في أهل بيته.

وكان هيناً على الله أن يصرف عنه الأذى جملة، ولكنها سنة الابتلاء يؤخذ بها الرسول الأكرم؛ ليستبين صبره، ويعظم عند الله أجره، وليتعلم أتباعه من بعده كيف يقتحمون الشدائد، ويصبرون على ما يلاقون من الأذى صغيراً كان أو كبيراً.

٤٣ـ إلا الحماقة

جاء في أثر إسرائيلي أن المسيح ـعليه السلامـ قيل له: «يا روح الله! إنك تبرئ الأكمه والأبرص، وتحيي الموتى بإذن الله ـ فما الداء الذي أعياك علاجه؟ قال: الحماقة».

وقال الحكيم العربي:

لكــل داءٍ دواءٌ يُــسْتَطَبُّ بــه ... إلا الحماقةَ أعيت من يداويها

فإذا بلي الإنسان بالحمق ضاعت عليه مصالحه، وانفض عنه أصحابه، ونفر منه أقرب الناس إليه.

وإذا زادت الحماقة أوشك صاحبُها أن يقتل نفسه، أو يضيِّعَ ماله، أو يخسر أعز الأشياء إليه.

ولهذا فإن من الحكمة أن تنأى عن الأحمق، وأن تتجنب التعامل معه، أو القرب منه.

فإذا بليت بالتعامل مع أحمقَ فاحرص على أن تَلْبَسَ مِجَنَّك، وأن تخرج من ذلك المأزق لا لك ولا عليك، أو بأقل خسارة ممكنة.

أما إذا جاريت الأحمقَ في حمقه، ووضعت نفسك في مصافِّه فأبشر بطول ندامة، وعِظَم خسارة.

٤٤ـ سلة المحذوفات

في إحدى المحاضرات في الجامعة كان الحديث مع بعض الطلاب يدور حول شدة الحساسية من بعض المواقف والكلمات، وأذكر أنني قلت لهم: إنه يحسن بالإنسان أن يكون عنده سلة محذوفات في ذاكرته يرمي بها زبالات يومه مما مر به من كلمات جارحة، أو مواقف مُخفقة، أو نظرات مُثبِّطة، أو خواطر سيئة، أو ما شابه ذلك وما جرى مجراه.

وبعد فترة جرى اتصال بيني وبين أحد الطلاب وقال: لقد جربت سلة المحذوفات، وتغير كثير من أحوالي.

فقلت له: وكيف ذلك؟

فقال: لقد كنت شديدَ الحساسية، مرهفَ الحس، لا أكاد أحتمل أدنى كلمة تقال في حقي؛ بل إن الأمر وصل بي إلى حد أنني لا أتحمل مدحاً ولا قدحاً؛ فالذي يمدحني، ويثني عليَّ أخشى أن يصيبني بعينه.

وفي الوقت نفسه لا أطيق الذي ينتقدني، ويقدح بي، فلا أفرح بالثناء الصادق، ولا أفيد من النقد الهادف.

كما أنني لا أكاد أنسى ما يمر بي من مواقف وأخطاء تصدر مني أو في حقي؛ فإذا وقعت في خطأ أفرطت في جلد ذاتي، وإذا أخطأ أحد في حقي بالغت في تضخيم الخطأ واجتراره؛ فصارت حياتي جحيماً لا يطاق، وصرت كَلاً على نفسي وعلى من حولي.

ولما طرق سمعي أول مرة مصطلح (سلة المحذوفات) حاولت الأخذ به، وحرصت على ألا أُحَمِّل نفسي فوق طاقتها، واستحضرت بأنني لست وحدي في هذا المجال، وأن كلَّ أحد من الناس معرض لكل

وارد، وصرت إذا سمعت كلمة مؤذية أو هجم عليَّ خاطر سيئ، أو تصرفت تصرفاً خاطئاً ـ أحاول تناسيه، وأصرف همتي فيما يعنيني من عملي الحاضر أو المستقبل، فأفدت من ذلك كثيراً، وخففت عن عاتقي أثقالاً كان ينوء بحملها.

فهذه تجربة ذلك الطالب مع سلة المحذوفات التي أضافها إلى ذاكرته، وصار يرمي فيها كلَّ أمر يصده عن الترقي في مدارج الكمالات، ويقوده إلى التعاسة واستدعاء الفاسد من الأوهام والخيالات.

٤٥ـ التحليل

كثيراً ما يتجاذب الناس أطراف الأحاديث في مجالسهم، ومنتدياتهم، وكثيراً ما تتناقل وسائل الإعلامِ الأخبارَ، والوقائع.

ولا ضير في ذلك؛ فالناس يتلهفون لسماع الجديد، ويترقبون ما سيكون في غدٍ، وقديماً قال طرفة:

.... ويأتيك بالأخبار من لم تزودِ

وإنما يقع الخللِ في نقل الأخبار، وتحليلها، ولهذا ترى أن اثنين من الناس ينقلون خبراً واحداً، وبينهما في ذلك النقل ما بين السماء والأرض.

ثم إن تحليل الخبر، وتعليله، وتهويله، أو تهوينه ـ يُغَيِّبُ جانباً من الحقيقة.

كما أن فصل الخبر عن زمانِه، ومكانِه، ورَبْطَهُ بخبر آخر، أو بَتْرَ جزءٍ منه ـ قد يَقْلِبُ الأمر رأساً على عقب.

وكثيرٌ من الناس لا يكتفي بنقل الخبر كما هو، وإنما يضفي عليه شيئاً من هواه ومزاجه، ويضيف إليه ما قد يصرفه عن حقيقته الأصلية كأن يهوِّل، أو يُهَوِّن بإشارة، أو تعريض، أو نبرة صوت، أو ما جرى مجرى ذلك.

وأقبح ما في ذلك أن يتعمد الكذب، خصوصاً إذا كان بينه وبين أحد الأطراف المنقول عنهم عداوة.

يقول الأستاذ محمد كرد علي رحمه الله في مذكراته ٣/٧٢٠ عن شيخه الشيخ طاهر الجزائري رحمه الله: «كثيراً ما رأيته يغضب على من يستنبطون من الحوادث ما يخطر لهم بادي الرأي، وكان يشير إلى أن يذكروا الحادث كما جرى وسمعوه، ويتركوا الاستنباط والتعليل لغيرهم».

لذا كان لزاماً على من دعته الحاجة إلى سَوْق خَبَرٍ أن يتوخى فيه الصدق، ويتحرى الحق؛ فإن الكلام حينئذ يملكَك، ويحوجك إلى اتباعه، والانقياد له -كما يقول أبو هلال العسكري-.

ولا ريب أن التفريط في هذا الأصل سبب لقيام العداوات، والمنازعات، والمنافرات.

٤٦ـ ثقافة المشي

المشي رياضة قديمة مجمع على فائدتها عند الأطباء، معروفة عند العظماء والحكماء والدَّهْماء.

والحديث ههنا خواطرُ حول المشي، وذِكْرٌ لبعض فوائده، والمُلَح، والأخبار فيه؛ إذ كثيراً ما يقرأ الإنسان عن المشي، أو تمر به مواقف حوله سواء كان ذلك في كتب الطب، أو السير، أو المواقف العامة، أو نحو ذلك.

المشي عند الأطباء: أما الأطباء فَيُجْمِعُون على فائدة المشي، وأَثَره في زيادة قوة الإنسان، وحفظِ صحته، وتأخيرِ شيخوخته، وتقويةِ ذاكرته، وتناسقِ جسمه، ورفعِ طاقته، وتقليلِ أمراضه، وسرعة شفائه من بعضها.

كما أنه مفيدٌ للصغير، والكبير، والصحيح، والمريض، والرجل، والمرأة.

ويوصف علاجاً لمرضى السُّكَّري، والكوليسترول، وضغط الدم، والقولون، بل يصفونه للمرضى الذين يعانون من اضطرابات نفسية.

وينصحون بأن يكون المشي بحذاء مناسب، وفي مكان مناسب بعيدٍ عن الضوضاء، وعوادم السيارات.

وينصحون باختيار اللباس الفضفاض، وتجنب أشعة الشمس أثناء المشي.

ويرون أنه ينبغي للإنسان أن يقوم بالمشي مدة لا تقل عن عشرين

إلى ثلاثين دقيقة أربع مرات في الأسبوع.

وكما يحث الأطباء على المشي فإنهم يحذرون من عاقبة الخمول، وأخطار الكسل، وقلة النشاط البدني؛ فزيادة على كونه يؤدي إلى ضعف الطاقة، وقلة القدرة على القيام بالأعمال بكفاءة ـ فإن له آثاراً صحية خطيرة كزيادة احتمال الإصابة بداء السكري، وأمراض شرايين القلب، وزيادة احتمال الإصابة بالجلطة، وارتفاعِ نسبة الكوليسترول، وارتفاعِ ضغط الدم، وزيادةِ احتمال الإصابة بهشاشة العظام، وآلام المفاصل، وضعفِ المناعة، وتكرار نزلات البرد، والالتهابات التنفسية، وزيادة احتمال الإصابة بأمراض السرطان.

ثم إن للمشي من بين سائر الرياضات مزايا عديدةً منها أنه أكثر أنواع النشاط البدني ممارسة على الإطلاق، وأنه النشاط الذي يمكن دَمْجُ المزيدِ منه في الحياة اليومية، ويمكن مزاولته في أي وقت، وأي مكان، وأنه غير مكلف، ولا يحتاج إلى زيٍ، وتجهيزات، أو معدات، أو وقت للتحضير للبدء فيه مقارنة بالرياضات الأخرى.

كما أنه يمكن مزاولتهُ بصفةٍ فردية، أو جماعية، ويصحبه قدرٌ كبير من هدوء الأعصاب.

كما أنه خالٍ نسبياً من الإصابات مقارنة بغيره من أنواع الرياضات.

كما أن له دوراً كبيراً في تعزيز العادات الصحية؛ فله علاقة بتحسين الشهية، وتنظيم الهضم، وتحسين نوعية النوم.

وله دور ـ كذلك ـ بصفاء الذهن، وراحة البال، وتقوية الإرادة.

وهو الرياضة الوحيدة تقريباً التي يستطيع ممارستها كلُّ أصحاب الأوزان.

إلى غير ذلك مما يورده أهل الاختصاص من الأطباء في ذلك الشأن.

المشي في السيرة النبوية: إذا نظرت في السيرة النبوية وجدت صفة مشي النبيﷺ ومن خير من تكلم على تلك الصفةِ الإمامُ ابن القيم في كتابه العظيم زاد المعاد، حيث عقد رحمه الله فصلاً في هديه ﷺ في مشيه وحده ومع أصحابه.

قال رحمه الله: «كان إذا مشى تكفَّأ تكفُّؤاً، وكان أسرعَ الناس مشيةً، وأحسنها وأسكنها.

قال أبو هريرة: ما رأيت شيئاً أحسنَ من رسول الله ﷺ كأن الشمس تجري في وجهه، وما رأيت أحداً أسرع في مشيته من رسول الله ﷺ كأنما الأرض تطوى له، وإنا لنجهد أنفسنا، وإنه لغير مكترث.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: كان رسول الله ﷺ إذا مشى تكفّأ تكفُّؤاً كأنما ينحطُّ من صَبَبٍ.

وقال مرة: إذا مشى تقلّع، قلت: والتقلُّع: الارتفاعُ عن الأرض بجملته، كحال المنحط من الصبب، وهي مِشية أولي العزم والهمة والشجاعة، وهيَ أعدلُ المِشيات، وأروحُها للأعضاء، وأبعدُها من مِشية الهَوَجِ والمهانةِ والتماوتِ؛ فإن الماشي إمَّا أن يتماوت في مشيه ويمشي قطعة واحدة كأنه خشبة محمولة، وهي مِشية مذمومة قبيحة، وإمَّا أن يمشي بانزعاج واضطراب مشي الجمل الأهوج، وهي مِشيةٌ مذمومة ـأيضاًـ وهي دالة على خِفَّة عقل صاحبها، ولا سيما إن

كان يُكثِرُ الالتفات حال مشيه يميناً وشمالاً، وإمَّا أن يمشي هَوْناً، وهي مِشية عبادِ الرحمن كما وصفهم بها في كتابه فقال: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ (الفرقان: ٦٣).

قال غير واحد من السلف: بسكينة ووقار من غير تكبُّر ولا تماوت، وهي مِشية رسول الله ﷺ فإنه مع هذه المِشية كان كأنما ينحط مِنْ صَبَب، وكأنما الأرضُ تُطوى له حتى كان الماشي معه يُجْهِدُ نفسَه ورسولُ الله ﷺ غيرُ مُكْترِث.

وهذا يدل على أمرين: أن مِشيته لم تكن مِشيةً بتماوت، ولا بمهانة، بل مشية أعدل المشيات».

إلى أن قال ابن القيم رحمه الله مبيناً أنواع المشيات: «والمشيات عشرة أنواع، هذه الثلاثة منها، والرابع: السعي.

والخامس: الرَّمَلَ: وهو أسرعُ المشي مع تقارب الخُطَا، ويسمى: الخَبَب.

وفي الصحيح من حديث ابن عمر أن النبي ﷺ: «خَبَّ في طَوافِهِ ثلاثاً، ومشى أربعاً» رواه البخاري ومسلم.

السادس: النَّسَلان: وهو العَدْو الخفيف الذي لا يُزعج الماشي، ولا يَكْرِثُهُ.

وفي بعض المسانيد أن المشاة شَكَوْا إلى رسول الله ﷺ من المشي في حجة الوداع، فقال: «استعينوا بالنَّسَلان».

والسابع: الخَوْزَلى: وهي مِشية التمايل، وهي مِشية يقال: إن فيها تكسراً وتخنثاً.

والثامن: القهقرى: وهي المشية إلى وراء.

والتاسع: الجَمَزَى: وهي مِشية يَثِبُ فيها الماشي وثباً.

والعاشر: مِشية التبختر: وهي مِشية أُولي العجب والتكبُّر، وهي التي خَسَفَ اللهُ -سبحانه- بصاحبها لما نظر في عِطْفَيْهِ وأعجبته نفسُه، فهو يتجلجلُ في الأرض إلى يوم القيامة.

وأعدلُ هذه المِشيات: مِشية الهَوْن والتكفُّؤ».

ثم أضاف مبيناً كيفية مشي النبيﷺ فقال: «وأما مشيه مع أصحابه فكانوا يمشون بين يديه وهو خلفهم، ويقول: «دَعُوا ظَهْرِي لِلْمَلائِكَةِ» ولهذا جاء في الحديث: وكان يسوق أصحابه.

وكان يمشي حافياً ومنتعِلاً، وكان يُماشي أصحابه فُرادى وجماعة، ومشى في بعض غزواته مرة فَدميت أصبُعُه، وسال منها الدمُ، فقال:

هَلْ أَنْتِ إلا أُصْبُعٌ دَمِيتِ وَفِي سَبِيلِ اللهِ مَا لَقِيتِ

وكان في السفر ساقَةَ أصحابه يُزجي الضعيفَ، ويُردفه، ويدعو لهم، ذكره أبو داود» انتهى كلام ابن القيمرحمه الله.

وكان - عليه الصلاة والسلام - يقطع المسافات الطويلة في مشيه إذا احتاج إلى ذلك، بل إنه ليجد في المشي سلوة وراحة كما حصل له عندما عرض نفسه على أهل الطائف، فأغروا به سفهاءهم، فخرج هائماً على وجهه، ولم يستفق إلا وهو بقرن الثعالب.

وتقدر تلك المسافة بما يزيد على أربعين كيلاً.

المشي عند الأمم: وإذا نظرت في تاريخ البشر وجدت أن للمشي مكانة عند سائر الأمم؛ فالمشي يعد من أهم وسائل الانتقال من

مكان إلى مكان، فقد يضطرون إليه اضطراراً لا اختياراً.

ومن أبرز من عرف عنهم العناية بالمشي وبالرياضة عموماً أمة اليونان؛ فهم يعتنون بذلك، ويضعون له المسابقات.

بل إن الفلسفة النظرية العقلية التي تتم بالاستدلال البرهاني، أو النظر الاستنباطي تسمى الفلسفة أو المدرسة المشّائية.

وإنما سميت بذلك نسبة إلى رائدها أرسطو المقدوني الذي يعد أبرز تلامذة أفلاطون.

وسميت فلسفته بالمشائية؛ لأنه كان يُعَلِّم أتباعَه وتلاميذَه، ويلقي عليهم الدروس وهو يمشي؛ تعظيماً لشأن الفلسفة.

وكان العرب يتداوون بالمشي، ويصفونه علاجاً لبعض العلل.

ومما يذكر في هذا أن عمرو بن معدي كرب شكا إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب النِّقرسَ -وهو ورم ووجع في مفاصل الكعبين وأصابع الرجلين-.

فقال له عمر ﷺ: «كذَّب عليك مشي الظهائر».

أي عليك بالمشي في الظهائر، وهي جمع ظهيرة، وهي ما ظهر وارتفع من الأرض.

ويُذكَرُ أن عمرو بن معدي كرب اشتكى إلى عمر بن الخطاب المَعْص -وهو التواء عصب الرجلِ-.

فقال له عمر ﷺ: «كذَّب عليك العَسْل».

يريد العَسَلان: وهو مشي الذئب، أي عليك بسرعة المشي.

المشيُ عند العلماء: لقد كان من دأب كثير من العلماءِ المشيُ، حيث يجدون فيه سلوة، وراحة، وإطلاقاً للخيال، وتفكراً في ملكوت السموات والأرض.

. ومن يذكر في هذا الصدد العلامة الشيخ طاهر الجزائري ١٢٦٨هـ - ١٣٣٨هـ رحمه الله.

يقول عنه تلميذه الأستاذ محمد كرد علي رحمه الله: «ويهوى السير على الأقدام للتريض، ولطالما قطع عشرات الأميال بين المدن، والجبال، والقرى، والأودية سائراً على قدميه، وقد يراه في الطريق بعض أصحابه، أو من لا يعرفه، ويدعونه إلى الركوب في مركباتهم، أو على متون دوابهم، فيأبى؛ لأنه لا يحب أن ينقض ما أبرمه، ونفسه تتوق إلى السير ماشياً؛ فأيُّ معنىً للركوب؟».

وكان سماحة شيخنا العلامة الإمام عبدالعزيز ابن باز يحب رياضة المشي، وكان كثيراً ما يمشي خصوصاً قبل إصابة قدمه في شهر شعبان عام ١٤١٤هـ.

فكان رحمه الله يمشي من بيته إلى المسجد ولو بعدت المسافة.

ولما كان في المدينة كان بيته يبعد عن الحرم مسافة تزيد على الكيلو متر، وكان يسير إلى المسجد على قدميه إلا إذا خاف فوات الوقت.

وفي الرياض بعد ما جاء من المدينة في نهاية ١٣٩٥هـ صار إماماً للجامع الكبير في الرياض قُرْبَ قصر الحكم، وسكن في بيت سماحة الشيخ محمد ابن إبراهيم رحمه الله وكان يمشي من بيته إلى المسجد مع أن المسافة كانت كيلو متر تقريباً.

ولما سكن بيته الذي يقع في حي البديعة في الرياض كان يسير من بيته إلى المسجد الذي يقع غربي بيته على قدميه.

وفي مكة المكرمة كان يمشي من بيته الذي يقع في العزيزية إلى المسجد الذي يقع في الجهة الشرقية في أغلب الأحيان.

ويقول رحمه الله : إنني رتبت وقتاً للمشي مدة تتراوح ما بين ربع ساعة إلى نصف ساعة كل يوم، وذلك قبل النوم، وفي الصباح بعد المجيء من الدرس، وبعد القيام من مكتب البيت في الصباح؛ حيث كان سماحته يمشي في الغرفة، أو بين البيوت.

ولعل ذلك من أسباب تمتعه بالصحة والعافية إلى أن فارق الدنيا عام ١٤٢٠هـ وعمره تسعون سنة؛ فكان رحمه الله يتمتع بصحة جيدة في الجملة، فلم يكن يعاني من كثير من الأمراض التي كان يعاني منها من هو في سنه، أو في مكانته ممن يتصدون للناس، بل من هم أقل منه بكثير؛ فسماحته لم يكن مصاباً بمرض السُّكَّري، ولا بالضغط، ولا بالكوليسترول، ولم يكن يمتنع عن طعام، ولا يوجد معه مرض مزمن.

بل كان -مع كبره- يحب الطعام الحلو، فكان يحب الشاي الحلو، وكان ضمن عشائه حلاوة الطحينية، بل كان يأكلها منفردة بلا خبز أحياناً.

أما الأعراض التي تمر بالناس فقد تمر به إلا أنها لم تكن تعوقه، أو تلزمه الفراش، فالشيخ رحمه الله عاش ممتعاً بالصحة والعافية في الجملة،

عدا الأمراض العارضة التي مرت به.(١)

وكان سماحة شيخنا العلامة محمد بن عثيمين رحمه الله من هواة المشي، وكان يمشي يومياً قريباً من عشر كيلو مترات، حيث كان منزله يبعد عن المسجد مسافة كيلو متر، وكان يذهب إلى المسجد راجلاً، ويرجع راجلاً في أغلب أحواله، بل كان سريعاً في المشي، ولا يكاد بعض الشباب يلحق به إذا سار معه.

وكان يقول: «من ترك المشي تركه المشي».

ولعل ذلك من أسباب تمتعه بالصحة، والعافية إلى أن فاجأه مرضه الأخير.

هذا وإن المقامَ ليس مقامَ تفصيلٍ عن رياضة المشي، وإنما هي -كما مر- خواطر متناثرة، يراد منها الحث على تلك الرياضة اليسيرة ذات المنافع الكبيرة.

فإذا ضاق صدرك، أو تراكمت همومك، أو أَجْهَدْتَ فِكْرَكَ طيلة يومك - فَخُذْ ساعةً من الزمن تمارس فيها المشي.

---

١ - لعل المشي من أسباب صِحَّتِه، أما أعظم أسباب صحته فمحض فضل الله، ثم إقبال سماحته على ربه، وإكثاره من ذكره، وشكره، وعبادته، والإقبال عليه بشتى القربات، وحرصه على قضاء الحوائج، وتنفيس الكربات؛ فإن لهذه الأمور أبلغ الأثر في أن يمتع الإنسان بالعافية.

ثم إن هناك سبباً مباشراً في تمتعه بالصحة والعافية ألا وهو مزاج الشيخ المعتدل؛ فسماحته ليس من أهل الوهم، والمبالغة في تعظيم الأمور.

وهناك سبب -أيضاً- وهو اعتدال سماحته في مطعمه ومشربه.

ومع ذلك فقد مرت به أمراض شديدة في فترات من عمره؛ فلم يفارقه حلمه، ولا سكينته، ولا فَتَّتْ تلك الأمراض من عضده، ولا نالت من همته ولا خلقه.

وإذا كنت في بَرِّية أو مكانٍ فسيح فلا تحرم نفسك من وقتٍ تَسيرُ فيه على قدميك.

وإذا أردت الحديث مع أحد زملائك، أو طلب منك أحد أن يعرض عليك أمراً ما ـ فلا بأس أن يكون ذلك الحديث وأنت تسير مع صاحبك على الأقدام.

وإذا حضرتك الصلاة فلا تحرم نفسك من خطوات تمشيها إلى المسجد؛ لتنال بها رفعة الدرجات وحط السيئات، وتكسب بسببها صحة وعافية.

وإذا كنت تسير وحدكَ فَحَسَنٌ أن تحرك لسانك بذكر الله، أو تلاوة ما تيسر من كتابه الكريم.

وإذا حصل السير في مكان فسيح عام فبها ونعمت، وإلا فلا تحرم نفسك من خطوات تسيرها في منزلك، أو في المسجد، أو حول حَيِّك.

وإذا اعتراك ملل من المشي، أو تكاسل عنه ـ فاعلم أنك لست وحدك؛ فجاهد نفسك، وتغلب على ذلك الملل، واستحضر بأن أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل؛ فإن تكاسلت عن السير الطويل ـ فلا تحرم نفسك من القليل.

واستحضر النية في المشي، وأنك تكسب بسببه صحة تعينك على مزيد من الشكر لمولاك، والتقربِ إليه بالعبادة بكل يسر وراحة وطمأنينة.

هذا وإن مما يؤسف عليه أن ثقافة المشي في مجتمعاتنا لم تأخذ حظَّها، كما أن الممارسة العملية لتلك الثقافة قليلةٌ مقارنة بالأمم

الأخرى التي تدرك من ذلك الشيء الكثير، وتمارسه على صعيد الواقع ممارسة عملية مستمرة، حتى لكأنه جزء من نظامها في الحياة.

لذا فإن مظاهر السمنة، وسرعة الشيخوخة، وقلة الحركة، وانتشار الأمراض، وما يستتبع ذلك من آثار نفسية - صارت سمة بارزة في مجتمعاتنا، مما يؤذن بخطر عظيم؛ يستدعي أن تتكثف الدعاية لنشر ثقافة المشي، وتبيان فوائده.

٤٧ـ الصبر مِلاك الفضائل

الحديث عن الصبر حديث ذو شجون، فهو يبدأ ولا ينتهي سواء عن فضله، أو أنواعه، أو منزلته، أو ثمراته.

والكلام على الصبر ههنا أشبه ما يكون بالإشارات التي تدور حوله، والتي قد يُغْفل عنها في شأنه.

فالصبر ـ في أيسر تعريفاته ـ هو: حبس النفس عن شيء تحبه، أو حبسها على شيء تكرهه.

ويدخل تحت هذا التعريفِ: الصبرُ على طاعة الله، والصبرُ عن معصية الله، والصبر على أقدار الله المؤلمة.

ويدخل تحت ذلك من أفراد الصبر ما لا يحصى مما سيرد ذكر لشيء منه فيما يلي.

ولا ريب أن الصبر ملاك الفضائل؛ فإن الارتياض بالأخلاق الحميدة ـ كما يقول ابن عاشور ـ لا يخلو من حمل المرء نفسه على مخالفة شهوات كثيرة؛ ففي مخالفتها تعب يقتضي الصبر عليه؛ حتى تكون مكارم الأخلاق مَلَكَةً لمن راض نفسه عليها.

ثم إن الفضائل تنبعث عن مكارمِ الخلال، والمكارمُ راجعةٌ إلى قوة الإرادة، وكبحِ زمام النفسِ عن الإسامة في شهواتها عما لا يفيد كمالاً، أو عما يورث نقصاناً؛ فكان الصبرُ ملاكَ الفضائل؛ فما التحلم، والتعلم، والتقوى، والشجاعة، والعدل، والعفة، والكرم ونحوها ـ إلا من ضروب الصبر.

وأنت إذا تأملت وجدت أصل التدين والإيمان من ضروب الصبر؛ فإن فيه مخالفةَ النفس هواها ومألوفَها.

وأما فضل الصبر فحدث ولا حرج؛ إذ هو نصف الإيمان، فالإيمان شكر وصبر، والقرآن الكريم حافل بذكر الصبر؛ ذلك الخلقُ العظيم الذي أمر الله به، وأعلى مناره، وأكثر من ذكره في كتابه، وأثنى على أهلِه القائمين به، ووعدهم بالأجر الجزيل عنده.

قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾.

وقال: ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾.

وقال ـ عزو جل ـ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾.

وقال: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾.

وقال النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه: «ومن يتصبّر يصبّره الله، وما أُعطي أحدٌ عطاءً أعظمَ ولا أوسعَ من الصبر».

وقال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «وجدنا خيرَ عيشِنا بالصبر».

وقال: «أفضلُ عيشٍ أدركناه بالصبر، ولو أن الصبرَ كان من الرجال كان كريماً».

وقال أمير المؤمنين عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه: «الصبرُ مطيةٌ لا تكبو».

وقال الحسن رحمه الله: «الصبرُ كنزٌ من كنوز الخير، لا يعطيه الله إلا لعبد كريم عنده».

فإذا تحلى الإنسان بالصبر كان جديراً بأن يفلح في حياته، وأن يقدِّمَ الخيرَ العميمَ لأمته، ويتركَ فيها الأثرَ الكبيرَ.

وإن عَطُل من الصبر فما أسرعَ خورَه، وما أقل أثرَه.

ثم إن الإنسان - أيَّ إنسان - لا بد له من الصبر، إما اختياراً وإما اضطراراً؛ ذلك أنه عُرضةٌ لكثير من البلاء في نفسه بالمرض، وفي ماله بالضياع، وفي أولاده وأحبته بالموت، وفي حياتِه العامةِ بالحروبِ وتوابِعها من فقدان كثير من حاجاته التي تعوَّدها في حياته؛ فإذا لم يتعوَّدِ الصبرَ على المشاقِّ وعلى تركِ ما يألف ـ وقع صريع تلك الأحداث.

وكذلك حال الإنسان مع الشهوات؛ فهي تتزين له، وتغريه، وتتمثل له بكل سبيل؛ فإذا لم يكن معه رادعٌ من الصبر، ووازعٌ من الإيمان أوشك أن يتردى في الحضيض.

ومَنْ كان متصدياً للدعوة إلى الإصلاح، منبرياً للدفاع عن الحق - فما أشد حاجتَه إلى الصبرِ، وتوطينِ نفسِه على المكاره؛ فإن في ذلك السبيل عقبة كؤوداً لا يقتحمها إلا ذو الهمم الكبيرة؛ فإن في طوائف المبطلين أو المفسدين نفوساً طاغية، وأحلاماً طائشة، وألسنةً مقذعةً، وربما كان فيهم أيدٍ باطشةٌ، وأرجلٌ إلى غير الحق ساعية.

وإنما تعظم همةُ الداعي إلى الحق والإصلاح بقدر صبره، وبقدر ما يتوقعه من فقد محبوب، أو لقاء مكروه؛ فلا بد لأهل الحق من الصبر على دعوة الناس، ولا بدّ لهم من الصبر في انتظار النتائج؛ لأن استعجال الثمرة قد يؤدي إلى نتائجَ معاكسةٍ تضر أكثر مما تنفع؛ فالصبر إذا اقترن بالأمر كان عصمةً للداعية من الانقطاع، وتفجرت بسببه ينابيعُ العزم والثبات.

إنه الصبر المُترَعُ بأنواع الأمل العريض، والثقةِ بمن بيده ملكوت كل شيء، ليس صبرَ اليائسِ الذي لم يَجد بُدًّا من الصبر فصبر، ولا صبر الخانع الذليل لغير ربه -جل وعلا-.

وبالجملة **فإن الصبر من أعظم الأخلاق**، وأجلّ العبادات، وإن أعظمَ الصبرِ وأحمده عاقبةً الصبرُ على امتثال أمر الله، والانتهاء عمّا نهى الله عنه؛ إذ به تَخْلُص الطاعة، ويصحُّ الدينُ، ويُستَحَقُ الثوابُ؛ فليس لمن قل صبرُه على الطاعةِ حظٌ من بِر، ولا نصيبٌ من صلاح.

ومن الصبر المحمود: الصبر على ما فات إدراكه من رغبةٍ مرجوّة، وأعوزَ نيلُه من مسرةٍ مأمولةٍ، فإن الصبر عنها يُعقِب السلوَّ منها، والأسفُ بعد اليأسِ خُرَقٌ.

ومن جميل الصبر: الصبرُ فيما يُخْشَى حدوثُه من رهبة يخافها، أو يحذرُ حلولَه من نكبةٍ يخشاها، فلا يتعجلْ همَّ ما لم يأتِ؛ فإن أكثر الهموم كاذبة، وإن الأغلب من الخوف مدفوع - كما يقول الماوردي -.

ومن جميل الصبر: الصبرُ على ما نـزل من مكروه، أو حلّ من أمر مخوف؛ فبالصبرِ في هذا تنفتحُ وجوهُ الآراءِ، وتُستَدْفَعُ مكائدُ الأعداءِ؛ فإن من قلّ صبره عَزُب رأيه، واشتد جزعُه، فصار صريعَ همومه، وفريسةَ غمومه.

ومن جميل الصبر: لزومه حال الدخول في غمار إصلاح ذات البين، أو حل المشكلات العويصة، أو التصدي للمعضلات المتشابكة؛ فإنها تحتاج إلى رَوِيَّةٍ، وسعة بال، وطول نَفَس، وبعد نظر؛ فذلك من أعون ما يكونَ في تذليل العقبات، وحل المشكلات، والوصول إلى

أحسن النتائج.

وكما أن الأفرادَ بأمسِّ الحاجةِ إلى الصبر فكذلك الأمة؛ فأمة الإسلام كغيرها من الأمم؛ لا تخرج عن سنن الله الكونية، فهي عرضةٌ للكوارث، والمحن.

وهي -في الوقت نفسه- مكلفةٌ بمقتضى حكم الله الشرعي بحمل الرسالة الخالدة، ونشر الدعوة المباركة، وتحمُّلِ جميعِ ما تلاقيه في سبيلها برحابة صدر، وقوةِ ثباتٍ، ويقينٍ بأن العاقبةَ للتقوى وللمتقين.

وهي -كذلك- مطالبة بالجهاد في سبيل الله؛ لإعلاء كلمة الله، ونشر دين الله، وإزاحة ما يقف في وجه الدعوة من عقبات؛ فلا بد لها من الجهاد الداخلي الذي لا يتحقق إلا بمجاهدة النفس والهوى.

وهذا الجهاد لا يتحقق إلا بخلق الصبر، ومغالبة النفس والشيطان والشهوات؛ فذلك هو الجهاد الداخلي الذي يؤهِّل للجهاد الخارجي؛ لأن الناس إذا تُركوا وطباعَهم وما أُودِعَ فيها من حبٍّ للراحة، وإيثارٍ للدَّعة، ولم يُشَدَّ أَزْرُهُمْ بإرشاد إلهي تطمئن إليه نفوسهم، ويثقون بحسن نتائجه- عجزت كواهِلُهم عن حمل أعباء الحياة، وخارت قواهم أمام مغرياتها، وذاب احتمالُهم إزاء ملذاتها وشهواتها؛ فَيَفْقِدُون كلَّ استعدادٍ لتحصيل السمو، والعزة، والمنزلة اللائقة.

فلهذا اختار الله لهم من شرائع دينه ما يصقُل أرواحهم، ويزكّي نفوسهم، ويمحص قلوبهم، ويربي ملكات الخير فيهم.

وذلك كشريعة الصلاة، والزكاة، والصيام، والحج؛ فتلك الشرائع

تَصْقُل النفوس، وتهذِّبها، وتُمَكِّن لفضيلة الصبر فيها.

ثم إن من أعظم ما يحتاج إلى الصبر فيه ما يحصل للإنسان من أذية الناسِ في نحو ماله أو عرضه أو نفسه؛ فهذا النوع يصعب الصبر عليه جداً؛ لأن النفسَ تستشعر المؤذيَ لها، وهي تكره الغلبة؛ فتطلب الانتقامَ؛ فلا يصبر على هذا النوعِ إلا الأنبياء، والصديقون.

وهذا النوعُ من الصبر عاقبتُه النصرُ، والهدى، والسرورُ، والطمأنينةُ، والأمنُ والقوةُ في ذات الله، وزيادة محبة الله، ومحبةِ الناسِ، وزيادةُ العلم.

وهناك أمور تعين على هذا النوع من الصبر، ومن أبدع من تكلم على ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ في رسالة لطيفة عظيمة عنوانها (قاعدة في الصبر).

ومما ذكره فيها من أمور تعين على الصبر ما يلي:

أحدها: أن يشهد العبد أن الله -تعالى- خالق أفعال العباد؛ فلا يتحرك شيء إلا بمشيئته؛ فانظر إلى الذي سلطهم عليك، ولا تنظر إلى فعلهم بك تَسْتَرِحْ من الهم والغم.

الثاني: أن يشهد العبد ذنوبه، وأن الله إنما سلطهم عليه بذنبه كما قال -تعالى-: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ (الشورى: ٣٠).

وإذا رأيت العبد يقع في الناس إذا آذوه، ولا يرجع إلى نفسه باللوم والاستغفار- فاعلم أن مصيبتَه حقيقيةٌ، وإذا تاب واستغفر وقال: هذا بذنوبي صارت في حقه نعمة.

الثالث: أن يشهد العبدُ حُسْنَ الثواب الذي وعده الله لمن عفا

وصبر كما قال ـتعالى ـ: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (الشورى: ٤٠).

ولما كان الناسُ عند مقابلة الأذى ثلاثةَ أقسامٍ: ظالمٍ يأخذ فوق حقّه، ومقتصدٍ يأخذُ بقدر حقّه، ومحسنٍ يعفو ويترك حقّه ـ ذكر الأقسام الثلاثة في الآية؛ فأولها للمقتصدين، ووسطها للسابقين، وآخرها للظالمين.

الرابع: أن يشهد أنه إذا عفا، وأحسن أورثه ذلك مِنْ سلامة القلب لإخوانه، وحصل له من حلاوة العفو ما يزيد لذته، ومنفعته عاجلاً وآجلاً على المنفعة الحاصلة له بالانتقام أضعافاً مضاعفة، ويدخل في قوله ـتعالى ـ: ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ (آل عمران: ١٣٤).

فيصير محبوباً لله، ويصير كمن أُخِذَ منه درهمٌ، فَعُوِّض عليه ألوفاً من الدنانير؛ فحينئذٍ يفرح بما مَنَّ الله عليه أعظم فرح يكون.

الخامس: أن يعلم أنه ما انتقم أحدٌ قطُّ لنفسه إلا أورثه ذلك ذُلاً يجده في نفسه؛ فإذا عفا أعزه الله، وهذا مما أخبر به الصادق المصدوق ﷺ بقوله: «**وما زاد الله عبداً بعفوٍ إلا عزاً**» رواه مسلم.

السادس: أن يشهد أن الجزاء من جنس العمل، وأنه نَفْسَه ظالمٌ مذنبٌ، وأن من عفا عن الناس عفا الله عنه، ومن غفر غفر الله له.

السابع: أن يعلم أنه إذا اشتغلت نفسه بالانتقام ضاع عليه زمانه، وتفرق عليه قلبُه، وفاته من مصالحه ما لا يمكن استدراكه.

ولعل هذا أعظم من المصيبة التي نالته من جهتهم؛ فإذا عفا

وصفح فَرَغ قلبُه وجسمه لمصالحه التي هي أهم عنده من الانتقام.

الثامن: أن يستحضر أن رسول الله ﷺ لم ينتصر لنفسه قط مع أن أذاه أذى لله ويتعلق به حقوق الدين، وأن نفسَه أشرف الأنفس، وأزكاها، وأبرها؛ فكيف ينتقم أحدنا لنفسه التي هو أعلم بها وبما فيها من الشرور والعيوب.

بل العارف لا تساوي نفسه عنده أن ينتقم لها.

التاسع: أنه إذا أوذي في الله وجب عليه الصبر؛ لأن من كان في الله تلفه كان على الله خلفه.

العاشر: أن يشهد معية الله، ومحبته له إذا صبر، قال ـتعالىـ: ﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ وقال: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾.

الحادي عشر: أن يشهد أن الصبر نصف الإيمان؛ فإذا صبر أحرز نصفَ إيمانه من النقص.

الثاني عشر: أن يشهد أن صَبره حُكْمٌ منه على نفسه، وقهر وغلبة لها؛ فمتى كانت النفس مقهورة معه مغلوبة لم تطمع في استرقاقه، وأسره، وإلقائه في المهالك.

الثالث عشر: أن يعلم أنه إن صبر فالله ناصره ولا بد؛ فالله وكيل من صبر.

ومن انتصر لنفسه وكله الله إلى نفسه؛ فكان هو الناصر لها؛ فأين مَنْ ناصِرُه الله خير الناصرين؟ إلى مَنْ ناصرُه نَفْسُه أعجز الناصرين وأضعفُهم؟

الرابع عشر: أن صبره على من آذاه، واحتمالَه له يوجب رجوعَ الخصم عن ظلمه، ويوجب ندامته، واعتذاره، ولوم الناس له، فيعود بعد إيذائه له مستحيياً منه، نادماً على ما فعله، بل يصير موالياً له، وهذا معنى قوله -تعالى-: ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ (فصلت: ٣٥).

الخامس عشر: أنه ربما كان انتقامُهُ ومقابلتُه سبباً لزيادة شر خصمه، وقوة نفسه؛ فإذا صبر وعفا أمِنَ مِنْ هذا الضرر.

والعاقل لا يختار أعظم الضررين بدفع أدناهما.

وكم جلب الانتقامُ، والمقابلةُ من شرٍّ عجز صاحبُه عن دفعه.

وكم ذهبت من نفوسٍ ورئاساتٍ، وأموال لو عفا المظلوم لبقيت عليه.

السادس عشر: أن من اعتاد الانتقامَ ولم يصبر لابد أن يقع في الظلم؛ فإن النفسَ لا تقف على قدر العدل الواجب لها، فإن الغضبَ يَخْرُجُ بصاحبه إلى حدٍّ لا يعْقِل معه ما يقول ولا ما يفعل؛ فبينما هو مظلوم ينتظر العزَّ والنصر إذا به ينقلب ظالماً ينتظر المقتَ والعقوبة.

السابع عشر: أن هذه المظلمةَ التي ظُلِمَها هي سببٌ إما لتكفير سيئة، أو رفع درجة؛ فإذا انتقم ولم يصبر لم تكن مكفِّرةً لسيئته، ولا رافعةً لدرجته.

الثامن عشر: أن عفوه وصبره من أكبر الجند له على خصمه؛ فإن من صبر وعفا كان ذلك موجباً لذل خصمه، وخوفه، وخشيته منه

ومن الناس؛ فإن الناس لا يسكتون عن خصمه وإن سكت هو؛ فإذا انتقم زال ذلك كلّه.

ولهذا تجد كثيراً من الناس إذا شَتَم غيره، أو آذاه يحبّ أن يستوفيَ منه المشتومُ والمُؤذَى؛ فإذا قابله بذلك استراح، وأُلْقِي عنه ثقلاً كان يجده.

التاسع عشر: أنه إذا عفا عن خصمه استشعرت نفس الخصم أنه فوقه، وأنه قد ربح عليه، فلا يزال يرى نفسه دونه، وكفى بهذا فضلاً وشرفاً للعفو.

العشرون: أنه إذا عفا وصفح كانت هذه حسنة، فتولد له حسنة أخرى، وهكذا... انتهى كلام ابن تيمية بشيء من التصرف.

ومن غرائب الصبر، وأحوال الناس فيه أنهم متفاوتون في شأنه؛ فمنهم من يصبر على آلام الجسد، ولا يصبر على آلام النفس، والعكس.

ومنهم من يصبر على كبار الأمور، ولا يصبر على توافهها وسفسافها.

ومنهم من يصبر على البحث والقراءة، ولا يطيق الصبر على أدنى عمل يكلف به.

ومنهم من يركب الأخطار، ويسافر إلى أبعد الديار غير مكترث ولا عابئ.

وفي الوقت نفسه لا يطيق أن يجلس دقائق معدودة لقراءة صفحات فضلاً عن تحرير بحث.

ومنهم من يصبر مدة طويلة في انتظار أمر من الأمور ولا يكاد يطيق انتظار دقيقة واحدة عند صرافة النقود، أو إشارة المرور.

ومن الناس من يصبر على الوَحدة الطويلة، والعزلة عن الناس،

ولا يكاد يطيق رؤية أحد من الناس على حد قول الشنفرى:

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى
وصـــوّت إنــــسان فكـــدت أطـــير

يـــرى الله أنـــي للأنـــيس لكـــارهٌ
وتبغـــضهم لـــي مقلـــة وضـــمير

ومنهم من لا يستطيع العيش وحده ولو كان ذلك وقتاً يسيراً.

ومنهم من يطيق هذا وهذا.

ومنهم من يصبر على الناس على اختلاف طبقاتهم، ولا يكاد يحتمل أدنى هفوة من أحد من أهل بيته.

ومنهم الفذُّ الجامعُ لأكثر أبواب الصبر.

فهذا التفاوت حاصل مشاهد؛ لذا فإنه يجدر بالإنسان أن يعرف طبيعته، وأن يتعامل معها بهذا المقتضى؛ فإذا فُتح عليه باب من أبواب الصبر، فصار يطيق بعض الأمور دون كلفة أو مشقة - فليحمدِ الله على ذلك، ولْيَسعَ سَعْيَه في تحصيل أبواب أخرى من الصبر، فالصبر يحصل بالتمرين، والممارسة و« إنما الحلم بالتحلم »، « ومن يتصبر يصبره الله ».

ومما يعين على اكتسابِ الصبرِ التفكرُ في عواقبه، ومصاحبةُ الصابرين.

ومن ذلك قراءة الكتب التي تتحدث عن الصبر.

ومن أعظم الكتب في ذلك الشأن كتاب (عدة الصابرين وذخيرة

الشاكرين) للإمام ابن القيم ﷺ فلا يكاد يوجد له مثيل في بابه.

ومن ذلك بعض الكتب المعاصرة التي كتبت بأيدي بعض الغربيين، ففيها كلام عن الصبر هو أشبه بالدورات التدريبية؛ فهي مفيدة في هذا الشأن، وإن كان يُعْوِزُها ذِكْرُ الاحتساب والأجورِ المترتبة على الصبر، والنظرِ في المآل والمصير.

كما يعوزها -أيضاً- ذكر المروءات التي تحتاج إلى صبر وشهامة خاطر.

وعلى كل حال فهي مفيدة، والحكمة ضالة المؤمن.

ومن أمتع ما قرأت في هذا الشأن كتابٌ عنوانه (قوة الصبر) لمؤلفته: إم .. جيه .. رايان والكتاب يقع في ٢٢٤ صفحة، وهو من مطبوعات مكتبة جرير الطبعة الخامسة ٢٠٠٩م[١].

وقد قَدَّمَتْ في هذا الكتاب ممارساتٍ خاصةً لأناس استغلوا قوة الصبر، وضَمَّنَتْ كتابها اقتباساتٍ كثيرةً، ولفتات رائعة، وقصصاً تحفيزية، وتجاربَ مفيدةً من شأنها أن تنهض بفضيلة الصبر لدى الإنسان.

---

١ ـ وقد لخصت أبرز ما جاء في ذلك الكتاب في كتابي: (المنتقى من بطون الكتب) الذي حوى الأجزاء الثلاثة الأولى من ذلك المنتقى.

٤٨ـ عِبَر من معركة علمية

قال الشيخ العلامة محمد عبدالخالق عضيمة رحمه الله في كتابه العظيم (فهارس كتاب سيبويه) ص١٤ـ١٥ ما نصه: «حكى الزجاجُ عن سيبويه قولين في اشتقاق لفظ الجلالة: أَلِهَ، أَوْ من: لاه.[1]

رد على الزجاج تلميذه أبو علي الفارسي بأن هذا الذي حكاه الزجاج عن سيبويه سهو وغلط.

وألف كتاباً في الرد على الزجاج سماه (الأغفال).

رد ابن خالويه على أبي علي بأنه قد صح القولان عن سيبويه، ولا يُنْكَرُ على أن تكون هذه الحكاية قد ثبتت عند الزجاج برواية له عن سيبويه من غير جهة كتابه؛ فلا يكون حينئذٍ سهواً وغلطاً.

رد أبو علي على ابن خالويه في كتاب سماه: (نقض الهاذور) فقال: «إن الذي يحكي هذه الحكاية مُتَقَوِّل كذاب، ومتخوِّض أفاك لا يشك في ذلك أحدٌ له أدنى تَنَبُّه وتيقظ، ولم يُصْغِ إلى القبول منه والاشتغال به إلا الأغمار الأغفال الذين لا معرفة لهم بالرواة، ورواياتهم، وتمييز صادقهم من كاذبهم».

قال الشيخ محمد عبدالخالق عضيمة بعد ذلك: «القارئ لهذا

١ ـ الاشتقاق الأول من: أَلِهَ يأله إذا عبد؛ ف: إلاه: فِعال بمعنى مفعول، والإله: المعبود.
والاشتقاق الثاني من: لاه يَلِيه لَيْهاً: تَستَّر.
وهما قولان في لفظ الجلالة قال بهما سيبويه، وغيره.

الكلام يقع في حيرة، وهو في حاجة إلى من ينقذه من هذه الحيرة، فَيُبَيِّن له هل قال سيبويه بالاشتقاقين أَوْ لا؟

والبغدادي[١] مع غزارة علمه، وسعة اطلاعه روى لنا هذه المعركة الحامية ولم يحسم هذا الخلاف بالرجوع إلى كتاب سيبويه وتحكيمه في هذا النزاع.

وأقول ـ والكلام لعضيمة ـ: إن سيبويه ذكر الاشتقاقين: ذكَر اشتقاق لفظ الجلالة من: أله في ٣٠٩/١ ط: بولاق.

ثم ذكر اشتقاقه من: لاه ١٤٤/٢.

عجيب أمر سيبويه اشتقاقان للفظ واحد، أما كان الأجمل أن يذكرهما في موضع واحد في الجزء الأول أو في الثاني، ولا يباعد ما بينهما؛ فيترك العلماء يختلفون، وينال بعضهم من بعض؟!» اهـ.

والمتأمل لتلك المعركة العلمية التاريخية يخلص منها بعبر منها:

١ـ منزلةُ سيبويه عند أهل العلم، وتَلَقِّيهم كلامَه بالقبول، ولعل ذلك راجع إلى حسن نيته، وسلامة قصده.

٢ـ أن تلك القضية يكثر فيها الأخذ والرد، وقلَّ مَنْ يُنَبِّهُ إلى أن لسيبويه قولين في اشتقاق لفظ الجلالة.

ولعل الشيخ محمد عبدالخالق عضيمة من أصرح من نبه على تلك القضية بجلاءٍ ووضوحٍ، وإحالةٍ على الموضعين اللذين ذكرهما سيبويه.

وهذا مما يؤكد لنا صحة المقولة: «كم ترك الأول للآخر» وخطأ المقولة الأخرى: «ما ترك الأول للآخر شيئاً».

---

١ ـ في كتابه خزانة الأدب ٣٤١/٤ـ٣٤٢.

٣ـ أنه يجمل بالباحث، والكاتب أن يتخلى عن نوازعه وعوارضه النفسية حال كتابته وتأليفه، وأن ينزه قلمه عن التشنج والمسارعة إلى تخطئة الآخرين، والجزم في ذلك.

وإذا ترجح له قول فيحسن به أن يذكر ما ترجح عنده دون تسفيه.

٤ـ أنه متى أمكن الجمع بين الأقوال كان ذلك أجمعَ لشتات العلم، وقلوب أهله، وأبعد عن الفرقة، والتعصب، ونيل كل طرف من الآخر.

٥ـ أنه يحسن اختيار العبارات الراقية حال الرد أو التخطئة؛ فانظر إلى أبي علي رحمه الله على جلالة قدره، وعظيم منزلته كيف جرى على قلمه كلمات هو أرفع منها شأناً، وأعلا قدراً؛ حيث سمى كتابه في الرد على أستاذه الزجاج: (الأغفال) وسمى رده على ابن خالويه بـ: (نقض الهاذور) وذكر أن الذي يحكي تلك الأقوال «مُتَقَوِّل كذاب، ومتخوِّض أفاك، لا يشك في ذلك أحدٌ له أدنى تَنَبُّهٍ وتيقظٍ».

مع أن المسألة يسيرة لا تحتاج إلى هذا العنف، والتشديد؛ فما كان أغنى أبا علي رحمه الله عن ذلك، وهو هو في العلم والمنزلة، ويكفي في مفاخره أنه أستاذ العلامة أبي الفتح ابن جني الذي لم يأت بعده مثله في معرفة أسرار العربية ودقائقها، ولم يُؤَلَّف مثل كتابيه: (الخصائص) و(سر صناعة الإعراب).

وابن جني رحمه الله ثمرة من ثمرات أبي علي، فقد لازمه مدة تزيد على أربعين سنة.

بل إن ابن جني يرى وينقل رأيي سيبويه في المسألة المتنازع عليها.

٦ـ أن ذلك يؤكد لنا أهمية التثبت، وإحسان التعامل مع ما يَرِدُ عن الأسلاف في مسائل العلم، وأن نتلقى ذلك بشيء من رحابة الصدر، واستراضة النَّفَس، وبعدٍ عن الهوى والتعصب، وحرصٍ على تَطلُّب الحقيقة.

فإذا كان هذا هو الشأن في كلام العلماء وَهُمْ أهل تثبت وتحقيق ـ فما الشأن في حال من يتَسَقَّطون الأخبار، ويسوقونها بلا زمام ولا خطام، ثم يجدون بعد ذلك آذاناً مصيخة، وأفئدة مصغية؟!

٤٩ـ التركيب

رُبما يتبادر إلى ذهن القارئ أن الحديث تحت هذا العنوان سيدور حول التركيب عند النحاة بأنواعه الثلاثة: التركيب المزجي كـ: بعلبك، أو التركيب الإضافي كـ: عبدالله، أو التركيب الإسنادي كـ: جادَ الحقُّ أو شاب قرناها.

وقد يُظَنُّ أنه سيكون حول تركيب الأطراف الصناعية ونحوها لذوي الاحتياجات الخاصة، وقد يظن غير ذلك.

والحقيقة أن الحديث لن يكون عن هذا ولا ذاك، بل سيكون حول تركيب بعض الحكايات، أو المواقف أو الكلمات إلى بعض.

فتجد من الناس؛ لهوى في نفسه، أو لطبيعة غالبة عليه ـ يَعْمَدُ إلى موقف من المواقف، أو كلمة أو كلمات صدرت من شخص، أو نحو ذلك، فيركّب بعضها إلى بعض، ويخرج منها بنتيجة معينة بناءً على ما ارتسم في ذهنه؛ فيبني على ذلك الموقف، أو تلك الكلمة أمراً ما، ثم يضيف إلى ذلك كلمة سمعها، أو موقفاً مرَّ به، فَيُكَوِّنُ من ذلك حكماً ظالماً، وتصوراً غير حقيقي.

والذي تقتضيه الحكمة والعدل أن ينظر في تلك الأحوال إلى كل قضية، أو موقف، أو كلمة على حدة، ثم يحاول قدر المستطاع أن ينظر إليها نظرة خاصة بعيدة عن كل المؤثرات الأخرى التي ليس بينها وبينها رابطة ظاهرة؛ فذلك أدعى للزوم العدل، والخروج بنتيجة صحيحة.

أما ربط الأمور ببعض، وتركيب بعضها على بعض دون أن يكون بينها أدنى صلة، أو تكون تلك الصلة ضعيفة، ثم يُجزم بالحكم، وتُرَتَّب عليه مواقف ـ فليس من العدل في شيء.

بل العدل والإحسان يقضيان أن يفك الإنسان تلك التراكيب المعقدة المنسوجة في خياله؛ فيضع كل شيء منها على حدة؛ فيسهل عليه ـوالحالة هذهـ أن يصل إلى هدوء النفس، وسلامة الضمير، والنجاة من سوء الظن.

كما أن العدل والإحسان ـأيضاًـ يقضيان بأن يستعمل الإنسان التركيب ـعلى نحو ما ذُكرـ في الإصلاح، وما يعود على النفس بالنفع والسلامة؛ كأن يركِّب من تصرفاتٍ حسنة، أو كلمات عابرة تركيباً طيباً، فيبني على ذلك حسن ظنٍّ، ويربط بسببه علاقة، أو يلتمس لصاحبها عذراً.

٥٠ـ تيهي يا سَمَنُّود

سمنود مدينة من مدن مصر تقع على ضفاف نهر النيل على فرع دمياط على بعد خمسة كيلومترات من مدينة المحلة الكبرى، وخمسة عشر كيلاً من مدينة المنصورة بمحافظة الدقهلية، فهي بذلك تُعدُّ رابطًا مهمًّا بين محافظة الغربية ومحافظة الدقهلية. ويتبعها مجموعة من القرى، وهي قرية الناصرية، وبني أبو صير، وأبو صير، ومنشية مبارك، ومحلة خلف الناوية، وبهبيت الحجارة، وكفر حسان، وكفر الثعبانية، وميت عساس، وبعض القرى الأخرى.

ولمركز مدينة سمنود ارتباط تاريخي بمدينة المحلة الكبرى من حيث قرب المسافة.

وهي مدينة متكاملة من حيث المنشآت التعليمية، ولا ينقصها سوى وجود جامعة.

وكان لأهالي سمنود دور بارز أثناء الحملة الفرنسية على مصر؛ حيث ساعدوا أهالي المنصورة، وعملوا على فك حصارهم.

والحديث ههنا ليس تعريفاً بهذه المدينة، وإنما هو وقفة وقصة مع علم من أعلامها، بل من أعلام الإقراء في عصرنا الحاضر ألا وهو الشيخ العلامة إبراهيم بن علي شحاتة السمنودي المولود سنة ١٣٣٣هـ الموافق ١٩١٥/٧/١٥م.

وقد نشأ الشيخ في أسرة بسيطة حيث يعمل والده في زراعة الأرض وفلاحتها، وكان الشيخ هو الشقيق الأصغر لإخوته الأربعة

والذين كانوا يعملون مع والدهم.

وكان مما أثار عجب الأسرة أنهم أدركوا حين اصطحابهم للشيخ معهم إلى الحقل حدوث أمر غير عادي يعوق أعمال الفلاحة ويوقفها! فمرة تنكسر الآلة الزراعية التي يحرثون بها، ومرة تمرض الماشية التي تستخدم في الزراعة والحرث؛ فأصبحوا لا يتفاءلون بوجوده معهم في الفلاحة، فقرروا إرساله إلى كتاتيب القرية لحفظ القرآن الكريم؛ وذلك ليقضي الله أمرًا كان مفعولاً؛ فيكونَ ما قضاه الله -عز وجل- من أمر الشيخ، وينعم الله على الأمة بعالم من أكبر علماء عصره في علم التجويد والقراءات.

توفيت أمه وهو دون العشر سنوات، وقد كانت -رحمها الله- تمدّه بالمال الذي يدفعه أُجْرَةً للمحفّظ، وبعد وفاتها توقف عن الذهاب إلى الشيخ؛ لعدم وجود المال الذي يدفعه إليه!

فسأل الشيخ عنه، فأخبروه بخبره، فدعاه وواساه، ثم أذن له بالقراءة؛ حِسْبَةً بلا مقابل؛ لما رأى فيه من التفوق والنباهة، وسرعة الفهم، وقوة الحافظة.

أصيب الشيخ السمنودي في بصره[١] وهو لم يتجاوز الثلاثين من عمره، ومع ذلك فقد أصبح بفضل الله عليه من كبار القراء والمقرئين، رواية ودراية، وإقراءً وتأليفًا، فلم تكن حادثة ضعف بصره عائقًا له عن مواصلة طلب العلم والمدارسة والتأليف والقراءة والإقراء.

---

١ ـ فقد أخذ يضعف تدريجياً حتى ذهب معظم بصره بحيث صار لا يرى إلا خيالات الأجسام لكنه لا يقدر على تمييز بعضها عن بعض.

وقد بارك الله للشيخ الكبير في عمره فبلغ السادسة والتسعين عاماً من عمره ولم يختلط، أو يتغير إلى أن توفاه الله في الخامس من شهر رمضان عام ١٤٢٩هـ؛ فكان حتى مماته رحمه الله مقصد طلاب العلم يؤمُّونه، ويرحلون إليه من أنحاء المعمورة في بلده سمنود.

ولقد قرأ عليه جمع كبير من أكابر القراء المعروفين كالشيخ مصطفى إسماعيل، والشيخ محمود خليل الحصري، والشيخ محمد صديق المنشاوي، والشيخ عبدالباسط عبدالصمد ـ رحمهم الله ـ.

ولقد يَسَّر الله لهذا العلم من يكتب سيرته، ويعتني بآثاره ألا وهو الأخ الصديق الشيخ الدكتور الطبيب عبدالله بن محمد بن سليمان الجارالله.

ولعلي أجدها فرصة مناسبة لإعطاء القراء الكرام نبذة يسيرة للتعريف به؛ فالشيخ عبدالله ولد عام ١٣٨٩هـ في محافظة الزلفي التي تقع شمال غرب الرياض ـ عاصمة المملكة العربية السعودية ـ وتبعد عنها مسافة ٢٨٠ كم.

وقد ترعرع فيها في كنف والديه الكريمين الصالحين، وفي رعاية أسرته الطيبة المباركة، التي امتازت بالجد، والنباهة، والذكاء، والكرم، والفضل، ثم انتقل مع أسرته إلى مدينة الرياض، وتلقى فيها تعليمه الابتدائي، والمتوسط، والثانوي، ثم التحق بجامعة الملك سعود في الرياض، ودرس في كلية الطب، وتخرج فيها، ثم حصل على الزمالة العربية والسعودية في تخصص طب الأسرة والمجتمع.

وبعد انتهائه من دراسته في مجال الطب التحق بكلية أصول الدين في

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في الرياض منتسباً، وتخرج فيها، وكان ترتيبه الأول في دفعته على الطلاب المنتظمين والمنتسبين.

وبعد ذلك استقر به المقام في المدينة النبوية؛ حيث يعمل حالياً طبيباً استشارياً، ورئيساً لقسم طب الأسرة والمجتمع في مستشفى الأمير سلطان للقوات المسلحة في المدينة النبوية.

وفي تلك الفترة التحق بالجامعة الإسلامية في كلية القرآن قسم القراءات، وحصل على شهادة الماجستير في ذلك التخصص، وهو الآن في المراحل النهائية من بحثه في رسالة الدكتوراه وهي تحقيق ودراسة كتاب (غُنية الطلبة في شرح الطيِّبة) للشيخ محمد محفوظ الترمسي رحمه الله.

ولقد فُتِح عليه أثناء دراسته وبعدها بحب القرآن حفظاً، وضبطاً، ودراسة، ورغبة في إتقان القراءات، ودراسة ما يتعلق بذلك الفن.

وكان في أثناء دراسته وبعدها ممن يلازم العلماء في ذلك الشأن، ويحرص ـبكل ما أوتي من نشاط وهمةـ على الأخذ منهم، وطول ملازمتهم، يصحب ذلك أدب فاضل، وتواضع جم، وكرم أصيل، ووفاء منقطع النظير.

بل إنه يجمع بين التعلُّم والتعليم؛ فهو ملازمٌ لمشايخه، مكثرٌ التلقيَ عنهم.

وفي الوقت نفسه ـ يفتح بابه للطلاب الراغبين في القراءة عليه، حتى صار مقصداً لطلاب علم القراءات، ومن أشهر المحكمين في المسابقات المحلية والدولية، وينتظره مُستقبلٌ باهر؛ ليكون ـإن شاء اللهـ من أكابر القراء.

وكان الشيخ ـحفظه اللهـ يكثر التردد على مسقط رأسه الزلفي لزيارة أقاربه، ومحبيه؛ فإذا جاء كثرت اللقاءات به، ويكون ذلك بمحضر جمع من أهل العلم والفضل، وكان وقت اللقاء يطول بنا كثيراً، وربما امتد من بعد صلاة العصر إلى ساعة متأخرة من الليل.

وكانت تلك المجالس عامرة ـولله الحمدـ بالفوائد، والحديث عن العلم والعلماء.

وكان يغلب عليها كثرةُ ذكرِ الشيخِ عبدالله لمشايخه القراء، وثنائه عليهم، وتنويهه بهم في كل فرصة تلوح له؛ فكان الحاضرون يهشون لذلك، ويرغبون في مزيد من الحديث.

ولا ريب أن ذكر أهل الفضل بالفضل دليل وفاء، وآية زكاء، وعلامة طهارة النفس، وعنوان السلامة من الكبر، وسوءِ الطوية.

وما عبر الإنسان عن فضل نفسه بمثل اعتقاد الفضل في كل فاضل
وليس من الإنصاف أن يدفع الفتى يد النقص عنه بانتقاص الأفاضل

ولقد زادت تلك اللقاءات، وما يدور فيها ـ من محبتنا لأولئك القراء الأكابر الأعلام كالشيخ العلامة إبراهيم السمنودي، والشيخ العلامة أبي الحسن الكردي، والشيخ العلامة محمد كريم راجح، والشيخ العلامة عبدالرافع رضوان، والشيخ العلامة علي الحذيفي، والشيخ العلامة إبراهيم الأخضر، والشيخ العلامة محمد تميم الزعبي.

وكان للشيخ العلامة الكبير إبراهيم السمنودي قِدْحٌ مُعلّىً من تلك الأحاديث؛ لعلو كعبه، وكبر سنه؛ مما جعل من يسمع أخباره

يحبه، ويخصه بالدعاء، ويتشوق إلى لقائه، ويَعْجَبُ مما يلاقيه من كنود، وخمول ذكر.

ولا ندري من يتحمل مسؤولية تجاهل الشيخ السمنودي في وقت قرَّبت فيه وسائل الإعلام البعيد، وأشهرت من ليس محلَّ قدوة.

وكيف يبلغ هذا العمر وهو بتلك المنزلة العَلية ومع ذلك فهو ثاوٍ في بلده سمنود، ويَخْفَى على كثير من الخاصة فضلاً عن العامة معرفةُ اسمه بَلْه فضله وعلمه ومزاياه؟!

حتى قيض الله لهذا العَلَمِ من ينوِّه بذكره، ويظهر شيئاً من فضائله؛ حيث انبعثت همة أخينا وحبيبنا الشيخ الدكتور الطبيب أبي محمد عبدالله الجارالله، وتحركت في نفسه معاني الوفاء لشيخه الكبير، واستجاب لمشورة أكابر مشايخه للقيام بهذا العمل الجليل، فشمر عن ساعد الجد؛ ليخرج لنا سِفْراً نفيساً في سيرة ذلك المفرد العلم، ذلك السفر الذي يُؤَمَّل أن يكون نواة للاحتفاء بالشيخ السمنودي ولو كان ذلك متأخراً؛ فلعلَّ القضاءَ ههنا يحكي الأداء.

بل لعله يكون فاتحة خير للاهتمام بعلماء المسلمين، وخصوصاً علماء القراءات في بلاد مصر، والشام، والباكستان، والهند، والمغرب العربي، وغيرها من أقطار المسلمين، أولئك الأعلام الذين كادوا أن يكونوا أيادي سبأ.

ولا ريب أن تعظيم الأكابر، وإنزالهم منازلهم ـ لمن أعظم القربات؛ إذ هو مبعث الاقتداء، وسبيل التأسي، ومرقاة السمو، وأداء لأقل القليل من حقوق أولئك السراة.

ولعل من الملائم في هذه المناسبة أن توجه الدعوة إلى الجهات الرسمية، والعلمية كوزارات الشؤون الإسلامية، ورابطة العالم الإسلامي وغيرها من الأفراد، والجهات والمؤسسات العلمية الأخرى أن تسعى جاهدة لتفقد أحوال هؤلاء، والسعي لإكرامهم، وإيجاد الفرص الكافية لهم؛ ليعيشوا حياة كريمة تليق بهم، وتكفل لهم مواصلة العلم، والتعليم براحة وطمأنينة.

ولهم سلف في خلفاء الأمة، وأمرائها، وأثريائها الذين كانوا يولون هذا الجانب حقه، فكانوا يبذلون الأموال الطائلة، ويوقفون الأوقاف في ذلك السبيل.

هذا وإن مما يذكر في سيرة الشيخ السمنودي أن الشيخ علي ابن محمد الضباع شيخ المقارئ المصرية عَيَّنَهُ شيخاً لمقرأة مسجد الخزندار، وذلك عام ١٩٤٤م بعد أن التقاه.

وكانت البشرى من الشيخ الضباع للشيخ السمنودي قد وافقت ليلة عيد الفطر المبارك؛ فقال الشيخ السمنودي قصيدة عبر فيها عن حبه وعرفانه لشيخه الضباع، قال فيها:

أين البلابلُ ياضبَّاع والعودُ لتعزِفَ الحبَّ إنّ الحبَّ منشودُ

إن يُسْعِدِ الحبُّ في الدنيا أخا ثقةٍ فإنني بك في الدارين مسعودُ

فذلك الحبُّ في الدنيا رَوَى أملي بفيضِ جُودِكَ حتى أَوْرَقَ العودُ

وذلك الحبُّ في الأخرى سَيُسْعِدُني بظلِّ ربي وظلُّ الله ممدودُ

وأسعدُ الحبِّ ما قد فاز صاحبُه بالحسنيين وهذا فيك موجودُ

ولستُ وحدي محبًا في الهدى لكمُ   فالروحُ نادى ولبّاه الألى نُودُوا[1]
اعْطاكَ ربّك ياضبّاعُ منْزلةً   هيهاتَ لم يَرْقَهَا إلا الأماجيدُ
اختارَكَ الله للقرآن في زمنٍ   فنُّ القراءات فيه اليومَ موؤودُ
نَفَضْتَ عنه غبار الوأدِ محتسبًا   يشدُّ ازْرَك تأييدٌ وتسديدُ
فاصبحت مصرُ للأقطارِ سيدةً   وللقراءاتِ تحميدٌ وتمجيدُ
امّا المقارئُ فهي اليومَ مفخرةٌ   وللمشايخِ منكَ العزُّ والجودُ
مِن بعد ما عبثَتْ أيدي الزمانِ بها   حينًا وروَّعها بالأمس تهديدُ
ياصاحبَ الفضلِ والأفضالِ معذرةٌ   ناءَ القصيدُ بما أوْليتَ والجيدُ
اوليتَني نِعَمًا ضاقَ الثناءُ بها   ورحتُ أشدو فخانتني التغاريدُ
قربتَني منكَ في عطفٍ وفي حَدَبٍ   وحاطني منك تسديدٌ وتعضيدُ
وذلك القربُ يا مولاي أُمْنِيَتي   طولَ الحياةِ ولو عزَّتْ سمنودُ
فحققَ اللهُ ما ارجوه من أملٍ   وحبذا أملٌ وافى به العيدُ
جاء البشيرُ غداةَ العيدِ في فرحٍ   فقالتِ الناسُ: إبراهيمُ مجدودُ
لازلتَ معقلَ أمالي وموئلَها   مازفَّ تحتَ جناحِ الدَّوحِ أمْلُودُ
ودمتَ تسمو وتعلو في الهدى أبداً   وتاجُ عزِّكَ بالقرآن معقودُ
فإنْ حييتُ فلن انسى لكم مننًا   وكيف يَنسى جميلَ الرَّوضِ غِرِّيدُ
وإنْ قضيتُ فرسمي قائلٌ لكمُ   أين البلابلُ ياضبَّاعُ والعودُ

---

١ ـ يعني بالروح ههنا: روح القدس جبريل ـ عليه السلام ـ يشير بذلك إلى الحديث الصحيح أن الله إذا أحب عبداً نادى جبريل أني أحب فلاناً فأحبه.... الحديث.

ولقد كانت لي علاقة بالشيخ السمنودي من خلال السلام الذي أرسله مع تلميذه الوفي البار الدكتور عبدالله الجارالله.

وفي صباح يوم ١٤٢٩/٦/١٠هـ أرسلت بيتاً من الشعر عبر الهاتف الجوال إلى الشيخ عبدالله الجارالله والبيت هو:

تِيهِي عَلَى الدَّهْرِ تِيهِي ياسَمَنُّودُ قَدْ حَلَّ فِيكِ الْهُدَى والنُّورُ والْجُودُ

وهو على بحر وروي قصيدة السمنودي في شيخه الضباع الآنفة الذكر.

وصادف أن كان الدكتور عبدالله الجارالله في مصر وقت إرسال هذا البيت، بل كان في مجلس الشيخ السمنودي.

يقول الشيخ عبدالله الجارالله: «وكان الشيخ السمنودي حينئذ يعاني تعباً شديداً، وكان على درجة كبيرة من الضعف والهزال، فلما قرأت عليه البيت وقلت له: إنه مطلع قصيدة في معارضة قصيدتك التي قُلْتَها في شيخك الضباع - ارتاح للبيت، واهتز، وطرب، وتغيرت أساريره، وكأنما نشط من عقال، وقال -أي السمنودي-: أين بقية القصيدة؟

فقلت له: لعلها تأتي قريباً».

ثم اتصل الدكتور عبدالله الجارلله علي وهو في ذلك المجلس وأخبرني بما حصل، وقال: إن الشيخ السمنودي معك على الهاتف، فكلمته، وسلمت عليه، ودعوت له طويلاً، وذكّرته بمكانته.

يقول الدكتور عبدالله الجارالله: «فرأيت الشيخ السمنودي لا يتكلم، فلما انتبهت وإذا به لا يستطيع الكلام من غلبة البكاء عليه، وجميع تفصيلات تلك القصة مسجلة بالصوت والصورة».

وبعد ذلك رغبت في إكمال القصيدة، وهي:

تِيهِي عَلَى الدَّهْرِ تِيهِي ياسَمَنُّودُ ... قَدْ حَلَّ فِيكِ الْهُدَى والنُّورُ والْجُودُ
تحيـة لـك مـن زُلْفى مطهـرة ... تحيـة نَشْرُها الريحانُ والعـودُ
تخص شيخ العلا النحريرَ من شرفت ... بـه المقاري ومَـنْ عـزَّتْ سمنـودُ
لم تَسْبِهِ الغيدُ في حسن وفي ترف ... وكم من الناس من تاهت به الغيدُ
ولم تَنَـلْ صبوةُ اللاهين منه ولا ... (هـذي المدام ولا هـذي الأغاريدُ)
سـارت بـه همـةٌ علياءُ فاتجهت ... نحو المعالي ولو شطّت بها البيدُ
لم يثنِـهِ مـرض عنهـا ولا عـوز ... كـلا ولا عاقـه ظلـم وتفنيـدُ
يمشي إليها كما الضرغام في شَمَمٍ ... إذا تخلـف فَـدْمُ الـنفس رعديـدُ
وعفـةٍ عـن سـؤال النـاس كلِّهـم ... وفطنـةٍ لم يكـن يرنـو لها السِّيْدُ

والمقصود بالسِّيْدِ ههنا هو سِيْدُ الغضا، وهو أحد أنواع الذئاب، وهو أشدها فتكاً، وأقواها نباهةً وفطنةً، وقد أشار إلى ذلك طرفة في معلقته المشهورة بقوله:

وكَرّي إذا نادى المضاف محنباً ... كَسِيْدِ الغضا نبهتـه المتـوردِ

وفي شهر شعبان من تلك السنة سافر الدكتور عبدالله الجارالله إلى مصر هو وصاحب الفضيلة الشيخ صلاح البدير إمام وخطيب المسجد النبوي، وقاموا بزيارة الشيخ السمنودي يوم الاثنين ١٤٢٩/٨/٢١هـ وكان في غاية المرض والإعياء، فأخذوا يدعون له، ويلاطفونه، ويبلغونه سلام أحبته في السعودية ودعاءهم، وقرأ عليه الدكتور عبدالله الجارالله بقية القصيدة، ففرح بها، ونشط، وأذن للشيخ صلاح البدير بالقراءة عليه.

ولعل فرح الشيخ بالقصيدة ليس مبعثه جمالها أو بلاغتها؛ فهي أقرب للنظم منه إلى روح الشعر.

وإنما فرحة بأن له أناساً يحبونه، ويجلونه، وإن كانوا بعيدين عنه.

وبعد هذا اللقاء بستة عشر يوماً توفي الشيخ السمنودي؛ حيث توفي فجر الأحد ١٤٢٩/٩/٧هـ ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ.

وبعد وفاته خرج الكتاب الذي ترجم فيه الدكتور عبدالله الجارالله لشيخه السمنودي تحت عنوان (العلامة إبراهيم بن علي شحاته السمنودي رحمه الله إمام العصر في علم القراءات ـ سيرته وجهوده)[1].

وهذا الكتاب يحتوي على ترجمة حافلة لسيرة الشيخ العلمية والعملية، وهو كتاب جدير بالقراءة، وأخذ العبرة.

ولعل من أهم تلك العِبر أن يُهتم بأولئك العلماء الذين يختبون في زوايا الخمول والنسيان؛ فإذا لم يقيض لأحدٍ منهم ما قُيض للشيخ السمنودي صاروا نسياً منسياً لا يُعْرفون ولا يُعْرَف شيءٌ عن علمهم ولا سيرتهم.

---

١ ـ وقد أفدت منه في المعلومات التي وردت عن الشيخ السمنودي.

٥١ـ القاصية

في يوم من الأيام قابلت صاحباً لي بعد طول غياب، وهذا الصاحب ذو تقى، وصلاح، وورع، وعدل، ومروءة ـهكذا أحسبه والله حسيبه ـ.

وهذا الصاحب يعمل في منصب شريف، وكان من طبعه إيثارُ العزلة، وقلةُ الخلطة بالناس.

وبينما نحن نسير معاً بدأ يشكو بعض ما يلقاه من الناس من جفاء، وقلة وفاء، ويقول: إن ذلك جعلني أنطوي على نفسي، ولا أحب كثرة الخلطة.

ثم أخذ يشكو من تلك المعاملة التي أَثَّرت على صحته العامة، وعلى نفسيته بصورة خاصة؛ فصار الحديث يدور حول ما مضى، وذكّرته بأن ما يمر به مما ذكر يمر بكل من كان على شاكلته، وأنه ليس وحده في ذلك، وأن انزواءه، وبعده عن الناس قد يزيده وهناً على وهن.

وقد رأيت من صاحبي إصغاءً، واستجابة، وفرحاً بما قيل.

ثم استمرت أحاديثنا على هذا النحو عدة أيام.

وبعد أن تفرقنا صرت أتذكر حال تلك الصاحب، وأنها تمر بكثير من الناس، فتورثهم هماً، وقلقاً، وربما أورثتهم مرضاً إذا انزووا، وتركوا تلك الحالة تسيطر عليهم، وتنال نيلها منهم.

وتذكرت ما جاء في قول النبيﷺ: «**إنما يأكل الذئب من الغنم القاصية**» أخرجه أحمد وأبو داود والنسائي.

ففي هذا الحديث علاج لمثل تلك الظاهرة الآنفة الذكر؛ ففيه أمر

بلزوم الجماعة، وتحذيرٌ من البعدِ عنها، أو مناوءتِها، أو الشذوذِ الذي يُتَّخذ منهجاً يخالفها.

كما أن في الحديث إشارةً إلى حاجة الإنسان إلى إخوانه من جهات عدة، ولعل أهمها حاجته إلى تسديدهم لآرائه، وتصويبهم لأخطائه، وتذكيره بمنزلته، ودلالته على مكامن القوة والضعف فيه.

ومما هو مقرر عند العلماء أن العزلة والخلطة لا تذمان ولا تحمدان لِذَاتِهما؛ لأن من الناس من تلائمه العزلة، ومنهم من تلائمه الخلطة.

وإذا كانت العزلة أنسب للإنسان فلا يعني أن يعيش في عزلة مطلقة؛ لأنه مدني بطبعه خصوصاً إذا كان له آراء يصرح بها، ويعلنها أمام الملأ عبر صحيفة سيارة، أو نحوها؛ فإذا كان كذلك فإنه يحتاج إلى من يصحح مساره، ويقوِّم مُنْآده، ويعينه على مراجعة آرائه.

وبهذا تستقيم قناة فكره، وتكون نظرتُه أقربَ إلى الواقعية، ويكون حكمه على الأشياء صائباً أو قريباً من الصواب، بخلاف ما إذا كان بعيداً عن الأعين لا يُرى منه إلا ما يبديه من آراء، من خلال صحيفة، أو موقع إلكتروني، أو اسم مستعار.

ثم إن الذي يؤثر العزلة يصيبه ما يصيب غيره من الهموم، والمشكلات؛ لذا فإنه يحتاج إلى من يعينه، ويفتح له الأبواب، ويزيل عنه الحيرة والاضطراب، ويشعره بأنه ليس وحده على تلك الشاكلة؛ فالناس كلهم يمرون بتلك الأحوال، وتعتريهم تلك الآلام والآمال؛ فبذلك يعود له توازُنُه، ويستجمع فِكْرَه لإصلاح أحواله؛ بخلاف ما إذا

انتبذ عن الناس مكاناً قصياً؛ فإنَّ صَدْرَه يضيق، ولسانَه لا ينطلق؛ فيشعر بأنه وحيدٌ في همومه، مُخْفِقٌ في أعماله، مُحْبَطٌ في آماله.

فإذا وسع مَدْرَكَه، ونظر إلى العالم من حوله علم أنه ليس وحده فيما يعانيه، وبذلك يتعزى، ويأخذ بالأسباب الموصلة إلى السعادة.

ولا بُدَّ من شكوى إلى ذي مروءة يُواسيك أو يُسليك أو يَتوجَّعُ

وربما يكون الإنسان ذا علم، وعقل، ومكانة، ورزانة؛ فتمر به حالةٌ أو مشكلةٌ يستغلق معها فِكْرُه، فيتصرف تصرفاً يكون من خلاله أشبه بالعاميِّ الجاهل الذي لا يحسن النظر في الأمور؛ فيحتاج -والحالة هذه- إلى مَنْ يذكِّره بمكانته، ويعيد إليه ثقته بنفسه، ويشعره بأنه قادر على استيعاب ما مرَّ به من حالة، أو مشكلة؛ فقد يكون ذلك سبباً في العلاجِ واحتواءِ المشكلة بخلاف ما إذا انطوى على نفسه، وصار يأكل بعضه بعضاً ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ (التوبة: ٧١).

﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ (الشورى:٣٨).

ولا يلزم أن يكون المذكِّر للعالم أو الكبير عالماً أو كبيراً، بل قد يكون أقل منه بدرجات، بل قد يكون من جملة العوام.

ومما يذكر في هذا الصدد أن ابن عباس لما توفي والده العباس -رضي الله عنهما- هابه الناس، ولم يُقْدِم كثير من الناس على تعزيته، وقيل: إنه مكث على ذلك شهراً، حتى أقبل أعرابي، وقال بحضرة ابن عباس:

اصبر نكن بك صابرين فإنما صَبْرُ الرعيةِ عند صَبْرِ الراسِ
خيرٌ مِنَ العباسِ صبرُك بعدَه والله خيرٌ منك للعباسِ

فَسُرِّي عن ابن عباس، وأقبل الناس على تعزيته.

وكذلك ما كان من أمر الإمام أحمد رحمه الله لما ابتلي بفتنة خلق القرآن كان من أسباب ثباته رجل من عامة الناس، بل هو لص طرار.

قال عبد الله بن أحمد بن حنبل: «كنت كثيراً أسمع والدي يقول: رحم الله أبا الهيثم، وغفر الله لأبي الهيثم، عفا الله عن أبي الهيثم.

فقلت: يا أبه، مَنْ أبو الهيثم؟

فقال: لما أُخْرِجْتُ للسياط، ومُدَّتْ يداي للعاقبين إذا أنا بشاب يجذب ثوبي من ورائي، ويقول لي: تعرفني؟ قلت: لا.

قال أنا أبو الهيثم العيَّار، اللص الطرَّار، مكتوب في ديوان أمير المؤمنين أني ضُربت ثمانية عشر ألف سوط بالتفاريق، وصبرت في ذلك على طاعة الشيطان؛ لأجل الدنيا؛ فاصبر أنت في طاعة الرحمن؛ لأجل الدين».

والحاصل أن الإنسان أيّاً كان مُعَرَّض للخطأ، والتقصير، وجحود الفضل، وسوء الفهم من الآخرين؛ فلا ينبغي أن يكون ذلك ذريعةً لجلد ذاته، وفقدانِه الثقةَ بنفسه، وإيثاره العزلةَ والخمول.

بل يجمل به إشاعة روح التفاؤل في نفسه، والنظر إلى الأمور نظرة واسعة محيطة؛ حتى لا يدِب اليأس والخور إليه، فيكون كلّاً على نفسه، وعلى غيره.

٥٢- ثقافة النقد

النقد وسيلة كبرى للرقي والنهوض والإبداع؛ فبه تَرْشُد المسيرة، ويبلغُ البنيانُ تمامَهُ، ويعلو شأنُ الأفراد، وتصعد المجتمعات درجات في مراقي السعادة والمجادة.

والذي يَحْسُن التنبيهُ عليه ههنا أمور لا ينبغي أن تغيب عن الذهن حال النقد، سواء من قِبَل الناقد، أو المُنْتَقَدِ، أو المطَّلِع على النقد من عامة الناس.

فمن ذلك أن النقد أشبه بالدواءِ، والدواء يُحتاج فيه إلى عواملَ عِدةٍ كي يَقَعَ موقِعَهُ؛ فيكون ناجعاً مفيداً؛ فلا بد -قبل استعماله- من دقة التشخيص، وتحسس الداء، ومعرفة مقدار ما يستعمل منه، ومدى قابلية المحل الذي يوضع فيه.

ثم إن تلك المهمة تحتاج إلى طبيب حاذق ناصح.

فإذا لم تُراعَ تلك الأمورُ كان ضررُ الدواءِ أكثرَ من نفعه.

وكذلك الحال بالنسبة للنقد؛ فلا بد فيه من بصير عاقل يمتلك أدوات النقد، وكيفية استعماله.

ثم إنه لا تلازم بين النقد وبين الإسقاط والتجريح، وليس من ضرورة النقد تَتَبُّع المساوئ والمثالب.

بل إن التأكيد على المحاسن والمناقب من أهم مهمات النقد.

كما أنه لا يلزم من النقدِ الإساءةُ إلى أهل المُنْتَقَدِ ولا إلى بلده، أو لونه، أو جنسه، أو عرقه، أو هيئته.

وإنما يكون النقد مُنصَباً على أفكاره، وما يطرحه؛ فالنقد شيء، والطعن شيء آخر.

ثم إن الناقد البصير لا غنى له عن الذوق، وحسن المدخل، ولطف الإشارة، وجمال العبارة؛ فلا يكفي أن يكون لديه معلومةٌ صحيحةٌ لِنَقْدِ أمرٍ يستحق النقد، فيلقيه في أي صورة شاء.

بل لا بد أن يُراعِيَ فيه الذوقَ، واللطفَ، وحسنَ التأتي.

ولا يحسن بالإنسان أن تسيطر عليه روح النقد، فيكون سيفاً مصلتاً ينظر إلى الأمور من عين مُغَبَّشَةٍ يعلوها الركام والضباب؛ فتراه بعد ذلك يتكلف النقد، ويبحث عن العيوب، ويبالغ في تتبع السقطات.

كما يحسن بالناقد أن يتجنب في نقده لغة التهوين ولغة التهويل؛ فالأولى تضعف الحق الذي يدعو إليه الناقد، ويدَّعي الدفاع عنه، والثانية تطمس معالم الحق، وتصد عن سبيله.

والحقيقة -كما قيل- تضيع بين التهوين والتهويل.

ويجمل به -أيضاً- أن يراعي أتباع المُنْتَقَد؛ فإنهم إذا رأوا أن متبوعهم أخطأ ورُدَّ عليه بأسلوب راقٍ كان ذلك أدعى لأن يتجنبوا ما وقع به متبوعهم، وأحرى ألا يتعصبوا له، ويقلدوه في الباطل.

بخلاف ما إذا كان أسلوب النقد جارحاً لاذعاً مقذعاً؛ فإن ذلك قد يدعوهم إلى التعصب لمتبوعهم ولو كان مخطئاً.

ثم إنه يحسن بمن تصدى لعمل من الأعمال أن يتسع صدره للنقد، وأن يدرب نفسه على استقبال ما يَرِدُ عليه من ملحوظات، أو تعقبات؛ فالنقد الهادف حياة المجتمعات، والمُنْتَقَدُ يرتفع قدره إذا تَقَبَّل النقد

بقبول حسن؛ فذلك دليل سعة صدره، وسلامة قصده، وكِبَر نَفْسِه.

أما أصحاب النفوس الصغيرة فلا يرون النقد إلا من زاوية ضيقة، ولا يريدون لأعمالهم إلا أن تقابل بالإعجاب، والإطراء، وكأنها وحي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

ومن هنا -كما يقول الأستاذ محمد كرد علي- جاء إمساك الناقدين عن النقد النافع؛ لئلا ينزعج المُنْتَقَد عليه، ويتخذَ ناقِدَه عدواً له.

والحاصل أن النقد له أدواته، وآدابه، والناقد البصير يعرف كيف ينتقد نقداً بَنَّاءً، والمُنْتَقَد يجمل به أن يحسن التعامل مع النقد، والمتلقي من عامة الجمهور ينبغي له أن يفرِّق بين النقد الهادف، والنقد الهادم؛ فلا يكون إمَّعةً يُسْقِطُ من حسابه كلَّ من فُوِّقَتْ إليه سهامُ النقد.

وبذلك يكون النقد إصلاحاً للأحوال، وارتقاءًا بالعقول، ونهوضاً بالآداب والمعارف والثقافة والعلوم.

يقال هذا الكلام لأن فئاماً من الناس يَتَقَحَّمون ميدان النقد، وهم ليسوا في عِيره ولا نفيره، فتراهم يبدون آراءهم في كل صغيرة وكبيرة، سواء في مسائل العلم، أو الأدب، أو السياسة، أو الاقتصاد، أو غيرها؛ فيضعون الناس تحت مِشرحتهم: نقداً، وتفنيداً، وتأييداً دون مراعاة للتخصص، ودون أن تكون لديهم أدوات النقد، وآدابه، ودون أن يكون لديهم قدر عالٍ من العدل، وسعة الصدر، وبعد النظر، وسلامة المقاصد، والرغبة الصادقة في الإصلاح؛ فيكون نقدهم ميداناً للمهاترات، والخصومات، وسبيلاً للتشفي، وذريعة لإسقاط

الآخرين:

وإذا الخصمان لم يهتديا سُنَّةَ البحث عن الحق غبر

ويُقال هذا الكلام ـ أيضاً ـ لأن نفراً من الناس يتبرَّمون من النقد، ويُصِمّون آذانهم عن سماعه.

كما أن هناك جمّاً غفيراً من عامة الجمهور لا يكادون يحتملون أدنى كلمة تقال في أحد من الناس؛ فإما أن يُسقطوا ناقده، أو يسقطوا المُنْتَقَدَ عليه.

كما أن منهم نفراً يَدَعون ما هم بصدده من الأعمال النافعة إذا تعرضوا لأدنى نقد يوجه إليهم.

وأخيراً هذه ومضات في هذا الشأن رقمتها يراعة العلامة محمد كرد علي في مذكراته، يقول رحمه الله: «كثيراً ما سمعت من أستاذي الشيخ طاهر الجزائري أنه في اليوم الذي يجمع الناس على حبه يعتقد نفسه ساقطاً؛ ذلك لأن معنى الإجماع أن الممدوح ينافق كل إنسان، لا ينكر منكراً، ولا يدعو إلى معروف.

وصاحب الإصلاح في العادة يمقته فريق، ويرضى عنه آخر، ومن أراد تطبيق ما يعلم يتأفف منه السواد الأعظم».

وقال: «ولقد نصحني أستاذي الشيخ طاهر الجزائري نصيحة وَقَتْ أوقاتي من الضياع، وفكري من البلبلة وكان ذلك لما بدأت بتحرير جريدة (الشام) قال: إذا أحببت النجاح في هذا البلد فلا تُلْقِ بأذنك لما يقال فيك من خير وشر، وارم ببصرك فقط إلى الهدف الذي يعنيك الوصول إليه، ولا تلتفت ذات اليمين ولا ذات

الشمال، وإذا وضع لك واضع حجراً في طريقك فتنحَّ عنه، وعُدْ إلى سلوك محجتك.

تقبلت هذه النصيحة، وما عبأت بعدها بسماع أقوال المثبطين، ولا بمصانعة المداحين، وعرفت -مع الزمن- أن أصواتَ أهلِ هذه الفئة تضيع في الهواء كالهباء، وأنهم كسالى لا يعملون، ويشق عليهم أن يروا أحداً يعمل.

وما كنت أردّ على من يناقشني؛ لئلا أدخل في أخذ ورد؛ فإن كان ما قاله مما ينفع أنقله وأنشره وأشكره عليه، وإن كان من الهُراء المعتاد أتحول عنه، ولا أشغل الوقت بما كتب.

وأكثر من جَرَوا على هذه الطريقة إنما يكتبون للشغب، والكشف عن المساوي، والظهور على الأقران، وكل صعلوك مغمور يحاول في العادة أن يشتهر بالنيل ممن هم أفضل منه.

وما أفلح من ساروا على هذه الطريقة، ودخلوا في الاعتراض، ويعدوا عن الاشتغال بخُوَيِّصة أنفسهم.

الثرثارون الطعانون يقضون أعمارهم في حسرة، ولا يأتون ما ينفعون به أنفسهم ولا غيرهم، ورأيت منهم جماعاتٍ ماتوا بغيظهم، وكان مَنْ نجحوا مِنَ الفريق الذي يقلل من الاعتراض».

وقال: «ونصح لي أستاذي لما أصدرت مجلة (المقتبس) في القاهرة ألا ألتفت إلى المشاغبين ولا أكترث بهم، وإن جَلُّوا؛ فإن الحكيم من يسعى إلى تمام القصد، وأقل ما يستفيد المشاغبون إضاعة وقت من

اكترث بهم وإن قلَّ؛ فالوقت ثمين.

قال: أقبل على شأنك، واعرف مقتضى زمانك، ولا يمنعك تنكيت المنكتين المكبتين من تنبيهك على غلط فرط منك فيما سلف، وكلما عثرت على شيء من ذلك في عدد فنبه عليه فيما يلي؛ فإن ذلك أقرب إلى الاعتماد على ما تكتب، وأكثر العلماء الذين انتفع الناس بكتبهم كانوا على هذه الطريقة».

وقال الأستاذ محمد كرد علي: «وإذا لاحظ الهجَّاؤون أَن هجاءهم مما تنخلع له قلوب المهجوين زادوا وأفرطوا، وإذا أيقنوا أن صاحبَ النَّفْسِ العظيمةِ لا يأبه كثيراً لما يقال فيه يحاذرون صَرْفَ أوقاتِهم فيما لا يجدي عليهم.

وقد رأينا العليَّ المنزلة النزيه في ذاته لا يعبأ بثرثرة الثرثارين مدحاً كان أم قدحاً، ورأينا هذا الضربَ من الأقوال خفَّ الاهتمامُ به في عهدنا؛ لأن الناسَ تعلموا، والمتعلمُ يخجل أَن يصفّق للباطل، وأن يهرب من الحق». ا.هـ

٥٣ـ اجتماع الكلمة

لا ريب أَنَّ مِنْ أعظم قواعد الدين، وأجمعِ أصوله الجامعة تأليفَ القلوب، واجتماعَ الكلمة، والاعتصامَ بالجماعة، وإصلاحَ ذات البين؛ لما في ذلك من المصالح العظيمة، والأجور الكبيرة، والفضائل الجمة.

و لما للتفرق والاختلاف من الشرور والفساد، وتعطيل الأحكام.

والنصوص في ذلك السياق كثيرة جداً، كما في قوله ـتعالىـ: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾.

و قوله ـعز وجلـ: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾.

وهذا المعنى العظيم قد لا يخطر ببال كثير من الناس سواء ممن يحرصون على تفريق الكلمة، وإيغار الصدر، أو ممن لا تنبعث هممهم لجمع الكلمة ورأب الصدع.

ولقد كان علماء الإسلام الكبار يحرصون حرصاً كبيراً على تقرير هذا المبدأ.

ولشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله قِدحٌ مُعَلًّى في ذلك الشأن مع أن عصره عصر يميدُ بالفتن، ويَعُجُّ بالصراعات، والخلافات.

وإليك طرفاً من أقواله، ومواقفه في ذلك.

١ـ أنه غالباً ما يدعو لمخالفيه كما في قوله: «والله هو المسؤول أن يؤلف بين قلوبنا وقلوبكم، ويصلح ذات بيننا، ويهدينا سبل السلام، ويخرجنا من الظلمات إلى النور، والمقصود الأكبرُ إنما هو إصلاحُ

ذات بينكم، وتأليفُ قلوبكم».

٢ـ لما أراد السلطان الناصر في زمن ابن تيمية حمله على الموافقة على قتل من عارضه من القضاة، واستفتى ابنَ تيمية في ذلك، قال له ابن تيمية: «إذا قتلت هؤلاء لا تجد بعدهم مثلهم.

فقال له: إنهم قد آذوك، وأرادوا قتلك مرارا.

ففهم الشيخ مراده، وقال له: من آذاني فهو في حل، ومن آذى الله ورسوله فالله ينتقم منه، وأنا لا أنتصر لنفسي».

وما زال به حتى حلم عنهم السلطان وصفح».

٣ـ قوله: «الواجب على المسلم إذا صار في مدينة من مدائن المسلمين أن يصلى معهم الجمعة والجماعة ويوالى المؤمنين ولا يعاديهم، وإن رأى بعضهم ضالاً أو غاوياً وأمكن أن يهديه ويرشده فعل ذلك، وإلا فلا يكلف الله نفساً إلا وسعها».

٤ـ أنه أفتى بأن مَنْ دعي إلى طعام واشتبه أمره عليه: فلا بأس بتناول اليسير منه إذا كان فيه مصلحة راجحة، مثل تأليف القلوب، ونحو ذلك.

٥ـ أنه يستحب للرجل أن يقصد إلى تأليف القلوب بترك بعض المستحبات؛ لأن مصلحة التأليف في الدين أعظم من مصلحة فعل مثل ذلك، والأولى متابعة الآثار التي فيها الاعتدال والائتلاف وتأليف القلوب؛ فيجهر بالبسملة لمصلحة الائتلاف، ويعدل عن فصل الوتر إلى وصله مراعاة لذلك، كما استحب الإمام أحمد ترك القنوت في الوتر؛ تأليفاً للمأموم.

بل إن ابن تيمية يعد التعصب لمسألة البسملة في كونها آية من القرآن وفي قراءتها ـ من شعائر الفرقة والاختلاف الذي نهينا عنه؛ فإن الفساد الناشئ من هذه الفُرْقة أضعاف الشر الناشئ من خطأ نفر قليل في مسالة فرعية.

هذه نبذه يسيرة عن بعض أقوال ابن تيمية ومواقفه في تأليف القلوب، واجتماع الكلمة؛ فما أحوجنا إلى أصحاب قلوب تنبض بالحب للمسلمين؛ وتعمل ما في وسعها لِلَمِّ شملهم، وتقريب بعيدهم، وإرشاد ضالهم.

ولا يتسنى ذلك ـبعد توفيق الله ـ إلا بالعلم، والصبر، والتقوى، وسلامة المقاصد، والتخلي عن حظوظ النفس القريبة، والنظر في المصالح العليا العامة.

٥٤ـ السماحة

السماحة ـ كما يقول المقاصِدِيُّون ـ أولُ أوصافِ الشريعةِ، وأكبرُ مقاصدها.

وهي ـكما يقول ابن عاشورـ سهولة المعاملة في اعتدال؛ فهي وسطٌ بين التضييق والتساهل،وهى راجعةٌ إلى معنى الاعتدال والعدل والتوسط، ذلك المعنى الذي نوَّه به أساطينُ الحكماء الذين عُنُوا بتوصيف أحوال النفوسِ والعقول فاضلها ودنيِّها، وانتساب بعضها من بعض؛ فقد اتفقوا علَى أن قوام الصفات الفاضلة هو الاعتدال، أي التوسط بين طرفي الإفراط والتفريط؛ لأن ذينك الطرفين يدعو إليهما الهوى الذي حذرنا الله منه في مواضعَ كثيرةٍ، منها قوله ـتعالىـ: ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ (ص:٢٦) و قوله: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ ﴾ (النساء: ١٧١) و قوله: ﴿ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ (الحديد:٢٧).

فإن ذلك متعلق بأهل الكتاب ابتداءً، ومرادٌ منه موعظةُ هذه الأمة؛ لتجنب الأسبابَ التي أوجبت غضبَ اللهِ على الأمم السابقةِ وسقُوطَها، كما في قصة اليهود في سورة البقرة؛ فإنهم لو ذبحوا أَيَّةَ بقرةٍ لأجزأتهم، ولكن شدَّدوا فشدَّد الله عليهم.

فالتوسُّط بين طرفي الإفراط والتفريط هو منبع الكمالات، وقد قال الله ـتعالىـ في وصف هذه الأمة، أو وصف صدرها ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ (البقرة: ١٤٣).

روى أبو سعيد الخدري ـكما في صحيح البخاريـ عن رسول اللهﷺ في

معنى الآية أن الوسط هو العدل، أي بين طرفي الإفراط والتفريط.

و بذلك جزم المحققون في تفسير هذه الآية، وبه فُسِّر -أيضاً- قولُه -تعالى-: ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ ﴾ (القلم:٢٨) أي أعلمهم وأعدلهم.

وقد شاع هذا المعنى في الوسط حتى قال أبو تمام:

كانت هي الوسطَ المحميَّ فاكتنفت

بها الحوادثُ حتى أصبحت طرفا

وقال مطرف بن عبد الله بن الشِّخير التابعي رحمه الله: «خير الأمور أوساطها»

ومن أقوال السلف التي جرت مجرى الأمثال: «خير الناس هذا النمط الأوسط».

فالسماحة: السهولة المحمودة فيما يظن الناسُ التشديدَ فيه، ومعنى كونها محمودةً أنها لا تُفْضي إلى ضرٍّ أو فساد.

وفي الحديث الصحيح عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى».

وَوَصْفُ الإسلام بالسماحة ثبتَ بأدلة القرآن والسنة، فقد قال الله -تعالى-: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ (البقرة: ١٨٥) وقال: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ (الحج:٧٨) وقال: ﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ ﴾ (المائدة:٦) وقال: ﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ﴾ (البقرة: ٢٨٦).

وفي الحديث الصحيح عن ابن عباس ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة**».

أي أحب الأديان إلى الله دين الإسلام الذي هو الحنيفية السمحة، فقد أثبت أن السماحة هو وصف الإسلام.

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**إن الدين يسر، ولن يُشادَّ هذا الدين أحدٌ إلا غلبه**».

أي كان الدين غالباً.

واستقراءُ الشريعة دلَّ على أن السماحة واليسر من مقاصد الدين.

وفي البخاري وغيره: أن رسول الله ﷺ بعث أبا موسى و معاذاً إلى اليمن وقال لهما: «**يسِّرَا ولا تُعسِّرا، وبشِّرا ولا تُنَفِّرَا**».

وقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «**إنَّما بُعِثْتم مُيسِّرين، ولم تُبعَثوا مُعسِّرين**».

و عن عائشة -رضي الله عنها- أنها قالت: «ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلاَّ اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً» أخرجه البخاري.

والمراد من الإثم ما دلت الشريعة على تحريمه.

قال الشاطبي رحمه الله: «إن الأدلة على رفع الحرج في هذه الأمة بلغت مبلغ القطع».

وقال ابن عاشور رحمه الله: «إن حكمة السماحة في الشريعة أن الله جعل هذه الشريعة دين الفطرة، وأمورُ الفطرة راجعةٌ إلى الجبلَّة، فهي كائنة في النفوس، سهلٌ عليها قبولُها.

ومن الفطرةِ النفورُ من الشِّدَّة والإعنات، قال -تعالى-: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ (النساء: ٢٨).

وقد أراد الله ـتعالىـ أن تكون الشريعةُ الإسلامية شريعة عامة ودائمة؛ فاقتضى ذلك أن يكون تنفيذُها بين الأمة سهلاً، ولا يكون ذلك إلاَّ إذا انتفى عنها الإعناتُ؛ فكانت بسماحتها أشدَّ ملاءمةً للنفوس؛ لأن فيها إراحةَ النفوس في حاليْ خُوَيْصتها ومجتمعها.

وقد ظهر للسماحة أثر عظيم في انتشار الشريعة وطول دوامها؛ فعُلم أن اليسر من الفطرة؛ لأن في فطرة الناس حبَّ الرفق.

ولذلك كره الله من المشركين تغييرَ خَلق الله؛ فأسنده إلى الشيطان إذ قال عنه: ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾ (النساء:١١٩).

وذلك حيث يكون التغيير خِلواً عن المصلحة.

فأما إذا كان لمعنىً أدْخَلَ في الفطرة؛ فلا يصير مذموماً، بل يكون محموداً، مثل الختان وتقليم الأظفار، وحلق الرأس في الحج».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في معرض حديث له عن خلق السماحة والصبر والشجاعة والكرم: «فالحاجة إلى السماحة والصبر عامة لجميع بني آدم، ولا تقوى مصلحة دينهم ولا دنياهم إلا بهم، ولهذا يتمادحون بالشجاعة، والكرم، والصبر»

هذه نبذة عن السماحة وعن مكانتها في الإسلام.

ولا ريب أن السماحة في كافة صورها مُحَبَّبةٌ إلى كل أحدٍ، مُرَغّبَةٌ فيمن يتمثلها، ويقوم بها خير قيام.

والذي يلحظ في الشأن العام أن هناك تقصيراً وتفريطاً عظيماً في شأن السماحة؛ فهناك تقصير فيها أثناء البيع والشراء؛ فترى شدة

المماكسةِ، والغش، والغرر، والتنافس غير الشريف.

وهناك تقصير في باب السماحة حال مقابلة الناس بعضهم بعضاً؛ فترى من لا يقابل الناس إلا بكل عبوس وكلوح؛ فلا يلقاهم بالبشر، والطلاقة، والبشاشة.

وهناك من يدعو إلى السماحة، ويدَّعي أنه أحقُّ الناس بها؛ فإذا خولف، أو رَدَّ على أحد ـ ولو في مسألة من مسائل السماحة ـ أزبد وأرعد، ونكَّب عن ذكر السماحة جانباً؛ فلا ترى منه إلا الجفاء، والغلظةَ، وَرَمْيَ الخصوم بكل نقيصة.

وهناك خللٌ في باب السماحة في التعامل مع الخدم، والعمال، والمرؤوسين؛ فتجد الغلظة، والفظاظة، والإعنات، والمبالغة في الزجر، والإفراط في الحزم.

وهناك خلل في باب السماحة في التعامل مع الوالدين، والأولاد، والزوجة، والأقارب، والطلاب.

وهناك خلل في شأن السماحة أثناء الدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والرد على المخالفين.

فما أجمل أن تكون السماحة ديدناً للإنسان، وهيئة راسخة فيه، ومنهجاً عاماً يأخذ به في جميع أحواله، لا أن تكون كلمة تتمضمض بها الأفواه دون أن تتخلل منها مسلك الروح.

وما أروع أن نجاهد أنفسنا على السماحة، وأن نتواصى بها؛ كي نحقق مقصداً عظيماً من مقاصد الشريعة؛ فنرضيَ بذلك ربنا، ونكون قدوة لمن أراد الدخول في ديننا.

٥٥ـ سرقات

عند الحديث عن السرقة يتبادر إلى الذهن ـ في الأغلب ـ ما يكون من سرقة المال، أو المتاع، أو نحو ذلك مما يوقع في الإثم، أو يوجب الحد.

ولكن الحديث ههنا سيكون عن أنواع من السرقة قد تغيب عن بعض الأذهان، وقد لا يَفْطَن لها مَنْ يقع فيها؛ فقد يقارفها دون شعور بالذنب، بل قد يظن أنه يحسن صنعاً، ويمارس فطنةً وذكاءً.

فمن السرقات التي لا يؤبه لها سرقة الأفكار؛ ولا يُعنى بذلك ما يكون من توارد الخواطر، أو تطوير فكرةٍ، أو تَبَنِّي كلمةٍ عابرة أو اقتراح ما؛ ليكون مشروعاً ناضجاً سوياً.

لا؛ ليس ذلك هو المقصود ههنا؛ فالعلم رَحِمٌ بين أهله، والأفكار ليست حكراً على أحدٍ، والعاقل من يفيد من كل أحد، والمعاني مطروحةٌ في الطرقات ـكما يقول الجاحظـ.

ولكنَّ المقصودَ في هذا المقام سرقةٌ من نوع آخر؛ وذلك كحال من يسمع شخصاً يتحدث عن عزمه على إقامة مشروعٍ، أو عملٍ من الأعمال، وأنه يحتاج إلى وقت كي ينجزَ عمله؛ فيسمعُ بتلك الفكرة شخصٌ آخر، فيسطو عليها، ويقوم على عمل خطة لها، ثم يطرحها أمام الملأ، ويفيد منها مالاً، أو نحو ذلك.

فإذا علم صاحبه الأول عن ذلك عَدَلَ عن فكرته؛ لأن الناس سيقولون: إنه قام بعمل مكرر، ولن يُصَدِّقوه إذا قال: إنني صاحب الفكرة الأولى؛ فهذا نوع من السرقة وكثيراً ما يقع.

يحدثني أحدُ الإعلاميين البارزين أنه كان ينوي طرحَ برنامجٍ كبير، وأنه قد تصور فكرته، وصار يُحدِّث بها أحياناً في بعض مجالسه، ولما استوت تلك الفكرة على ساقها، ولم يَبق إلا القليل على تنفيذها فوجئ بأن شخصاً آخر قد تبنى تلك الفكرة، وبدأ بتنفيذها عملياً.

يقول ذلك الإعلامي: «فلما رأيت الأمر هكذا عَدَلْتُ عن رأيي».

وقل مثل ذلك في شأن الرسائل العلمية؛ فقد يقع نَظرُ شخصٍ على موضوع معين، ثم يَشْرَعُ في كتابةِ خُطةِ بحثٍ لذلك الموضوع، وقد يُحدِّث به من حوله، ثم ينتشر خبر ذلك الموضوع، فيفاجأ بأن شخصاً آخر سمع به، فقَدَّمه قَبْلَه مع أن الفكرة ـ في الأصل ـ هي فكرة الأول.

ومن أنواع السرقة سرقة الكتب؛ يحدث أحد المؤلفين أنه وجد في بعض المكتبات عدداً من الكتب المؤلفة، وهي مسروقة من كتبه مع اختلافات السَّرِقةِ قِلَّةً وكثرة.

يقول: «ولو كانت المسألةُ استفادةً من بعض فصول الكتاب، أو أنها نَقْلٌ بدون عزوٍ، أو أن المؤلفَ اتخذ منهجاً في مُؤَلَّفه بعدم العزو لهانَ الخطب.

أما أن تُسْرَقَ فكرةُ الكتاب وأسلوبه، وطريقة عَرضِه وعزوه، ثم يُدْخَلَ عليه شيءٌ يسير من التعديل، ويوضعَ على غلافه اسم المؤلف الجديد ـ فذلك أمر لا يطاق».

ويحدث أحد المؤلفين أن شخصاً سطا على أحد كتبه، وأدخل عليه شيئاً يسيراً من الحذف والتعديل، ثم طرحه في الأسواق، ثم قابله بعد فترة في مكان ما.

يقول ذلك المؤلف الذي سُرِقَ كتابُه: «إنني استحييت لما قابلته. أما ذلك السارق فلم يستحِ، وإنما سلم عليّ، وأهداني ذلك الكتاب، وأخبرني بمحبته لي، مع أنه سلخ كتابي، ولم يُشِرْ إليه من قريب ولا بعيد».

ويحدِّث مؤلف أن شخصاً سَطا على أحد كتبه، ولم يشر إلى أنه استفاد منه إلا في آخر صفحة.

ومن السرقات سرقة الجهود العلمية، وذلك قريب من سرقة الكتب، ألا وهو سرقة ما في الكتب وإلقاؤه كاملاً في برنامج دون أدنى إشارة.

يذكر أحد المؤلفين أن له كتاباً في موضوع من الموضوعات الشرعية، وأنه سمع برنامجاً يُبَثُّ في حلقات كثيرة، وأن هذا البرنامج يلقيه أستاذ كبير في السن والرتبة العلمية، ومع ذلك فقد سطا على كتاب المؤلِّف وسلخه سلخاً تاماً؛ فكان يقرر، ويفَصِّل دون أدنى إشارة إلى الكتاب المذكور.

يقول ذلك المؤلِّف: «الغريب أنني كنت أتابع ذلك البرنامج، ولم أخبر أحداً من الناس، ولكنني فوجئت بأن غيري من الناس قد لاحظ ذلك.

ولو كان الأمرُ مجرَّدَ حلقةٍ، أو حلقتين أو نحوَ ذلك لهان الخطب.

أما أن يكون برنامجاً كاملاً في دورة كاملة في عشرات الحلقات فذلك مما لا يستساغ».

فما الذي منع ذلك الأستاذ من الإشارة والعزو؟ وماذا يَضِيْره لو

فعل ذلك؟

إن الذي منعه قلةُ الأمانة العلمية، وخشيةُ أن يَنْقُصَ قَدْره لو عزا الكلام إلى غيره من معاصريه، والمعاصرة ـ كما يقال ـ حجاب.

ولو أنه فعل ذلك لزاده رفعة وقدراً، ولربح فضيلة عظيمة، ألا وهي فضيلة الأمانة العلمية.

ومن السرقات سرقات الشعر، وذلك فن من فنون البلاغة، يسمى: السرقات الشعرية، وقد لا يذم من قام بذلك أعني إذا اقتبس معنىً من شاعر ثم ألبسه لباساً جديداً، وهذا كثير في الشعر.

بل إنه قد يستحسن، وكثيراً ما يفوق المتأخِّرُ المتقدمَ في إيراد المعنى بصورة أجمل.

ولكن المصيبة أن يعمد إنسان إلى قصيدة شاعر، ثم يَنْسِبَها لنفسه.

وقد شكا من ذلك كثيرٌ من الشعراء قديماً وحديثاً، ولعل من أواخرهم الأخ الشيخ محمود العمراني حيث يقول:

وصديق عاقل يسرق شعري لم أعاتبه ولم يشعر بأمري

استحي منه ولا يخجله أنه يرتع في حرمة فكري

يتمطى في ثيابي رافلاً ويحيِّي الناس من شرفة قصري

ومن أنواع السرقات سرقة الإنجازات؛ فَيَحْدُثُ كثيراً في بعض الدوائر والقطاعات، أو غيرها أن يقوم إنسان بتلك الدائرة بأعمال كثيرة مضاعفة، ثم تنسبَ تلك النجاحاتُ والإنجازاتُ إلى غيره؛ فيدَّعيها ـ بكل صفاقة ـ مَنْ لم يقم بأي شيء منها، أو قام بعمل يسير جداً.

يحدثني أحدُ الأصدقاءِ الأعزاءِ القدامى أنه يعمل في قطاع كبير،

وأن تحت يدِه كثيراً من الموظفين، وكان ذلك الصاحب أميناً كريماً ذا همة يحب تشجيع من تحت يده، ويثني عليهم أمام مسؤوليهم، ويكافؤهم بقدر ما يستطيع.

وكانوا يحبونه، ويتشرفون بالعمل تحت يده، ويتدفَّعون لإسعاده، وإنجاز الأعمال كما يحب.

يقول ذلك الصاحب: «إن من أعظم ما يسعدني أن يكون العمل كما ينبغي، وأن ينال العاملون نَصِيبَهم من جراء ذلك العمل الذي أخلصوا فيه، فينالوا مكافأة، أو ترقية، أو ـ في الأقل ـ يَحْظَون بكلمة ثناء صادقة، أو ابتسامة رضاً طاهرة.

ولكن الذي يحصل كثيراً أنه يأتي الرئيس المسؤول الأول عن ذلك القطاع، فيرى الأمور فوق ما يتصور، فيعبر عن شكره، وفرحه، وتقديره لذلك العمل.

ولكنَّ المسؤولَ المباشرَ عني رجلٌ صغير النفس ضيِّق العطن لا يحب أن يُمْدَح أحدٌ عنده، ولا تطاوعه نفسه على الاعتراف للمحسنين أو شكرهم، فضلاً عن مكافأتهم، أو نسبة النجاح لهم.

فإذا شرع الرئيس بالثناء والشكر والدعاء ـ توقعنا من ذلك المسؤول المباشر أن يشير إلينا أمام الرئيس، أو يطلب لنا زيادة مكافأة أو شكر؛ من باب إنصافنا، ولأجل أن يزدادَ إقبالُنا على قوةٍ إلى قوة.

ولكن الذي يحصل أنه ينسب النجاح لنفسه وحده، ويتظاهر بشيء من التواضع المقيت الذي يُشعِر من خلاله الرئيسَ مِن طَرْفٍ

خفيٍّ أنه هو الذي قام بأعباء ذلك العمل، مع أنه لم يكلف نفسه أيَّ جهد، وبهذا يسرق جهد الآخرين، وينسبه إلى نفسه.

وإذا خلا بنا أتحفنا بابتسامة صفراء لا تسمن ولا تغني من جوع» اهـ.

ومن **أنواع السرقة** ما يكون من نسبة الأعمال إلى غير القائمين بها.

ولا لوم على من نسبها جاهلاً، ولا يُعَدُّ من السراق.

ولكن اللوم يقع على من نسبت له، ففرح بذلك، وسكت عما يُكَالُ له من المديح مع أنه لم يقدم شيئاً يذكر، وإنما رضي بأن يحمد بما لم يفعل.

وماذا عليه لو تواضع قليلاً، ونسب الفضل إلى أهله، واستحضر أن الرافع الخافض هو الله؟

ولئن زال من قلوب الناس نسبةُ عمل إليه وهو لم يَعْمَلْهُ ـ فَسَيَحُلُّ مَحلَّهُ توقيرٌ ومحبةٌ له، ودعاءٌ وإعجابٌ به؛ بسبب عدله، ونزاهته، وتكرمه، وحذره من سرقة جهود الآخرين.

أين هذا من قصة شخص يحدثني بها أحد أكابر أساتذة الجامعات العريقة، حيث يقول: «كان في مدينتنا رجلٌ كبير في سنه، وعقله، وعلمه، وخلقه، وجاهه، وكان وراء كثير من الأعمال الخيرية دعماً، أو تأسيساً، أو إشرافاً.

وفي يوم من الأيام أرادوا تكريمه، فقلت في نفسي: لا بد لي من حضور تلك المناسبة التي أقيمت لرجل يستحق التكريم، ولا يختلف اثنان من عارفي فضله على استحقاقه للتكريم.

وكان من دوافع حضوري حرصي على استماع الكلمة التي سيلقيها في ذلك الحفل.

ولما أقيم الحفل، وأثني على صاحبنا بما يستحق، وجاء دوره في الكلمة توقع الحاضرون أن يتكلم عن إنجازاته الحقيقية، ومعاناته من جراء ما قام به.

ولو تكلم بما توقعوا لما لامه أحدٌ على ذلك.

لكن الذي حصل أن الرجل نَحَى في الحديث مَنْحَىً آخر؛ حيث قال: إن الإخوة القائمين على الأعمال الخيرية أرادوا تكريم العمل الخيري ممثلاً في شخص، فرأوني أَسَنَّهم؛ فقدموني لذلك، وإلا فأنا واحد منهم، بل إنهم يفوقونني في البذل والعمل، ثم شرع في الكلام عن العمل الخيري عموماً دون أن يتكلم عن نفسه أو جهوده، بل راح يثني على زملائه، ويشيد بأعمالهم.

فخرجت وقلبي مفعم بالحب، والإكبار، والدعاء لذلك الرجل» .اهـ

فقارن بين هذا الموقف وموقف صاحبنا الذي سرق إنجاز من تحت يده.

وبالجملة فإن أبواب السرقة كثيرة، والمقام لا يتسع لها، وإنما هي إشارات، والسعيد من أدى الأمانات إلى أهلها، وسلم من هَضْم الناس، وبَخْسِهم أشياءهم.

وأعظم واعظٍ لذلك استحضارُ العرض على مَنْ لا تخفى عليه خافية يوم تبلى السرائر؛ فما للإنسان من قوة ولا ناصر.

٥٦ـ قيمة الفضل فيه لا فيما يقال عنه

هذا العنوان مقتبس من كلام للأديب الكبير عباس محمود العقاد رحمه الله.

وقد أورد هذه الكلمة في آخر كلامٍ يحكي فيه تجربته مع أساتذته، ويبين من خلال ذلك أن العاقل ينبغي له أن يفيد من كل أحد ومن كل موقف، وقد روى ذلك عنه صديقه طاهر الجبلاوي في كتابه الموسوم: «ذكرياتي مع العقاد».

وقد أعده عباس طاهر الجبلاوي، يقول العقاد ـ فيما رواه عنه صديقه الجبلاوي في الكتاب المذكور ص٢٥ ـ: «استفدت في مرحلة التعليم الابتدائي من أستاذين اثنين على اختلاف بينهما في طريق الإفادة؛ فإن أولهما قد كان قاصداً، والآخر أفادني على غير قصد منه، فحمدت العاقبة على الحالين.

كان أحد الأستاذين الشيخ فخر الدين محمد الدشناوي، وكان يميل إلى التجديد والابتكار في التعبير، ويمنح أحسن الدرجات للتلميذ المتصرف في مناحي الكلام، وأقلها للتلميذ الذي يقتبس من نماذج الكتب.

وكانت دروسه تلتهب حماسة ووطنية، ولها تأثيرها البليغ في نفوس التلاميذ، خصوصاً في زمن كانت تئن فيه البلاد من وطأة الاحتلال.

أما الأستاذ الثاني فمدرس الحساب».

ثم تحدث عن مدرس الحساب فقال: «كان يؤمن بالخرافات، وكان محدود الفهم في دروسه، ولا سيما المسائل العقلية في دروس الحساب».

وبعد أن ذكر بعض المواقف مع ذلك الأستاذ قال: «ولكن الدرس

الأكبر الذي أحسبه أكبر ما استفدته من جميع الدروس في صباي كان بصدد مسألة حسابية من تلك المسائل العقلية.

كنت شديد الولع بهذه المسائل، لا أدع مسألة منها دون حل مهما يبلغ من إعضالها.

وكان الأستاذ يحفظ منها عدداً كبيراً محلولاً في دفتره يعيده على التلاميذ كل سنة، وقلما يزيد عليه شيئاً من عنده.

وعَرَض في بعض الحصص مسألة ليست في الدفتر، فعالجنا حلها في الحصة على غير جدوى، ووجب في هذه الحالة أن يحلها الأستاذ لتلاميذه فلم يفعل، وقال على سبيل التخلص: إنما عرضتها عليكم؛ امتحاناً لكم؛ لتعرفوا الفرق بين مسائل الحساب، ومسائل الجبر؛ لأنها تشتمل على مجهولين.

لم أصدِّق صاحبنا، ولم أَكُفَّ عن المحاولة في بيتي، وبقيت ليلة ليلاء حتى الفجر، وأنا أقوم وأقعد عند اللوحة السوداء حتى امتلأت من الجانبين بالأرقام، وجاء الفرج قبل مطلع النهار، فإذا بالمسألة محلولة، وإذا بالمراجعة تثبت لي صحة الحل، فأحفظ سلسلة النتائج وأعيدها؛ لأستطيع بيانها في المدرسة دون ارتباك أو نسيان.

قلت: لقد حللت المسألة.

قال الأستاذ: أية مسألة؟

قلت: المسألة التي عجزنا عن حلها في الحصة الماضية.

قال: أو صحيح؟ تفضل، أرنا همتك يا شاطر!

وحاول أن يقاطعني مرة بعد مرة، ولكن سلسلة النتائج كانت قد انطبعت في ذهني؛ لشدة ما شغلتني، وطول ما راجعتها، وكررت مراجعتها، وانتظرت ما يقال.

فإذا الأستاذ ينظر إليّ شزراً وهو يقول: لقد أضعت وقتك على غير طائل؛ لأنها مسألة لن تعرض لكم في امتحان.

وإذا بالتلاميذ يعقبون على نفحة الأستاذ قائلين: ضيعت وقتنا، ما الفائدة من كل هذا العناء؟».

ثم عَقَّب العقادُ على هذا الحدث بقوله: «كانت هذه الصدمةُ خليقةً بأن تَكْسِرَني كسراً لو أن اجتهادي كان محلَّ شكٍّ عندي، أو عند الأستاذ، أو عند الزملاء.

أما وهو حقيقة لا شك فيه فإن الصدمة لم تكسرني، بل نفعتني أكبر نفع حمدته في حياتي، وصح قوله (نيتشه) [1]: كل مالم يقتلني يزيدني قوة.

لأني لم أحفل بعدها بإنكار زميل، ولا رئيس، **وعلمت أن الفضل قيمته فيه، لا فيما يقال عنه أيا كان القائلون**».

والشاهد ههنا قوله: «**وعلمت أن الفضل قيمته فيه لا فيما يقال عنه أيا كان القائلون**».

والملاحظ أن كثيراً من الناس يناله الضيم، والأسى والحسرة إذا

---

١ ـ يعني به: فريدريك نيتشه، فيلسوف ألماني.

لم يعرف قدره، أو إذا صُدِعَتْ قناةُ عِزَّتِهِ.

وقد يفقد توازنه، وثقته بإمكاناته، وما وهبه الله من القدرات.

ولو أخذ بتلك الوصية الحكيمة، وأدرك أن الفضل قيمته فيه لما حفل بذلك التنكر، ولهان عليه ما يلقاه من جحود وكنود؛ **فَحُسْنُ الشيء وجمالُه، وكمالُه فيه لا فيما يقال عنه.**

والعرب تقول في أمثالها: «الدُّرُّ دُرٌّ بِرَغْمِ من جهله»: أي لا يقلّل من قيمة الرجل العظيم جهل الناس به، أو عدمَ معرفتهم له؛ فهو عظيم بأعماله، وبقدره، وخُلُقِهِ، وجوهره؛ فهو مثل الدُّرِّ الذي له قيمته، ونفاسته؛ فلا يضره جَهْلُ من جَهله.

وفي ذلك مواساةٌ لمن يقلل الناس من شأنه وعمله.

فهذا يوسف الصديق -عليه السلام- رمي في البئر، وشُري بثمنٍ بخس دراهم معدودة، ومكث في دار العزيز مَسَوُداً، ودخل السجن ظلماً.

وذلك كله لم يغير من حقيقته وجوهره الخالص، فهو الكريم ابن الكريم ابن الكريم.

ولما عُرِضَ على المحك، وَعَرَكَتْهُ الأيامُ، ووسمته المِحَنُ بميسمها- ظهر طيبُ معدنه، وتبين فضلُه ونبلُه، واستواءُ طرائقه، ولم يَضُرَّه ما أُلْصِقَ به، أو نيل منه، أو كونُه جُعِلَ خادماً مملوكاً، أو كَوْنُه لبث في السجن بِضْعَ سنين؛ **لأن قيمة الفضل فيه لا فيما يقال عنه.**

وهذا نبينا محمد -عليه الصلاة والسلام- قيل عنه: إنه ساحر، وكاهن، ومجنون، وشاعر، ونحو ذلك من الألقاب المنفرة.

وما ضره ذلك، ولا نال منه فتيلاً ولا قطميراً؛ لأن حقيقته مغايرة لما يقال فيه تماماً.

وهكذا حال جميع الأنبياء مع أقوامهم، ولو استرسل الكلامُ لطال المقام.

وقُلْ مثلَ ذلك أو قريباً منه في حال كثير من الأكابر والعلماء والعظماء؛ فكثيراً ما يُنال منهم، ويُجْهَل عليهم، ويُنْزَلون أقلَّ من منازلهم.

ولكن ذلك لا يغير من حقائقهم وكرائم معادنهم.

ومما يذكر في هذا الصدد أن الإمام الشافعي رحمه الله لما خرج إلى مصر قُطع عليه الطريق، فدخل بعض المساجد، وليس عليه إلا حزمة؛ فدخل الناس، ولم يلتفت إليه أحد، فَعَزَّت عليه نفسه؛ فقال:

عليَّ ثياب لو تباع جميعُها بفَلْس لكان الفلس منهن أكثرا
وفيهن نفس لو تقاس ببعضها نفوس الورى كانت أجل وأكبرا
وما ضر نَصْلَ السيف إخلاقُ غمده إذا كان عضباً أين وَجَّهته فرى

ويذكر أبو الفضل نصر بن أبي نصر الطوسي قال: سمعت أبا الحسن علي بن أحمد القصري يقول: حدثنا بعض شيوخنا قال: لما أشخص الشافعي إلى سُر من رأى - سامراء بلدة في العراق - دخلها وعليه أطمارٌ رَثَّةٌ، وطال شعره، فتقدم إلى مُزيِّن، فاستقذره؛ لما رأى من رثاثته فقال: تمضي إلى غيري، فاشتد على الشافعي أمره؛ فالتفت إلى غلام معه، فقال: إيش معك من النفقة؟ قال: عشرة دنانير، قال: ادفعها إلى المزيِّن، فدفعها الغلام إليه، فولى الشافعي، وهو يقول:

عليَّ ثياب لو تباع جميعها بفلْس لكان الفلس منهن أكثرا

الأبيات ....

والخلاصة أن الأشياء لا يغير حقائقها ما يقال عنها أيّاً كان ذلك المقول أو القائل.

كما أن الفاضل فاضل ولو لم يُعْرَفْ قَدْرُه، أو نُسِبَ فَضْلُه إلى غيره؛ **ففضل الشيء كامِنٌ فيه، ولو عُزِي إلى غيره.**

كالعِطْر يَعْبَقُ في المجالس نَشْرُه والفَضْلُ منسوب إلى المُتَعطِّرِ[1]

١ ـ البيت للأديب الكبير الشاعر د. عبدالله بن سليم الرشيد

٥٧ـ النفس اللجوج

يقول كعب بن سعد الغنوي في رثاء أخيه أبي المغوار:

فقلت ادعُ أخرى وارفعِ الصوت جهرةً لعل أبي المغوار منك قريب[١]

فتى كان أما حلمه فَمُروَّح علينا وأما جهله فعزيب

حليم إذا ما سورة الجهل أطلقت حُبَى الشِّيب للنفس اللجوج غلوب

فهذه الأبيات من أجمل ما قيل في الرثاء والمدح؛ فكعب يرثي أخاه، ويمدحه بالحلم؛ فحلمه مبذول لهم، وجهله عازب بعيد عنهم.

وإذا غضب الأشياخ الكبار الموصوفون بالحلم ـ مَلَكَ أبو المغوار نَفْسَهُ، فلم تستفزَّه سورةُ الجهل، وثورةُ الغضب، ولو بلغت في أن تَحُلَّ حُبى الشِّيب.

والحُبى: جمع حِبْوة ـبضم الحاء وكسرهاـ وهي جلسة معروفة عند العرب.

والاحتباء: هو الجلوس وإيقاف الساقين، فتجعل الفخذان تجاه البطن بإلصاق، ويلف الثوب على الساقين والظهر، فإذا أراد المحتبي أن يقوم أزال الثوب.

وأما الاحتباء باليدين فهو أن يجعل المحتبي يديه يشد بهما رجليه عوضاً عن الثوب، فإذا قام قالوا حلَّ حِبوته.

وكان الاحتباء أكثر جلوس العرب.

وكانت هيئة جلوس رسول الله ﷺ في مجلسه غالباً الاحتباء، فقد

١ـ فيه هذا البيت شاهد نحوي، وهو مجيء (لعل) جارَّة على لغة عُقَيل.

ذكر الترمذي في كتاب الشمائل عن أبي سعيد الخدري ﷺ : «كان رسول الله ﷺ إذا جلس في المجلس احتبى بيديه».

وقول الراوي: كان يفعل، يدل على أنه السُّنَّةُ المتكررة.

والشِّيْب: جمع أشيب، وهو الشيخ الكبير.

واللافت في الأبيات تعبير كعب عن ثورة النفس بكلمة «**النفس اللجوج**»، وثناؤه على أخيه بأنه «**غلوب**» لتلك النفس.

وهذا تعبير رائق، شائق، رائع.

وقد سبقه عنترة إلى التعبير بالنفس اللجوج في قوله:

إني امرؤ سمح الخليقة ماجد   لا اتبع النفس اللجوج مناها

فالنفس ـ في حقيقتها ـ لجوج، وكلمةُ (لجوج) قريبة من كلمة (لحوح) وزناً ومعنى.

فهي تَلجُّ بصاحبها، وتُلِحُّ عليه، ولا تُقْصِرَ عن طلباتها التي ربما ترديها؛ فهي تطالبه بالانتقام، والاسترسال مع الغضب، وتطالبه بالانهماك في الملذات، والشهوات، ولو كان ذلك على حساب صحة البدن والقلب.

وتطالبه بالظلم، والاعتساف، وسوء الظن ولو كان فيه المأثم والمغرم.

وتطالبه بالكسل، والإخلاد إلى الدعة، ولو كان على حساب فوت الفضائل.

فإذا اجتمعت هي والشيطان والهوى فتلك ظلمات بعضها فوق بعض.

فما أحوج العاقل أن يكون لنفسه غلوباً، وذلك بمداواتها

ومجاهدتها، ومراغمتها، وضبطها، وردِّها عن غيها، وإصلاح ما فسد مِن جرَّاء طاعتها.

وإلا قادته إلى الغواية، ونزَعَت به إلى شر غاية.

ولهذا سلكت هداية القرآن هذا المهيع، فتظاهرت الآيات في الحث على قدع النفس، ونهيها عن الهوى، وبيان العاقبة الحميدة لذلك، والعاقبة الوبيلة لمن أرخى العنان لها.

قال الله -عز وجل-: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ (النازعات: ٣٧ – ٤١).

كما تتابعت وصايا الحكماء في التأكيد على هذا المعنى، قال أحدهم:

والنفس إن أعطيتها مناها فاغرة نحو هواها فاها

ولقد أحسن ابن المبارك إذ يقول:

ومن البلاء وللبلاء علامة ألا يرى لك عن هواك نزوع
فالعبد عبد النفس في شهواتها والحر يشبع تارة ويجوع

وقال آخر:

إذا المرء أعطى نفسه كل ما اشتهت ولم ينهها تاقت إلى كل مطلب

وقال الحسين بن مطير:

ونفسَك اكرم عن امور كثيرة فمالك نفس غيرها تستعيرها
ولا تقرب الأمر الحرام فإنما حلاوته تفنى ويبقى مريرها

وقال اليزدي: دخلت على هارون الرشيد فوجدته مُكِبّاً على ورقةٍ ينظر فيها، مكتوبة بالذهب، فلما رآني تبسَّم، فقلتُ: فائدة

أصلح الله أمير المؤمنين.

قال: نعم، وجدتُ هذين البيتين في بعض خزائن بني أمية، فاستحسنتهما، فأضفت إليهما ثالثاً، فقال: ثم أنشدني:

إذا سد بابٌ عنك من دون حاجة ... فدَعْهُ لأخرى ينفتح لك بابها
فإن قُرابَ الأرضِ يكفيك ملأه ... ويكفيك سوءاتِ الأمور اجتنابُها
فلا تك مِبذالاً لدينك واجتنب ... ركوبَ المعاصي يجتنبْكَ عِقابُها

٥٨ـ الشيخ عبدالكريم اليوسف ـ الداعية الصبور

في يوم الأحد ١٤٣١/١/٢٤هـ توفي الشيخ الجليل الداعية الصبور، المربي الحليم عبدالكريم بن عبدالمحسن اليوسف المسعود، وفي يوم الاثنين ١٤٣١/١/٢٥هـ شيعت محافظة الزلفي ذلك الرجل الذي حملت له الود، والتقدير، والثناء، والدعاء.

ذلك الشيخ الذي ودع الدنيا بعد أربع وثمانين سنة قضاها في تعلم العلم، والدعوة إلى الله، ونفع الناس بكل ما أوتي.

لقد عَرَفَت محافظةُ الزلفي، وما جاورها من الهجر والبوادي ـ الشيخَ عبدَالكريم منذ ما يزيد على خمسين سنة، عرفته بحلمه، وسعة صدره، وبذل نفسه، وتنوع أعماله الصالحة.

لقد عرفت فيه البساطة، والسماحة، والتواضع، وتَحَمُّل الناس على اختلاف طبقاتهم.

لقد كان قبل سنوات يقوم بأعمال تحتاج إلى مؤسسات ورجال؛ حيث كان يعلم القرآن الكريم في مسجد العليوية قديماً قبل إنشاء مسجده، ويباشر إمامة مسجده الذي أُنْشِئَ قبل خمس وثلاثين سنة، واستمر في إمامته إلى آخر يوم من حياته.

وكان يقوم بتغسيل الموتى ودفنهم في وقت لم تكن فيه تلك المغاسل الحديثة.

وكان يقوم بالدعوة إلى الله في الهجر، والبوادي، وداخل البلد، وكان يعلم الناس أركان الإسلام؛ فيعلمهم الشهادتين، والصلاة،

والوضوء، ومحاسن الأخلاق.

وكان له مجلس في السوق تحت جدار المسجد الجامع ـ جامع الملك عبدالعزيز حالياً ـ وكان يزاول فيه بعض الأعمال التي يكسب منها رزقاً، وكان يحضر ذلك المجلس كبار السن، وغيرهم، فيفيدهم علماً، وتذكيراً.

وكانت مجالسه عموماً عامرة بذكر الله، والصلاة على نبيه ـعليه الصلاة والسلامـ ويغشاها الناس على اختلاف طبقاتهم، كما كان هو يغشى الناس في مجالسهم، ويلقاهم بالبشر، والسماحة، وإحسان الظن.

وكان ذا جلد عجيب، وصبر على الناس؛ فكان لا يمل من تعليم جاهل، أو رقية مريض، أو إيناس غريب.

وكانت له علاقات كثيرة بأناس تختلف طبقاتهم، وأكثر هؤلاء ممن ليسوا من طبقته، بل ممن هم في سن أولاده، وأحفاده من المعلمين والطلاب؛ فيوجد بينه وبينهم من العلاقة، والمزاح، والأريحية ما يكون بين الأب وأبنائه، بل الصديق وصديقه، فكانوا يلتقونه، ويتصلون عليه، ويتصل عليهم عبر الهاتف الجوال.

وكان ذا صوت شجي مميز في تلاوة القرآن، وإلقاء القصائد، كنونية ابن القيم وغيرها، وكثير من أقاربه، ومحبيه يحتفظون بمواد صوتية مسجلة من تلاوات أو أحاديث، أو قصائد يلقيها في كلماته العامة، أو في المجالس التي يرتادها.

وكان رحمه الله واصلاً لأرحامه، متودداً لأهل بيته صغاراً وكباراً، فكانوا يحبونه حباً جماً، ويأنسون به، ويحرصون على لقياه.

وكان كثير الدعاء للمسلمين عموماً، ولولاة أمرهم، وعلمائهم، وشبابهم.

وكان من عادته الذهاب إلى القرى والبوادي كل يوم جمعة؛ لأجل إلقاء الخطبة بهم، أو إلقاء كلمة بعد الخطبة، ثم يجلس معهم إلى ما بعد العصر، ويعلمهم ما تيسر له مما يحتاجونه من أمور دينهم.

ولهذا فإنه لم يصَلِّ في الزلفي الجمعة منذ ما يزيد على أربعين سنة؛ للغرض المذكور ـوهو الذهاب للدعوةـ.

بل إن آخر جمعة عاشها ـأي قبل وفاته بيومينـ صلاها في أم رقيبه، وبعد رجوعه شعر بالتعب، ثم أُدخل المستشفى على أثرها.

وقبيل وفاته بدقائق صار يدعو للذي يباشر الإشراف على علاجه في المستشفى، وقال له: «أبشرك أنني في الجنة» ثم مات بعدها ـذكر ذلك لي ابنه الشيخ أحمدـ.

ومما هو معروف في الزلفي أن مسجد الشيخ عبدالكريم آخر المساجد خروجاً من الصلاة، حيث كان يؤخر الصلاة عن وقت الإقامة المعتاد؛ لأن مسجده على طريق عام، وجماعة المسجد قليلون، وربما أن أكثرهم غير مستقرين، فكان يؤخر الصلاة؛ لإعطاء الفرصة لمن تفوتهم الصلاة؛ ليدركوها معه، فإذا فرغ من

الصلاة خصوصاً صلاة العصر ألقى حديثاً، إما شرحاً لكتاب التوحيد، أو ثلاثة الأصول، أو آداب المشي إلى الصلاة، أو غيرها.

ثم يجلس لمن أراد الرقية، أو الاستئناس به، أو قراءة شيء عليه.

وكان رحمه الله كثير الفأل، كثير الحمد والشكر لله، فلا تراه عابساً، أو ضائقاً من أي شيء، بل كان يعلو وجهه البشر في شتى أحواله.

وإذا سُئِلَ عن حاله قال: «الحمد لله» يقولها بصوت مميز يُشْعِرُ من خلالها أنه متلذذ بالحمد، ناطق به من أعماق قلبه.

ومن صفاته رحمه الله أنه لا يعتب، ولا يكهر، ولا ينهر، ولا يرى أن له حقوقاً على الناس؛ فلو واصلته في كل يوم لما ملَّك، ولو انقطعتَ عنه سنة أو أكثر لما خشيتَ من سياط عتابه، بل يقابلك بابتسامة، وترحيب وربما قال: فقدناك، أو اشتقنا إليك.

وكان رحمه الله يدرب من معه من الشباب على الدعوة إلى الله، وإلقاء الكلمات في المجالس.

ولقد رحل عن الدنيا وهو في كامل صحته، وعافيته، وقوته العقلية؛ فأصيب بجلطة ثم توفي بعدها بساعات؛ فلما علم الناس بذلك خَيَّمت على البلد سحابة من الحزن، ولما أعلن وقت الصلاة عليه تقاطر الناس إلى جامع الملك عبدالعزيز للصلاة عليه؛ فاجتمع في ذلك المسجد جمع كبير مشهود، فصلي عليه، وشيع إلى المقبرة، وصار الناس يعزي بعضهم بعضاً بالشيخ.

وصِرْتَ ترى أناساً ربما لم يجتمعوا في جنازة أخرى، فترى أقاربه، وأهل بلده، وأهل القرى المجاورة، والمقيمين في البلد، والصغار، والكبار، بل ترى ناقصي العقول والمدارك وهم في حزن شديد؛ لما كان يشملهم الشيخ برحمته، وعطفه، وحنانه.

رحم الله الشيخ عبدالكريم اليوسف، وألهم أهله وذويه، ومحبيه الصبر، وأورثه الفردوس الأعلى، وجزاه خير ما جزى به الدعاة الصابرين المحتسبين.

٥٩- أنتَ

يحدثني أحد الأفاضل أنه حضر خطبةَ جمعةٍ في أحد الجوامع، وكان موضوع الخطبة في ذلك اليوم يدور حول ظاهرة اجتماعية يتصف بها بعضُ الناس، وأن الخطيبَ مضى في عرض تلك الظاهرة، وتشخيصها، وذكر الأسباب المُعينة على التخلص منها.

يقول ذلك الفاضل: «ولما خرجت من المسجد إذا بشخص يمسك بيدي، ويقول لي: لقد أجاد الخطيب، وياليت فلاناً من الناس حاضر؛ كي يفيد من تلك الخطبة التي تعالج ما هو مُتلبِّسٌ به من تلك الظاهرة.

فقلت في نفسي: ياليت أنك أفدت من تلك الخطبة؛ لأنك من أشد الناس تلبساً بتلك الظاهرة التي عالجها الخطيب ا.هـ.

فهذا الحوار ينقل لنا صورة تتكرر كثيراً، وهي أننا لا نفلح في تغيير ما عندنا في كثير من الأحيان؛ لأننا لا نجد من ينبهنا على عيوبنا، وإذا وَجْدَنا من يَنَبِّه عليها عموماً ظنناً أن المقصود غيرنا دون أن نتفقد أنفسنا، ونستشعر أننا قد نكون متلبسين بما سمعنا؛ فيقودنا ذلك إلى الإصلاح، والتغيير نحو الأفضل.

أما أن نرمي بتلك المساوئ على غيرنا، ونسب إلى أنفسنا كل فضيلة تقال - فذلك مرض آخر يَعَزُّ علاجه؛ فيكون حالنا كما قال

حذيفة رضي الله عنه : «نعم أبناء عمٍّ يهود؛ ما كان من حلوة فهي لكم، وما كان من مرة فهي لهم».

يعني بذلك أن الحسد، والجشع، والظلم، والبغي وغيرها من الصفات القبيحة ـ هي من أوصاف اليهود.

أما الصفات الحسنة من الكرم، والإيثار، والعدل ونحوها ـ فهي لكم.

فحذيفة رضي الله عنه ينبه من خلال ذلك الأثر إلى تلك الظاهرة.

ولا ريب أن اليهود هم أهل تلك الأوصاف القبيحة.

أما أن يتلبس بها بعض المسلمين، ويظنون أنهم بمنجاة من عواقبها الوبيلة، أو يرون أن مجرد إسلامهم كافٍ بادعاء الكمال دون اتصاف به ـ فلا؛ لأن الإيمان قول وعمل، ولأن من تشبه بقوم فهو منهم.

وبهذه النظرة يصل الإنسان إلى إدعاء الكمال في نفسه، وإدعاء النقص في غيره.

وهذا هو ما ينبغي للعاقل أن يحذره؛ حتى لا يستمر على عيوبه، ونقائصه.

ولا يعني ذلك أن الإنسان يشك في أنه المقصود من أي كلام عام، وإنما المراد أن يستشعر أنه ليس بمعصوم، وأنه محتاج إلى التذكير بما ينهض به، وينبهه على عيوبه.

٦٠- الوقت المناسب للتصحيح

حَدَّث أحدهم قائلاً: «في يوم من الأيام أيقظت أحد أبنائي لأداء صلاة الفجر، وكان يومئذ في المرحلة الأولى المتوسطة في أيام الامتحانات وكان مرهقاً متعباً، فأعطيته مفتاح السيارة، وطلبتُ منه أن يشغل السيارة؛ كي ترتفع حرارتها؛ لأننا في فصل الشتاء.

فذهب، وركب في السيارة، ووضع المفتاح في مكان التشغيل دون أن يفتحه، وإنما تركه هكذا.

فلما أتيت إلى السيارة وجدت أنه لم يشغلْها، فعاتبته، وبعد أن رجعنا من الصلاة قلت له: ماذا ستصنع: قال: سأرتاح قليلاً، قلت له: أذهب إلى منامك قال: حسناً، فلما تفقدت غرفته وجدت أنه لم يأتِ إليها، وإنما نام في المجلس الأرضي، فنزلت إليه، وقلت له: لِمَ لَمْ تصعد؟ قال: نسيت، فقلت له: أصعد الآن، وخذ جبَّتك وضعْها في مكانها في غرفتك قال: حسناً، فلما رجعت وجدت أنها ألقاها في الدَّرَج، فغضبت من هذه التصرفات التي تنم عن قله مبالاة.

فأتيت إليه، ونهرته، فارتفع صوته، وصار يجادلني على غير عادته.

حينها ذهبت وتركته، فلما حان وقت الإفطار، والذهاب إلى الامتحان بدا على وجهه الضيق والكدر، ولم يتناول إفطاره؛ فأوصيت والدته بأن تلاطفه، فاستجاب قليلاً، ولكنه ذهب، ولم يتناول إفطاره كما ينبغي.

عندئذ أدركت أنني أخطأت في التوقيت، ولم أراعِ الوقت المناسب للتصحيح؛ فالابن كان مرهقاً، ومتعباً لقيامه لصلاه الفجر، ويعيش في فترة امتحانات، كما أن الجو بارد ؛ فعذرته، وعذلت نفسي، وصار درساً لي في اختيار الوقت الأمثل للعلاج » أ.هـ.

فهذه الحادثة اليسيرة يقاس عليها أحوال كثيرة تمر بالإنسان في حياتها اليومية؛ حيث يرى الأخطاء، فيسعى في علاجها دون مراعاة لملائمة الوقت؛ فلا يقع العلاج موقعه، بل ربما زاد المرض تفاقماً.

لذا فإنه يجدر بالعاقل ملاحظة عامل الوقت في تصحيح الخطأ؛ فلا يصلح أن يكون ذلك وقت شدة غضب، أو شدة حَرٍّ، أو تَكَدُّرِ مزاج، أو ما جرى مجرى ذلك.

فإذا ما فرط الإنسان في ذلك فإنه سيندم، وربما دفع الثمن غالياً.

٦١- الغمغمة

الغَمْغَمة عيبٌ من عيوب المنطق العربي، وهي أن تَسْمَعَ الصوتَ، ولا يَبِيْن لك تقطيعُ الحروف، ولا تفهم المراد.

ولا يراد بهذه الفكرة معنى الغمغمة من هذه الناحية؛ فمكانها كتب الصوتيات، وفِقْه اللغة.

و إنما يراد معنىً قريبٌ منه، ألا وهو الغمغمة في المواقف، والغمغمة في الآراء، فتجد من الناس لا يكون له رأيٌ محدَّدٌ في كثير من الأمور؛ خشية ألا يكون هذا الرأي صواباً، وإنما تجده يعطي إشاراتٍ محتملة لعدة أوجه؛ فإذا تَمَخَّضَ الأمرُ لأيٍ منها انحاز لذلك الرأي، وصار يعيب بقيةَ الآراء، ويفاخر بأنه قد قال بكذا وكذا، وأشار بكذا وكذا، ولم يشر- كغيرة ممن أخطأوا - بكذا وكذا.

ولا أعني بذلك أنه يلزم الإنسانَ أن يكونَ له رأي في كل مسألة، و أن يصرح بكل رأي يراه، أو أن يصرح به لكل أحد فهذا غير محمود، وليس محلَّ الحديث ههنا.

وإنما المقصود ألا يكون الإنسان متأرجحاً لا يُعْرَفُ ما يريد.

فإذا رغب في إبداء رأيه في أمر ما، أو الإشارةِ بأية مشورة، أو سئل عن أي سؤال -أن يكون واضحاً صريحاً يبين ما عنده دون لبس أو غموض.

أما أن يُقَلِّب الأمورَ، ويلتمس لنفسه المعاذير؛ كي لا يقال: أخطأ في الرأي، أو المشورة -فليس ذلك بسداد.

وهل يلزم المشير أن يكون رأيه معصوماً دائماً؟ وهل ينافي الكمال والسؤدد أن يخطئ الإنسان في بعض أرائه، أو قراءاته للمواقف؟

لا؛ فأي الرجال المهذب ومن ذا الذي ترضى جميع سجاياه؛ فما هو إلا بشر، وما كان لبشر أن يدعي أنه لم يقل ولن يقول إلا صواباً.

والحاصل أن الغمغمة مَرَضٌ يُفْقِدُ الثقةَ، ويقطع الطريق على الإقْدَامِ نحو الصواب.

والوَضوح علاج ناجع، وسلاحٌ ماضٍ يَتَّسِمُ به الرجال الواثقون من أنفسهم، و نزاهتهم.

٦٢- طلاق مثالي

كثير من الناس يتهاون بشأن الطلاق، فتراه يرسل لسانه بكلمة الطلاق دونما النظر في العواقب.

وكثيراً ما يقع الطلاق لأسباب تافهة، فيقوَّض سعادة قائمة، ويبدد شمل أسرة متماسكة.

ومن هذه الأسباب نزوة غضب رعناء تستبد بالمرء، فتعمي بصره، وتشل تفكيره، وتطيش بعقله، وتقوده إلى الطلاق.

وكثيراَ ما يندم الزوج إذا طلق؛ فبعد أن كان آمناً في سربه، ترفرف عليه السعادة، والطمأنينة، إذا به يقلب كفيه، ويقرع سنه ندماً على تطليقه زوجتَه.

ومن هنا تتنغص حياته، ويتكدر عيشه؛ فالطلاق حلُّ عقدةٍ، وبتُّ حبال، وتمزُيق شملٍ، وزيالُ خليط، و انفضاض سامر؛ ففيه كل هذه المركبات الإضافية إلى استعملها العرب، وجرت في آدابهم مجرى الأمثال، من التياع وحرارة، وحسرة، ومرارة مع ما يصحبه ذلك من الحقد، والبغض، والتألم، والتظلم.

فلهذه الملابسات التي هي مقتضى الفطر السليمة، والطباع الرقيقة شرع الإسلام الطلاق مقيداً بقيود فطرية، وقيود شرعية؛ فاعتمد في تنفيذ الطلاق -بعد فهم المراد - على إيمان المؤمن، وشرع له من المخفِّضات ما يهوِّن وقعه، كالتمتيع، ومدِّ الأمل بالمراجعة،

وتوسيع العصمة إلى الثلاث؛ حتى تمكن الفيئة إلى العشرة.

وكما أن هناك من يفرِّط فيستعجل في شأن الطلاق فهناك من يفرط من جهة أخرى، فيمنع الطلاق، ولا يُقْدِمُ عليه مهما كان الوضع، ومهما توافرت الدواعي له.

والحق قوام بين ذلك؛ فلا الاستعجال في شأن الطلاق بالأمر المحمود، ولا تركه إذا توافرت أسبابه بالمحمود كذلك.

إن الطلاق في الإسلام لَمن أعظم الأدلة على أن هذا الدين من لدن حكيم عليم؛ فالله -عز وجل- إنما شرع الطلاق لحكمة بالغة، ومصلحة راجحة ظاهرة؛ فلماذا نمنعه إذا تحققت دواعيه وتوافرت أسبابة؛ فيكون ذلك المنع سبباً في عذاب شخصين وشقائهما؟.

فلماذا هذا العذاب؟ ولمصلحة مَنْ ذلك الشقاء؟ وإلى متى يظل البيت جحيماً ملهباً كلما خبت ناره زادها الخلاف سعيراً؟.

إن الزواج نعمة عظمى، وقد امتن الله به على عباده في غير موضع من كتابه؛ فالزواج عقد بين قلبين، ومزج بين روحين، وفي الأخير تقريب بين جسمين؛ فإذا تراخت عراه بين القلبين ذهب السكون والمودة والرحمة.

ومن هنا يُسعى في محاولة الجمع، والإصلاح، ورأب الصدع.

فإذا زاغت الفطرة من أحد الزوجين عن محورها، أو طغت الغرائز الحيوانية على الفضائل الإنسانية في أحدهما أو كليهما، وباءت محاولات الإصلاح بالإخفاق ـ فالله أرحم من أن يكلف عبادة تحمل هذا النوع من العذاب النفسي، وهذا الجمع بين قلبين لم

يأتلفا، وطبعين لم يتَّحدا، وروحين تناكرا، ولم يتعارفا.

ثم إن من الأزواج من لا يكتفي بالتسريح الجميل إذا لم يتوافق مع زوجته، فتراه إذا فارقها بطلاق أو خلع يُسفُّ في ذمها، ويسرف في ذكر مساوئها، وربما رماها بما هي براء منه، وربما نفَّر منها من أراد الزواج بها.

وربما ذمها عند أولادها منه، وحثهم على عقوقها وهجرانها.

وهذا من الظلم المبين، والعدوان العظيم؛ ذلك أن الشارع أمر الزوج إذا فارق زوجته أن يُسَرِّحَها سراحاً جميلاً، وأن يسرحها بإحسان، فيستر ما وقف عليه من عيوب زوجته، ويمسك عما لا يجوز ذكره.

ثم إن ملك الله واسع، وفضله عظيم؛ فله عنها متسع، ولها عنه متسع.

ثم إن رغبات الناس تتباين؛ فما لا يناسب الزوج الأول قد يناسب غيره، وما يعد عيباً ربما كان في نظر الآخرين مزية.

هذا وأعرف قصة طلاق حصلت لأحد الناس الذي أعرفهم تماماً، ولو أنني لم أقف على تلك القصة لربما ظننت أنها ضرب من الخيال.

هذا الرجل مكث مع زوجته سنوات؛ ورزق منها بأولاد، وكان هو من مدينة، وزوجته من مدينة أخرى.

وصار بينهما شيء من الخلاف بسبب اختلاف طبيعتهما؛ فطبيعته

تميل إلى البرود، وطبيعتها تميل إلى الحرارة.

وفي يوم من الأيام جلس معها، وقال لها: يا أم فلان لا ينبغي أن تستمر حالنا هكذا في نزاع، وشد وجذب، فإما أن نتفق؛ أو نفترق، إما إمساك بمعروف، أو تسريح بإحسان؛ فقالت: دعني أفكر في أمري، وأستخير ربي، وآمل منك أن تقوم بذلك.

وبعد مدة قالت له: أرى أن المناسب لي ولك أن نفترق؛ فلعل الله يغني كلٍّ واحد منا من سعته، فقال لها: إذاً نفكر على بركة الله في طلاقنا.

وفي يوم من الأيام ذهب بها إلى بيت أهلها، وتوجَّه إلى المحكمة، وأثبت الطلاق، ورجع إليهم، وأخبرهم بذلك، وتناول الغداء معهم، ثم ودعهم.

يقول: فرجعت إلى بيتي، وبكيت حتى أفرغت أكثر ما عندي؛ حزناً على تلك العشرة الطويلة، ثم اتصلت بمطلقتي وأمِّها؛ لأن والدها متوفى، وقلت لها: الأولاد بيننا إن أردتم أن يكون عندي فبهما ونعمت، وإن أردتم أن يكون عندكم فالأمر كذلك.

فقالا: نريد أن يكونوا عندنا، فقلت: إذاً أخبروني عن النفقة التي تناسب حتى أرسلها بين الفينة والأخرى، فاتفقنا على مبلغ، وصرت أرسله لهم، وأتابع أولادي، ويزورونني بين الفينة والأخرى، وأزورهم أنا كذلك، وأتواصل مع والدتهم في شأنهم.

وبعد مدة تزوُجتُ ورزقتُ بأولاد، وتزَّوجَتْ مطلقتي، ورزقت بأولاد، واستمرت الصلة بيننا بشأن الأولاد، وإذا ذهبتُ إلى مدينتهم

وحدي أو بصحبة أحد زملائي -أزور جدة أولادي، وأتناول عندهم الغداء، أو العشاء، وأسلم على أولادي؛ ثم أرجع إلى بلدي.

وإلى يومنا هذا وأنا سعيد بزواجي الأخير، وهي كذلك، وأولادنا يسيرون في دراستهم وشتى أمورهم، وكأنهم بين والديهم.

فقلت له: ألم يحدث بينكما خلاف طيلة تلك الفترة؟ قال: لا، بل أنا شاكر لهم حسن تربيتهم لأولادي، ويكفي ما حصل من طلاق بيننا؛ فلا داعي أن نزيده سعيراً بالقيل والقال، وبكل ما ينغص عيشنا، ويؤذي أولادنا.

هذه قصة صاحبنا الذي أعرفه تمام المعرفة، وأعرف حاله إلى يومنا هذا.

وهي تعطينا درساً في حسن التعامل مع الخلاف، بل مع صورة من أعظم صور الخلاف ألا وهي الطلاق، فمع بالغ الأسف أن الطلاق -غالباً- إذا حصل لم يكتف كلٌّ طرف من الأطراف بلوعة الفراق، وآثاره، بل تراهم يُطْعِمون نار الخلاف جَزْلَ الحطبِ، فكلما خبت زادوها سعيراً.

والنتيجة أنهم يخسرون جميعاً خسارة فادحة تَطَال صحتهم، وأوقاتهم، وربما أموالهم، وأديانهم.

ولو أنهم امتثلوا آمر ربهم -جل وعلا- بالإمساك بالمعروف، أو التسريح بالإحسان لكان ذلك خيراً وحسن تأويلاً.

٦٣- البحث عن المنغصات

لاحظت أن كثيراً من الناس يبحثون عما ينغص عليهم، ويجلب لهم الكدر والغم.

فبينما هو يعيش في بَحبوحهِ من العيش مِنْ جهة وَفْرة المال، وتمام الصحة، واستتباب الأمن، وسعة المسكن، وملائمة الزوجة، وصلاح الأولاد، وغير ذلك من النعم الكثيرة التي لا تقدر بثمن؛ فبينما هو يتمتع بتلك المزايا فإنك لا تراه يقنع بها، أو يتذكرها؛ لينبعثَ إلى مزيد من الشكرِ، فَتَدِرَّ نِعَمُهُ، وَتقر.

وإنما تجده يبحث، ويُنقِّب عن منغصات لا وجود لها، أو تكون موجودة، لكنها لا تستدعي سوى غض الطرف عنها، أو تكون نِسْبَةُ وقوعها ضئيلة، ولو وقعت لكان التعامل معها سهلاً وميسوراً.

غير أن ذلك المتعجلَ هَمَّه يُكبِّر تلك الصغائرَ، ويجعلها تَقْلِبُ سعادته إلى شقاء .

فما الداعي للبحث عن المآسي واجترار الآلام ، ولماذا لا يتذكر الإنسان نِعَمة، ويحاول الاستمتاع بكل لحظة من حياته؟ ولماذا لا ينام خالي البال تاركاً المقادير تجري في أعنتها؟

٦٤- بين الثقة والغرور

ثقة الإنسان بنفسه، وقيامه بما أنيط به، ومَعْرِفَتُهُ إمكاناتِه التي وهبه اللهُ إياها، ومواجهتُه الجمهورَ بالحديث دونَ تلعثم أو تردد ـ كل ذلك مظهر من مظاهر الثقة، ورباطة الجأش التي ترفع منزلة صاحبها.

ولكنَّ هذه الثقةَ قد تكون غروراً وتيهاً، وتعالياً، ورؤية للنفس، واحتقاراً للآخرين، وتخطياً للمقامات، فتؤول تلك الصفة إلى ذم، ونقص، وسقوط من الأعين.

وبين الثقة بالنفس، والغرور شعرةٌ، والتفريقُ بينهما يحتاج إلى صفاءِ فِطْرة، وتقلُّب في الأحوال، ونظر في سير أعاظم الرجال.

فالعاقل الحكيم هو الذي يَقْدُرُ نفسه قَدْرها، فيضعها موضعها اللائق بها، ولا يزدري ما آتاه الله من مواهب؛ فينزلها أسفل من منزلتها.

٦٥- حبُّ الذات

كثيراً ما تتردد على الألسن، وتجري على الأقلام كلمة (حبُّ الذات) فيقال: فلان يحب ذاته، أو يحب نفسه، وتُوَردُ هذه الكلمة مَوردَ الذم.

والحقيقة أن حبَّ الذات أمر فطري، لا يحتاج إلى تحليل، أو تعليل.

ولولا حبُّ الذات لما سعى ساعٍ إلى خلاص نفسه من النار، ولما رفعها عن مواطن الهُوْن، ولما اجتهد أحدٌ في كسب المال، وبناء الدور، وابتغاء الولد، ولما دفع أحد عن نفسه الألم، والذم، إلى غير ذلك مما يسعى إليه الناس في جلب مصالح، ودفع مضارهم.

وقديماً قال الأول:

وكلُّ امرئٍ قاتلٌ نَفْسَه ... على أن يقال له: إنَّهُ

وقال الآخر:

يهوى الثناءَ مُقصِّرٌ ومُبَرِّزٌ ... حُبُّ الثناء طبيعةُ الإنسانِ

ومما أَمَرْتَ به الشريعة من جملة الأوامر الاستباقُ إلى الخيرات، والمسارعة إلى الأعمال الصالحات؛ فصار الناسُ درجاتٍ ومراتبَ من هذه الناحية، فمنهم الظالم لنفسه، ومنهم المقتصد، ومنهم السابق بالخيرات بإذن الله.

فحب الذات-إذاً- لا يذم ولا يعاب.

ولقد حاولت الشيوعية عبثاً أن تنزع غريزةَ حُبِّ التملك؛ بحجة

محاربة الطبقية، ووجوب المساواة بين الناس؛ فما استطاعت إلى ذلك سبيلاً؛ بل وقعت في طبقية أشد مما كانت تحاربه؛ فبينما أفراد الشعب يعيشون عيشة الجند في الحظائر، وبينما أفرادُ الأسرةِ ينامون في غرفة واحدة متقاربة جداً من بعض، وفي النهار تكون تلك الغرفة مطبخاً لهم -إذا بالطبقة الحاكمة تُغْرِقُ في النعيم إلى الأذقان من جهة المسكن، والمركب، والملبس، والعلاج

فحبُّ الذات-إذاً- غريزةٌ جُبِل عليها الإنسان، ولا يلام على ذلك ولا يذم به؛ فنفسه أغلى ما يملك.

وإنما يلام الإنسان ويذم إذا بالغ في حُبِّ ذاته، وغلا في الرغبة في استئثارها بخصال الحمد، وصار يحب أن يحمد بما لم يفعل، ويود أن يَنْسِب كلَّ شيء حسن إلى ذاته.

فهذا هو المذموم من حب الذات، وهو ما يعرف بالأَثَرة، ويعرف- كذلك- بالأنانية، نسبة إلى كلمة(أنا) فكأنه يرغب في ترديد هذه الكلمة؛ ونسبةِ كلِّ خير إلى ذاته؛ فسمي أنانياً.

وقد يبلغ بذلك الذي يغلو بحب ذاته أن يكون همُّه جلبَ المصلحة لنفسه، أو دفعَ المضرة عنها ولو على حساب غيره؛ بحيث لا يبالي إذا أَخَذَ حقَّ غيره، أو تخلص من بلية وألصقها ببريء.

وقد يصل الأمر ببعض مَنْ يُغالون في حب ذواتهم أن يعجبوا بأنفسهم؛ ويبالغوا بالثقة فيها مبالغةً مُخْرِجَةً عن الطور، بحيث يرون أنهم فوق النقد، وأنه لا ينبغي أن يصدر تجاههم إلا كلمات الإطراء.

وترى بعضَ مَنْ يبتلى بذلك الداء يشعر من داخله بالتعظيم لنفسه؛

كما ذُكر عن بعض من لهم شهرة من المفكرين العرب في القرن الماضي أنه ربما قال لنفسه إذا هم بالنوم: (لِنَنَمْ) على سبيل التعظيم.

وهذه الخصلة تُعرف عند بعض المفكرين الغربيين وبالذات من أتباع مدرسة التحليل النفسي -بالنرجسية، وهو داء يُبْتلى به بعض المشاهير من العظماء والزعماء وغيرهم.

والنرجسية -في أصلها- تُعرف بِعُقْدة نرجس -أو نارسيس- وهي خرافة وأسطورة يونانية قديمة، تقول: إن هناك فتىً بارعَ الجمال اسمه نرجس، أو نارسيس، وكان لا يأبه بإعجاب الفتيات به؛ لأنه لم يكن يشعر بجماله، وفي يوم من الأيام ذهب إلى غدير يستقي منه؛ فرأى صورتَه منعكسةً على سطح الماء؛ فظل مبهوراً يتطلع إليها إلى أن تَحَوَّل إلى زهرة تحمل ذلك الاسم.

وهي أسطورة تعليلية لبعض المظاهر الطبيعية؛ فقد رأى اليونان في بداوتهم أن زهرة النرجس تنبت على الغدران، والينابيع؛ فعللوا بهذه الحكايةِ هذه الظاهرةَ، ثم أصبحت تلك الأسطورةُ وذلك الاسمُ رمزاً لنزعة مَرَضِيَّةٍ تصيب بعض الناس، وخاصة بعض الفنانين، والزعماء، والمفكرين، والمشاهير، فيقال: فلان نرجسي، أو مصاب بعقدة نرجس، أو عنده نرجسية.

وهذه النزعة عندما تنتقل من حدود الثقة بالنفس إلى شيء من الغرور الجامح تصبح مرضاً خطيراً، وعلةً مدمِّرةً للإنسان، فربما دمر المبتلى بها نَفْسَهَ، أو دمر وطنه إذا كان قائداً مطاعاً.

وعلى كل حال فهذا شيء من حب الذات المذموم الذي يعاني منه كثير من الناس، فيقعون في اللوم، وربما التهكم، بل ربما انغمسوا بسببه في الإثم؛ وجلبوا الشقاء لأنفسهم، ومن تحت أيديهم.

والذي يطفئ نارَ الشَّرهِ والهلعِ، والمبالغةِ في حب الذات ـ لزومُ التواضعِ، والتفكرُ في عيوبِ النفس، وقوةُ الإيمان بالله، والإقبالُ عليه ـعز وجلـ وإيثارُ الآجلة على العاجلة.

فهذه الخصال ترفع هِمَّةَ الإنسان عن الاستغراق في نفسه، وعن مبالغته في الإعجاب بذاته؛ فتوصله إلى أن يحب لغيره ما يحب لنفسه، ويكره لغيره ما يكره لنفسه، وذلك هو كمال الإيمان.

وإذا زاد إيمانهُ سمحت نفسه بأكثر من ذلك؛ فصار يؤثر غيره على نفسه في ملذات الحياة الدنيا.

وهذا هو الذي سَمَا بنفوس الأنصار، فصاروا يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ـأيْ حاجةـ فاستحقوا بذلك الإيثار الثناءَ العاطرَ الخالد من رب العالمين ـجل ثناؤهـ في محكم تنزيله، فقالـعز وجلـ عنهم ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾(الحشر: ٩).

وهكذا يتبين أن حبَّ الذات ليس على وتيرة واحدة؛ فلا يُذَمُّ في الأصل ما دام سائر على حد الاعتدال.

وإنما يذم إذا بالغ فيه صاحبه مبالغة تصل إلى حَدِّ الغلو، والخروج عن الطور.

الفهرس

المقدمة ٣

١ـ ومضات قصيرة ٦

٢ـ لطيفة في سيرة موسى ـعليه السلامـ ١١

٣ـ الذوق في تطبيق السنة ٢٠

٤ـ كبير وهو لا يدري ٢٣

٥ـ كأنه والد ٢٦

٦ـ ساعات الصفاء ٢٨

٧ـ خذ منه ما يليق بك ٣٢

٨ـ مبدؤها كلام ٣٤

٩ـ كل ينفق مما عنده ٣٧

١٠ـ الاتحاد الأوربي ٤٠

١١ـ الوهم ٤٤

١٢ـ مقتضى الحال في الوعظ ٤٨

١٣ـ ﴿فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ ٥٣

١٤ـ وجه طلق ٥٥

١٥ـ الندوات والمداخلات ٥٨

١٦ـ الصاحب المواتي ٦٢

١٧ـ بديهة معلم	٦٥
١٨ـ أتى بالعجائب	٧١
١٩ـ أخلاق بائع	٧٧
٢٠ـ خذه على علاته	٧٩
٢١ـ غفلة	٨٢
٢٢ـ العمر الثاني	٨٤
٢٣ـ مسألة في العدل	٨٨
٢٤ـ وتَمَاسَكْتُ	٩١
٢٥ـ الجفوة العارضة	٩٥
٢٦ـ لغة الاستفزاز	١٠٢
٢٧ـ السرعة والعجلة	١٠٨
٢٨ـ تجربته مع الصوم	١١١
٢٩ـ برود المعاني	١١٩
٣٠ـ محاصرة الخطأ	١٢٢
٣١ـ السلامة من سلمى	١٢٦
٣٢ـ نور الحقيقة وظلام الشائعة	١٢٨
٣٣ـ وحلَّ بغير جارمه العذاب	١٣٠
٣٤ـ ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴾	١٥٤

٣٥ـ دمعة على الشيخ بكر أبو زيد ١٣٨
٣٦ـ في الزوايا خبايا ١٤٥
٣٧ـ حمّالة الورد ١٧٣
٣٨ـ أبو هزّاع سيد الطرفة ١٨١
٣٩ـ عفة اللسان والقلم ١٩٥
٤٠ـ القياس الفاسد ١٩٧
٤١ـ القول السديد ٢٠٢
٤٢ـ ولَيْتَك تسلم ٢٠٥
٤٣ـ إلا الحماقة ٢٠٨
٤٤ـ سلة المحذوفات ٢٠٩
٤٥ـ التحليل ٢١١
٤٦ـ ثقافة المشي ٢١٣
٤٧ـ الصبر مِلاك الفضائل ٢٢٤
٤٨ـ عِبَر من معركة علمية ٢٣٦
٤٩ـ التركيب ٢٤٠
٥٠ـ تيهي يا سَمَنُّود ٢٤٢
٥١ـ القاصية ٢٥٣
٥٢ـ ثقافة النقد ٢٥٨
٥٣ـ اجتماع الكلمة ٢٦٤

٥٤ـ السماحة ٢٦٧

٥٥ـ سرقات ٢٧٢

٥٦ـ قيمة الفضل فيه لا فيما يقال عنه ٢٧٩

٥٧ـ النفس اللجوج ٢٨٥

٥٨ـ الشيخ عبدالكريم اليوسف ـ الداعية الصبور ٢٨٩

٥٩ـ أنتَ ٢٩٤

٦٠ـ الوقت المناسب للتصحيح ٢٩٦

٦١ـ الغمغمة ٢٩٨

٦٢ـ طلاق مثالي ٣٠٠

٦٣ـ البحث عن المنغصات ٣٠٥

٦٤ـ بين الثقة والغرور ٣٠٦

٦٥ـ حبُّ الذات ٣٠٧

ـ **الفهرس** ٣١١